كتاب العربي ٧٥
AL ARABI
يناير - ٢٠٠٩

ABU ABDO ALBAGL

نساء في التاريخ العربي

تأليف: سنية قراعة

مدونة ابو عبدو

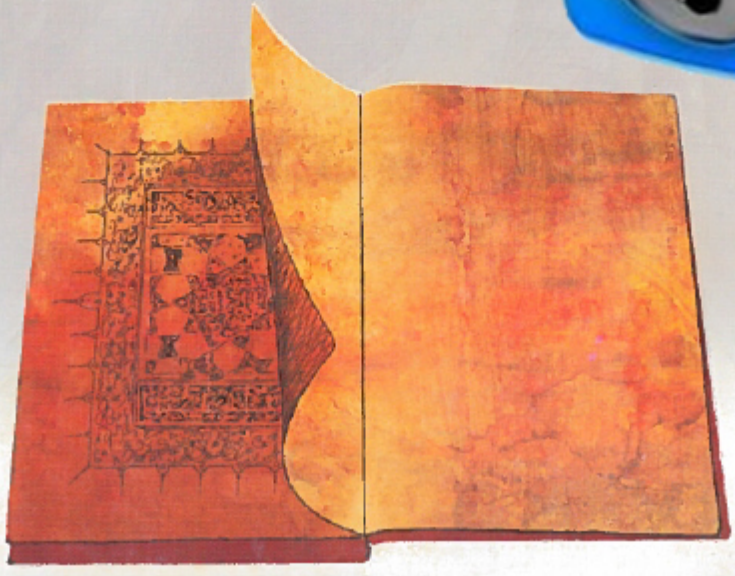

4975

نساء في التاريخ العربي

تأليف: سنية قراعة

كتاب العربي AL-ARABI ٧٥

رئيس التحرير

د. سليمان العسكري

سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات
والموضوعات لكاتب واحد
أو موضوعا واحدًا تتناوله عدة أقلام.

عنوان الكتاب: نساء في التاريخ العربي
تأليف: سنية قراعة
الناشر: وزارة الإعلام - مجلة العربي

الطبعة الأولى:١٥ يناير ٢٠٠٩

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية:
Depository Number: 381 / 2008
ISBN: 978-99906-38-38-7 ردمك: ٧- ٣٨ - ٣٨ - ٩٩٩٠٦ - ٩٧٨

العنوان: ص.ب: ٧٤٨ الصفاة -
الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ شارع ٤٧ - قسيمة ٣

جميع الحقوق محفوظة للناشر

Al -Arabi Book, 75 th
Women in Arab History
15 January .2009
Publisher: Ministry of Information
AL-Arabi Magazine.
All Rights Reserved.
E. mail: alarabimag@alarabimag . net

الغلاف: رسم الفنان محمد أبوطالب
تصميم الكتاب : حافظ فاروق

كافة الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن فكر أصحابها.

نساء في التاريخ العربي

تأليف: سنية قراعة

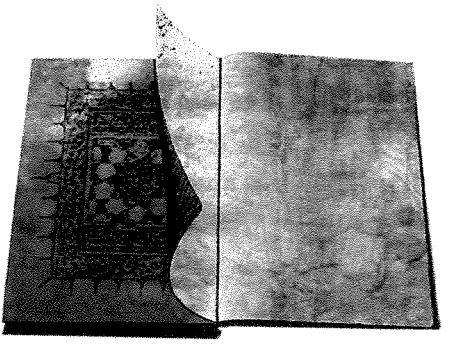

سنية قراعة وأدب الخالدات

بقلم: د. سليمان إبراهيم العسكري

إن المتابع لأعمال سنية قراعة يلاحظ بسهولة أنها تنتظم طريقة بعينها ومجالا محددا للكتابة الأدبية.

فأغلب كتاباتها وقصصها تركزت حول شخصيات نسائية عرفها التاريخ الإسلامي وشهد لها بالخلود. وبذلك فإن السيدة قراعة لا تبتكر شخصيات جديدة، بل هي تدير قلمها لترسم سمات شخصيات معروفة ومشهود لها بالخلود في الأذهان. إذن جل محاولة الكاتبة يتركز على محاولة فهم هذه الشخصيات وتقديمها بشكل معروف للقارئ.

والشخصيات التي تصورها سنية قراعة لا تبدأ من العدم بل هي في الأصل ذات أصل عريق نبيل، لذا تتلخص مهمة الكاتب في إبراز طريقة هذه الشخصيات في الارتقاء والسمو الروحاني، بعد أن قيض لها قدر كبير من الاستقرار المادي.

لذلك فإن المهمة الإبداعية التي تخاطر سنية قراعة بالدخول فيها واقتحامها كان يمكن أن تفشل بكل سهولة، وذلك لأن الشخصيات التي تكتب عنها هي بالفعل موجودة في صدور القراء وأذهانهم بحيث لا يحتاجون إلى معرفة جديد يتعلق بها. بل تخاطر بأن تأتي قصصها على عكس ما يتوقعه القارئ الذي يمتلك بالفعل معرفة مسبقة بهذه الشخصيات، والذي لايتوقف عن مقارنة ما تكتبه بما يتوافر لديه من علم مسبق

بهذه الشـــخصيات. وهنا يكمن التحدي الرئيس في مسألة الكتابة عن الشخصيات التاريخية.

لكن ســـنية قراعة تمكنت من إنجاز هـــذه المهمة ببراعة، فعندمـــا كتبت قصة رابعة العدوية، تمكنت من إثارة الخيال بشكل باهر عندما صورت الانقلاب الأخلاقي الذي أنجزته رابعة العدويـــة من حياة المجون إلى حياة التصوف والزهد، لدرجة أن الســـينما المصرية تبنت قصتها وحولتها إلى فيلم حقق نجاحاً كبيراً.

هـــذه القدرة على إضفاء العناصـــر الدرامية والتخيلية، التي هي من صميم الكتابة الأدبية، على شخصيات تاريخية خالـــدة، تدل على جرأة شـــديدة من ســـنية قراعة، كما أن نجاحها في ذلك يدل على براعة أشد.

ولتقديـــر قـــدر المهمـــة الأدبية التـــي أنجزتهـــا علينا أن نعلم أن إحدى الصعاب الرئيســـة في تصوير الشـــخصيات الخالدة ورســـم رحلاتها نحو الارتقـــاء الروحاني تتمثل في أن الرقـــي يعتبر صفة موجودة بالقوة منذ البداية لدى هذه الشـــخصيات الخالدة، بحيث يصعب علـــى الكاتب المبتدئ تتبـــع تجليات ظهور ونمو هذا الرقـــي لحظة بلحظة، وبهذا يغادر القارئ قصته، لأنه يجدها خالية من عناصر المفارقة والتضـــاد والصراع الدرامي العنيـــف التي تتوافر للقصص التي تتناول الشـــخصيات المختلفة من وحي الخيال الأدبي. لكن الكاتـــب الحاذق هو من يتمكن من تصوير لحظات نمو الشـــخصية الخالدة رغما عن التوقعات المســـبقة الموجودة لدى القارئ، بل ويقدمها للقارئ بشـــكل مستجد عليه، حتى يثير استحسانه، ويختلف عن توقعاته دون أن يخالفها وتلك

مهام على درجة كبيرة من الخطورة والدقة.

فإن أخذنا في الاعتبار أن أغلب الشخصيات التي تناولتها سنية قراعة تنتمي إلى التاريخ ولا تنتمي إلى الوقت الراهن، فسندرك قدر المخاطرة الأدبية التي كانت تقوم بها كلما مارست الكتابة.

هذه المهمة الأدبية التي اضطلعت بها الكاتبة ما كان لها أن تنجح لولا ظروف موضوعية وفرت لها الخبرة والبراعة اللازمتين لإنجازها على الوجه الذي قامت به.

فالكاتبة تنتمي لأسرة لها صيتها وتاريخها الطويل والمشرف في المجال الديني. فقد لمعت أسماء كثيرة من أفراد أسرة «قراعة» في مجال الدعوة والشريعة الإسلامية والإفتاء والقضاء منذ أكثر من قرنين من الزمن. فهناك الشيخ «محمود قراعة» الذي عمل قاضيا لمديرية أسيوط في مصر في نهايات القرن التاسع عشر، والشيخ عبد الرحمن قراعة الذي عمل مفتيا للديار المصرية، في عهد الملك فؤاد الأول. ما زال حاملو اسم قراعة يتمتعون بنشاط فاعل في مجال العمل الديني.هذا التاريخ المديد يمنح اسم قراعة الذي تحمله السيدة سنية مصداقية أدبية ذات استمرارية متصلة في مجال الانشغال والاشتغال بالممارسة الدينية بمختلف أشكالها وأطيافها، بدءا من الممارسة السمعية والقولية في مجال الدعوة والمشيخة الإسلامية والافتاء وصولا إلى الممارسة الكتابية في مجال التشريع والقضاء والأدب الإسلامي.

ولا شك في أن هذا التراث العائلي كان له أكبر الأثر في إمداد سنية قراعة بالخبرة والبراعة اللازمتين لها

للنجاح في الكتابة عن النساء الخالدات في التاريخ العربي والإسلامي.

بل تبدو هذه المثابـرة الأدبية التي أنجزتها الكاتبة كجهد «حثيـث بذلته لاسـتحقاق اسـم أسـرتها والإنتظام داخل تقاليدها العريقة من العمل في مجال نشـر «القيم» المثالية الدينيـة بين أفراد المجتمـع، وهو ما يعبر عن إحساسـها المستمر بوجود نوع من الرسالة الشخصية لتنكب هذا النوع مـن العمل، ذلك أنها لم تكتب قصة أو اثنتين بل عشـرات وعشرات القصص.

أما عن أسـلوب سـنية قراعة في الكتابة الأدبية، فنجد مثالا عليه عندما تكتب في قصة «فاختة بنت أبي طالب»:

«وهنـا لابد لنا من وقفة، أجل وقفـة عارضة أمام إدعاء الـرواة أن محمدا(ص) قد خطب فاختة أم هانئ إلى عمه، لسنا في هذا المجال نناقش حقا من حقوق محمد(ص) في تقدمه ليخطب من يشاء، ولكن لنسأل متى كان هذا التقدم على وجه التحديد...».

من الواضح أن المسألة بالنسبة لسنية قراعة ليست مجرد كتابة قصة بل هناك قدر من الاشتباك والمحاججة والدفاع عن الشـخصية وإنكار ما قد يثار عن الشـخصية المحكي عنها من شائعات سلبية.

الكتابة إذن بالنسـبة للكاتبة لم تكن مجرد إبداع فني، بل هي مرتبطة بالتأكيد على قيم دينية محددة، تدخل في باب تطهير الشخصية والحفاظ على المظهر التقديسي الواجب لها.

إذن هنـا أيضا نجد تأكيدا على سـمة المـزج والازدواج التي تميز أعمال سنية قراعة، فهي تجمع في قصصها بين

مكونين مختلفين، هما الأدب والعقيدة.

فـالأدب يرتبـط لديها بالعقيدة وهو ليـس أدبا من أجل الأدب بـل هو أدب ملتزم له هـدف خارج الأدب هو الهدف التربوي والعقائدي.

كذلـك يعبر اختيارها لهذا النوع الأدبي - القصة - لنقل رسـالتها الدينية عـن رغبة دفينة في التحـول من الوعظ إلى السـرد. ويمكننا أن نخمن أن هـذا التحول قد كان له أثر حاسـم في حياتها الشخصية، فقد انفتحت آفاق سنية قراعة على مجال الإبداع الفني، بينما بقيت في الوقت ذاته داخل مجال العمل الديني.

بهـذا قيـض للكاتبة أن تمثـل مزيجا للجمـع بين الفن والدين، حيث ارتبطت بكليهما. وهي من مواليد بداية القرن العشـرين، وقد توفاها الله في بداية التسعينيات من القرن نفسه، فقد عاشـت حياة مديدة شـهدت خلالها تطورات كثيرة طالت المجتمع العربي عامة والمصري خاصة.

فيما يتعلق بخصوصية مسـألة النساء في التاريخ العربي فلابـد من الخوض في مسـألة ما قدمه الإسـلام لقضية المرأة.

وللقيـام بذلك يجب قياس انجازات الإسـلام في قضية المرأة داخل سـياقه الخاص مع مقارنة حجم التطوير الذي أنجزه قياسا على ما كان سائدا وما كان يمكن أن تصير إليه الأمور لولا ظهوره في التاريخ.

أي أنه يجب مقارنة وضع المرأة قبل الاسلام بوضعها بعد الإسلام والنظر في قدر التطور الحادث وإن كان يمكن لهذا التطور أن يحدث دون بزوغ الاسلام أم لا. أي هل نعزو هذا التطور إلى الإسـلام أم أن هذا التطور كان حتما سيحدث

نتيجة لظروف تاريخية لا دخل للإسلام فيها.

ومن ناحية ثانية يمكننا تقييم تطور قضية المرأة في الغرب وفق مقارنة الماقبل بالمابعد في كل مرحلة مفصلية من مراحل التاريخ الغربي لفهم وتقييم مدى تأثير هذه المرحلة ثم تقييم ما إذا كانت ترقى إلى ما انجزته المرحلة الإسلامية أم لا.

إننا لو قمنا بمثل هذا القياس بقدر من الموضوعية فسنصل إلى نتيجة فحواها أن الانجاز الذي دشنه الإسلام في مجال حقوق المرأة يكاد يكون غير مسبوق إذا ما قيس بأي إنجاز آخر لأي مرحلة تاريخية مماثلة في المدى لدى الغرب بل ولدى أي حضارة أخرى.

لكن بالطبع يكمن سر التفوق الحالي للغرب في استمرارية التراكم الحضاري والذي لم نحظ بمثله في الشرق، ربما بسبب وقوعنا أسرى للسيطرة من قوى عدة جاءتنا من الشرق والغرب على حد سواء، وأوقفت نمونا الحضاري وانقطعت مسيرة حضارتنا، ودخلنا مرحلة طويلة من التخلف والجهل فسادت الخرافة والشعوذة وسيطرت عقلية قهر المرأة.

تبقى مسألة تصوير سنية قراعة للمرأة العربية، فمن الملاحظ أن جميع الشخصيات التي نصادفها في الكتاب الحالي تنطبق عليهن سمة «الواقفات خلف كل رجل عظيم»، لكن هذا لا يعني بأي حال أنهن لم يكن عظيمات في ذواتهن وبمفردهن، أو أن عظمة كل منهن إنما كانت تقترن بدورها المقصور على المساهمة في عظمة الرجل الذي تقف خلفه، ففي هذا الظن قدر كبير من سطحية التفكير. وأول ما يدحضه هو القانون التربوي المستقر: ذلك أن فاقد

الشـــيء لا يعطيه؛ فلو لم تكن كل واحدة من هذه السيدات عظيمة في ذاتها، فمن المؤكد أنها كانت ستفشل في تسبيب عظمـــة الرجل الـــذي وقفت خلفه. الأمـــر الآخر يكمن في خصوصيـــة وطبيعة المرأة العربية ذاتهـــا والتي ظلت تتبنى دورا معينـــا ونموذجا محددا للفعل له ســـمات خاصة عبر مختلـــف مراحل التاريخ العربـــي وكأنما فعلت ذلك باختيار ربمـــا يكون قـــد تم إما بفعـــل غريزتها المتيقظـــة أو وعيها الثاقب. فقد اختارت المرأة العربية في أغلب مراحل التاريخ العربي الســـالف دور المســـاندة والدعم، بينما تركت للرجل دور المواجهـــة في الخطوط الأماميـــة. وتثبت أغلب أحداث التاريخ العربي أن اختيـــار المرأة العربية لهذا الدور لم يكن عـــن ضعف أو قصور منهـــا أو انصياعاً لدور أجبرت عليه، بـــل عن اختيار واع، بدليل أن هذه المرأة العربية كانت تنتقل فورا إلى الخطـــوط الأمامية وتحل محـــل الرجل وتمارس مهامه عندما تستدعيها الأحداث لفعل ذلك، فتنجز وتحسم وتصل وتمنع وتقطع وتقضي وتمنح بأفضل مما يفعل أقوى الرجال. وتاريخنا العربي يمتلئ بنماذج من النساء العربيات اللاتـــي تصدرن لمهام القيـــادة في الصفـــوف الأمامية في مراحـــل تاريخية حرجة، بحيث إنهـــا لتنصف المرأة العربية إذا ما آن أوان عقد المقارنات بين السياق العربي والسياقات الحضارية الأخرى.

لكن يبقى هنا ما يستدعي المصارحة!

صحيح أن المرأة العربية قد اختارت عن وعي دور المساندة والدعـــم، بما يـــدل عليه ذلك من وجود نفـــور غريزي لدى المرأة العربية من السقوط في فخ الأناوية والنرجسية وحب الذات، بـــل وإيثارها للغيرية وتفعيلها الكامل لوعيها الثاقب

بدورها النسّاج لوشائج الاستقرار الداخلي والحب العائلي وفعلها المفصلي المتفرد في مد شبكات الأمان والحنان الإنسانية بدءا من المجال الأسري النووي ووصولا إلى المجال الاجتماعي الكلي، بشكل يستغلق على أفهام أغلب الرجال، بل وعلى أفهام أغلب النساء غير العربيات اللاتي تدفعهن ظروفهن الحضارية المعاصرة شيئا فشيئا نحو نوع من الانسحاب الهروبي نحو أناوية نرجسية تتعارض مع طبيعتهن الأنثوية.

كل هذا صحيح تماما ويميز المرأة العربية عن المرأة غير العربية بشكل حاسم لا جدال فيه.

لكن يبقى علينا أن نتصارح بأن وتيرة تكرار نماذج النساء اللاتي تتكبن مهام قيادة الصفوف الأمامية في التاريخ العربي كانت محدودة، وكأنما جاءت بالضبط بالقدر الذي ينفي سمة الضعف عن المرأة العربية دون أن يؤكد لها سمة القوة.

ومن هنا نطرح تساؤلنا الخاتم لهذه المقدمة:

إذا كانت أحوالنا العربية على ما هي عليه من ضعف وهوان عام في تاريخنا المعاصر، أليس ذلك لأن كثيراً من رجالاتنا العرب هم بالفعل مسئولون إلى حد كبير عما وصلنا إليه؟

إذن أما آن لنا أن نفعل دور نسائنا ونشجعهن على التقدم لتسلم المزيد من زمام الأمور في الصفوف الأمامية علهن يخففن من شطط الرجال في عصرنا الراهن، فما أحوجنا إلى وجودهن في الصفوف الأمامية بعد أن ذقنا الأمرين من أساليبنا الرجالية.

خديجة بنت خويلد*

كان لها الحسب، وكان لها الأصل العريض، فهي بنت الصيّد البهاليل من سادات قريش، وفوق الحسب والأصل العريق، والأرومة العتيدة، كان لها الجاه العالي، ثم كان لأبويها المال الجم والثراء الوفير، وللمال والثراء فعلهما وأثرهما، فلاعجب أن تقدم لها السادة الغطاريف يخطبونها لأنفسهم، ويدعون بما كان لها من فضل وأمجاد، أمجاد كانوا يتميزون بها ويفاخرون.

وهكذا تزوجت خديجة بنت خويلد، سيدا من أكرم أبناء عمومتها هو «عتيق بن عائذ المخزومي»، وأنزلها أعز منزل، وأكرمها أيما إكرام، وعاش معها حياة، كانت هي السعادة المدعمة المستقرة، حتى شاءت إرادة الله أن يفرق الموت بين الزوجين الشابين، فمات عتيق وترملت خديجة، وهي لما تزل بعد في نضارة الصبا والشباب.

وعادت الأرمل الشابة إلي بيت أبيها خويلد، وقد ورثت مال زوجها عتيق، فزاد لديها المال، وتعاظم الثراء، فشغلت نفسها بالتجارة شأنها في ذلك شأن مجتمع قريش وشأن ساداته، حتى حدث أن تقدم «أبو هالة هند بن زرارة التميمي»، يخطبها لنفسه، وكان سيدا في قومه، له جاهه ومكانته، وماله، فارتضته خديجة زوجا ودخلت بيته، وعاشت في ظله ما شاء لها الله أن تعيش.

ثم، لحق «أبو هالة» بربه، وترملت خديجة للمرة الثانية، وللمرة الثانية،

* العربي - العدد ١٠٦ - سبتمبر ١٩٦٧م.

ورثت فوق مالها، مال الزوج، فعظم الثراء، وتكاثر المال، وتبعاً لذلك اتسعت دائرة التجارة، وعظم نطاقها.

وورثت خديجة بعد هذا، وفوق ما ورثت قبل، مال أبويها ومركزهما التجاري، ومكانتهما المدعمة، وما كان لهما من أعمال عدة متشعبة، وأصبح عليها وحدها أن تديرها، وتتولاها، وترعى شئونها، فخرجت إلى نطاق العمل، وباشرت الصعب من أمور الاتجار فكثر عبيدها، وتكاثر مالها، وتضاعف عدد من كانوا يعملون لحسابها وتحت إمرتها، وأصبحت لها صلات بأهل المال وأصحاب التجارة، وخرجت باسمها القوافل عبر الصحراء في رحلتي الشتاء والصيف.

وبحكم هذا المركز المالي الكبير، والإشراف الكامل على أعمال التجارة والقوافل وعمالها، وترتيب مواقف خروجها وعودتها في مواعيد منتظمة - أصبحت خديجة وثيقة الاتصال بمجتمع قريش، تعلم الكثير من أنباء أهله.

وسمعت خديجة في جملة ما سمعت باسم محمد، فتى من بني هاشم، عمل في صغره وعرف في مجتمع مكة بأسرها باسم الأمين.

شاب يخطو نحو الرابعة والعشرين، في ربيع عمره، مكتمل الشباب ولكنه راجح العقل، جميل الطباع، رزين، هادئ، له فلسفة الحكماء وطول باعهم، وحكمة الشيوخ وبعد نظرهم، فيه روية أهل الحجا، وله سعة أفق العلماء الواثقين ممن يزنون الأمور ويضعون كل شيء في موضعه الحق الجدير به.

***

وعجبت خديجة بنت خويلد لما سمعت من أمر محمد بن عبد الله، ووجدت نفسها تطلب المزيد من أنبائه، لتعرف عنه، أكثر مما عرفت.

عرفت أن أباه عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم، مات وأمه آمنة بنت وهب حامل به، وأن جده عبدالمطلب كفله، وأن حليمة السعدية أرضعته وتربى معها في الصحراء وسط ربوع أهلها، فعرف البادية، ونشق هواءها، وعاشر أهلها.

وراحت خديجة تطلب المزيد من أنباء محمد، فعرفت عنه ما أثار دهشتها، وعجبها، بل تقديرها وإعجابها، عرفت أن محمدا لم يتصف

بالأمانة والحجا فحسب، بل بالعزوف عن مجتمع قريش بأسره، والبعد عن مجون أهله، وإسرافهم في طلب الملذات، وراع خديجة أن يوجد في مكة قرشي شاب، بعيد بروحه وفكره عن مجتمعه وطباع قومه، ووجدت فيه وعن طريق السمع، أميناً يجب أن يؤتمن، وحكيماً، من التعقل أن تستغل حكمته، ومن هنا، قررت أن يعمل معها، وأن تكل إليه أمر قافلة من قوافلها، يخرج بها إلى الشام.

ولما كان صاحب المال دائماً يتميز بالحرص، والدقة في اختيار أمنائه، فقد حرصت خديجة على أن تختبر محمداً، اختباراً عملياً، ظاهراً، فوكلت إليه أمر التجارة، ثم أرادت فوق هذا أن تختبره روحياً وخلقياً، إذا ما هو بعد عن مجتمعه الذي عرف فيه بالرزانة والتعقل، وخالط مجتمعا لا يعرفه فيه أحد، ولقى فيه حريته الكاملة، البعيدة عن الرقابة والعيون، فأرسلت معه عبدها «ميسرة» ليرقبه عن كثب، حتى إذا ما عاد، عاد إليها بصورة كاملة عن محمد، في حله وترحاله، في سفره وإقامته، في ممارسته للتجارة، ومعاملته للناس، في بيعه وشرائه، في تعرّفه على كل وسط جديد يدخله، ومع كل أناس يخالطهم.

وخرجت القافلة، وعلى رأسها محمد بن عبدالله، وخديجة تتعجل الأيام لعودتها، ومعها أنباء الشاب الذي تمنت أن تصدق فيه أقوال الناس، وألا تخيب فيه فراستها وصدق حدسها.

وعادت القافلة والربح الوفير، والتجارة الرابحة، وأعز وأروع الأنباء التي كانت تتصوّرها خديجة الطيبة التي راحت تصغي إلى «ميسرة» عبدها الطيب وهو يحدثها حديث المأخوذ عمّا رآه من الأمين محمد طوال أمد الرحلة من مكة إلى بلاد الشام، ومن هناك إلى مكة.

خوارق وأعاجيب سمعتها خديجة عن محمد، ومديح يتلوه مديح، فالشاب العزوف عن مجتمع قريش، ظل على حاله، العزوف المتباعد عن مجالي الشام ورائع سوامره التي يقبل عليها التجار في شغف ويرتادها أصحاب القوافل في لهفة وإعجاب.

أبداً ما غيّرت الرحلة من محمد، ولا بدلته ظروف السفر والترحال، بل ظل كما هو، هادئاً، رزيناً حكيماً، صامتاً لا يتكلم إلا حين يفرض

عليه الموقف الكلام، فإذا تكلم، كانت الكلمة الواحدة منه تزن آلاف الكلمات، وتجذب السامعين إليه، ففي صوته نبرة غريبة، وجرس أخّاذ يجبر سامعه على الإنصات له.

واستعرضت خديجة الأمر، لقد عادت التجارة بأضعاف أضعاف ما كانت ترجوه لها من ربح، وهذا ما يشجع على التمسك بمن أشرف عليها هذه المرة، لأن الربح سيتضاعف بعد ذلك أضعافاً فوق أضعاف، ومحمد هذا، يجب ألا تفرط فيه خديجة أبداً، بل لترى بحاسة صاحبة الأعمال الواسعة، أن الحكمة توجب ضرورة استبقائه، وأن تكل إليه أعمالاً بعد أعمال.

وكما كان محمد الأمين حديث قريش من قبل وموضع إعجاب وإكبار أهلها على مختلف أعمارهم ومراكزهم، أصبح اليوم موضع اهتمام خديجة، حتى أنها هي الأخرى تتحدث وتطريه، وتمتدحه أمام أقرب صاحباتها إليه، وأن إحداهن وهي صاحبتها «نفيسة بنت منية» لتستمع إليها في دهشة، وتحس بأن خديجة تتحدث حديث القلب، وأن في النفس إلى محمد، ما هو أكثر من الإطراء والمديح.

وشاءت القدرة أن تلعب نفيسة دورها في التقريب بين خديجة ومحمد الذي ارتاحت خديجة إليه، وأسرعت الصديقة الأمينة إلى محمد تسأله سر انصرافه عن الزواج، وقد بلغ الخامسة والعشرين، فكان صريحاً معها إلى أبعد حدود الصراحة، إذ لم يكن بيده ما يتزوج به، فإذا بها تعرض عليه الحسب والمال والجاه، فعرف أنها تشير إلى خديجة التي أنس إليها من قبل، وسرعان ما قبل عرض نفيسة في لون من ألوان التحفظ، لأنه كان يعرف أن خديجة قد طلبها سادات قريش وكبار أثريائها فردتهم، فكيف تقبله هو وهو المعدم الفقير.

وهونت نفيسة الأمر لمحمد، وعادت إلى خديجة، ثم.

ثم تم الزواج المبارك المبرور، وحضره أعمام محمد وعم خديجة عمر ابن أسد.

وأصدق محمد خديجة عشرين بكراً، وبدأ حياته المستقرة معها، وانتقل إلى بيتها الهادئ، الذي أغناه الله بوجوده فيه عن الناس، ورفرفت السعادة على الزوجين الهانئين وبدأت تؤتي ثمارها النضرة. ورزق محمد

من خديجة بأولاده القاسم والطاهر والطيب، وببناته زينب ورقية وأم كلثوم ثم فاطمة الزهراء.

وشاءت إرادة الله، أن يتخير إلى جواره أولاد محمد الذكور، فلحقوا به سبحانه وتعالى وهم في طفولتهم المبكرة، فحز هذا في نفس أبيهم الطيب، الذي اتجه بكل رعايته وعطفه بعد ذلك إلى زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الصغيرة.

ومرت السنون، مرت في يسر وهدوء إلى أن زوج محمد ابنته زينب بأبي العاص بن الربيع ابن خالتها، وخطب عمّه أبو لهب رقية وأم كلثوم لولديه عتبة وعتيبة.

خمسة عشر عامًا مرت بعد الزواج السعيد، وشارف محمد الأربعين من عمره، وقد زادته الأيام حكمة وأصالة، وكفلت له ظروفه المادية الميسرة عيشاً مستقراً، وتفكيراً منظماً، ما لبث أن تخطى محمد به مجتمعه، ثم استقر به إلى ما هو فوق تفكير أهل مكة جميعاً.

ما أصغر هذه الحياة، وما أهونها وأحقر شأنها، بل وما أتفه عقول الناس هذه التي بعدت عن الحق، وتعامت عن الجوهر، واتبعت الزيف، وأحبت الضلال!!

ثم، أي حياة هذه التي يحياها أولئك الناس، وهل يعبثون في حياتهم وبمجتمعهم حتى يصلوا به إلى هذا الدرك السحيق، فعاشوا حياة بلا هدف وبلا غاية، حياة لا تعرف غير العبث واستحلال الحرمات.

مجتمع سادر في الغي، غارق في الإثم، مقبل على لذات الحس، دينه التدنّي، وديدنه الشهوات!

والحقيقة!

حقيقة هذا الوجود، حقيقة الإنسان ورسالته وهدفه من الحياة، أين ذهبت؟

والحق، الحق وحكمته وأصله وفلسفته ومراميه السامية! أين ضاعت معالمه، وكيف بددته عقول هؤلاء الناس!

كل شيء تافه، وكل ما هنالك حقير لا يساوي مثقال ذرة من وجوده.

لهو وعبث وخروج سافر عن لب الحقيقة!!

حتى العبادة عبارة عن تمرّد، والتعبّد ضلال، وطقوس الضراعة غي

وبهتان مبين.

أي دين هذا الذي انتظم كل هؤلاء العابثين؟ وكيف أباح لهم المحرمات، وناداهم إلى الإثم، وحرّضهم على الرذيلة؟ وأى معبود هذا الذي يقبل لعباده هذا التردي ويسمح في مواسم الحجيج إلى ساحته بأمثال هذه الموبقات ؟!

خمر، ورقص، وتجرّد، وانحلال، أهذه هي شعائر ذلك الدين، وتلك كانت طقوسه!!

لا.. لا.. وإلى الأبد لا.. فليس هذا كله من الحقيقة الطاهرة الناصعة في شيء أبدا.

إذن، فأين الحقيقة، وأين وجه الحق؟!

تلكم كانت الفكرة، وذلك كان المدار الرحب الذي دارت حوله أفكار محمد.

لقد كانت فكرة الحق هي شغل محمد الشاغل، وأن وجدانه الملهم النقي الطاهر ليرشده إليها، ولكنه رغم هذا كان في حيرة من أمر، ومن أمور عدة كان يراها حوله، ويرى أنها فرضت قسراً على مجتمعه الضال، وأهله الضالين.

من أجل حيرة الوجدان، وقلقه وعدم استقراره، أنكر محمد مجتمعه، وباعدة وأمعن في الهرب منه، لا خوفاً مما كان يحدث، بل ترفعاً عن التدني، وإشفاقاً لتهاوي البشر في الإثم وإغراقهم في الباطل.

وفي سبيل البحث عن الحقيقة الجلية التي تؤمن بها الروح الصافية، ويدين بها العقل المجلو، ويقبل عليها القلب الشفاف، وترضاها النفس المستضيئة بأنوار الحق - راح محمد يبحث عن الحقيقة في بعده عن الناس، بعداً، تمرّد فيه على عبادتهم ووسائل تعبّدهم، فأبى أن يتصوّر أن للأحجار المنحوتة قيمة، أو أن للصنم العاجز قدرة، أو أن له - حتى كما كان مجتمعه يدعى - شفاعة وقرباً من الله.

أبداً ما كان لمحمد - الذي تولاه الله برعايته، وأعده ليهدي به الضالين جميعاً إلى طريق الحق - أن يساير قومه في طريق، أو يوافقهم في رأي، فكان غريباً عنهم وإن عاش بينهم، يرقبهم وهو يأسف لهم ويشفق عليهم ويرثى لحالهم.

كانت نفس محمد عامرة بالآيات البينات، مضطربة بالمشاعر النورانية ولكن، لم يكن بوسعه أن يفصح عمّا كان يشعر، أو يعبّر عما كان يحس، فلم يكن قد حان الوقت، وجاء الأمر اللدني الأعظم.

وأمعن محمد في البعد عن مجتمعه، وهاهو ذا يميل إلى التحنث، والتحنف، ويهوى التفكر في ملكوت السموات والأرض.

كان محمد يمر بالفترة التي مر بها جده الأعظم إبراهيم عليه السلام، وكان وجدانه يناجي، أو كأنى به، كان يهتف بما هتف به إبراهيم، وقد ضاق بالشمس، وكره أن يتبع النجم، أو يؤمن بالقمر. وقال: «لئن لم يهدني ربي..».

ووجد محمد راحته في «غار حراء»، فكان يهرع إليه، ويلجأ إلى هدوئه الذي طابت إليه نفسه، وكان يبقى فيه متحنثاً، متحنّفا. متفكرًا أياماً بعدها أيام، وهنا، وأمام إقدام الزوج على مداومة الخروج إلى هذه الخلوة الموحشة، وتكرار لجوئه إليها وانصرافه عن بيته ومن فيه، وعن الدنيا وشواغلها، إلى غيبة كان يطول أمدها في غار حراء - هنا، وأمام هذه الظاهرة الجديدة من ظواهر عزوف محمد عن مجتمعه الصغير وأهله، وهم أمس الناس به، وأحبهم إلى قلبه، هنا، تبرز عظمة خديجة وجلال تفهّمها لمشاعر الزوج وعظيم تفكيره.

أبداً ما أقحمت الزوج البارة نفسها على الأمين الذي عرفته، وخبرته عن كثب، واستشفت ما وراء روحه العظيم ووجدانه العالي.

أبداً ما سألته سر تحنّثه ولا هي اعترضت لإمعانه في خلوته البعيدة في «حراء» بل راحت تشجعه وتعينه على أموره الروحية، وكأنما أحست أن وراء هذا التحنّث ما وراءه، واستطاعت أن تتخيل ما سوف تسفر عنه هذه الوحدة التي ما كان لمجتمع قريش بها من عهد، إلا لدى فئة تكاد من قلتها أن يكون وجودها في حكم النادر، ممن كانوا يتبعون الحنيفية ويكفرون بمعتقدات قريش.

واعتاد محمد في أوقات معينة أن يخرج إلى الغار، واعتادت خديجة أن تهيئ له شتى مطالبه، وأن ترعاه، وتعينه، وتشحذ نفسه بما كانت توليه من عطف ورعاية وتشجيع، فكان يبقى هناك ما شاء له الله أن يبقى، فإذا ما طالت غيبته تلمسته الزوج الحانية واطمأنت عليه، ثم لا

تلبث أن تتركه إلى نجواه وتفكيره الصامت الطويل. وتأمله وتدبره في شئون الملكوت وتسامى روحه الشفاف إلى ما وراء الحقيقة من حقائق الكون العظيم.

وحل رمضان - ويوافق أواخر شهور العام التاسع بعد الستمائة من ميلاد المسيح عليه السلام - وأن رمضان للموعد المختار الذي اعتاد محمد أن يلجأ فيه إلى صمت الغار، وهدوء «حراء» يتحنث ويتحنف، ويفكر في الحقيقة، وما وراء الحقيقة من حقائق تغافلت عنها بصائر الناس.

ومضى الزمن في مسيره العادي، وأخذت مظاهر الحياة سمتها المألوفة، وأهل مكة هم هم، ما تغيروا، ولا تبدلوا، ولا أحسوا بمرور الزمن، وتهيؤه لحادث عظيم.

وعلى الحال نفسه من التردّي، عاش جيران أهل مكة، وجيران جيرانهم من أناس، وعشائر وقبائل، بل وشعوب وأمم وخلائق لا يعلم عديدها غير الله، حياة هي الضياع بأجلى معانيه، هي الهيمان في الضلالات، هي الإغراق في الباطل، هي الإسراف في التردي وفي الانحلال.

وقف الناس حيث تخيروا لأنفسهم أن يكونوا، وقفوا والفلك المحرك سائر، وكل ما في الكون يسعى إلى سنة التغيير.

وأخذت أيام شهر رمضان تمر كغيرها من أيام لم تعتد قريش أن تقيم لها أي حساب، وبقي محمد المتيقظ الحي، الواعي البصيرة، حيث اعتاد أن يكون في مكانه من الغار المبارك، يتفكر في خلق السموات والأرض، وتتابع الليل والنهار، ثم يهفو بوجدانه إلى الحقيقة العظمى، وما وراء تلك الحقيقة من معارف وأنوار.

كان محمد وحده يتفكّر ويرجو، ويتعالى بالحس إلى حيث هداه الحق، وصفا من أجله الوجدان، واستنارت البصيرة، واتسع رحاب القلب الذي وسع الدنيا بأكملها الكامنة فيه، المتوثبة إلى الانطلاق لتنير الظلمات وتبدد الشكوك.

وراحت أيام رمضان تمضي، ولياليه الغر الميامين تتابع حتى كانت الليلة المباركة، ليلة القدر الرفيع، الليلة العظمى الجليلة المقدار، التي شرّف بها الزمن وتعاظم، الليلة التي أرادها الحق فاصلاً بين عهدين،

بين ظلمات كان من اللازم أن تدبر، ومواكب نور أصبح من الضروري أن تتقدم، إذ كانت سنن الحياة تفرض أن يستضيء بها الكون، وأن تنتشر ومضاتها وأن تستقر وأن تدوم.

وخيّل إلى محمد وهو غارق في تحنثه، مسلم نفسه إلى خلوة الذهن والروح، وتيقظ الوجدان الحي، خيّل إليه أنه يسمع اسمه.

صوت غريب كان يناديه ولاشك، صوت غير مألوف أبدا، له أصداء لم يتعوّدها، ونبرة لم يكن له بها من عهد قبل الآن.

وأحس الأمين برعدة، واستشعر رهبة ما أحسها أبداً قبل ليلته تلك، وراح يصغي في هدوء، وأصداء الصوت تتردد في جوانب الغار برنين غريب.

وتلفت محمد حواليه في فزع، ونظر ناحية مصدر الصوت في رهبة، وإذا به يرى عجباً.

رأى محمد أية من آيات الله الخلقية الرائعة الحس، الباهرة الجمال، الشديدة الوضاءة، النورانية الصورة، وقد راحت بجليل آلائها تملأ الفضاء حواليه، حتى لقد عجب لأمرها وهي تملأ الفضاء، وتبدو في كل شيء وقعت عليه عينا الأمين الصادق محمد بن عبدالله.

وعاد الصوت القدسي الرنين، يصل إلى وجدان محمد الأمين فيهزه في رقة ولين وحدب، ونبراته الحنون، تطق مسمعي الأمين، وصاحب الصوت يقول له:

«اقرأ ..».

وتولت الصادق الأمين الدهشة، وأخذ منه العجب، مأخذه، فماذا كان بوسعه أن يقرأ في تلك اللحظات الخاشعة، وأي صحف كان يريد منه الملك الكريم أن يقرأها.

وحار الأمين.

حار محمد بين الأمر الكريم، وإغراقة الروح في محيط الدهشة، وتبلبل الوجدان، في بحور العجب والذهول القدسي، وإذا به يجيب: ما أنا بقارئ...».

وعاد الصوت القدسي الرنين يصل إلى مسامع محمد، قارئاً ما أمر محمد بقراءته، للناس أجمعين..

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم﴾.

لقد اهتدى الباحث الأمين إلى الحقيقة التي طال بحثه عنها، وأهّلت عليه أضواء المعرفة، فاستنار بها القلب، وأشرق بنورانيتها الوجدان، فعرف محمد، ثم قرأ، قرأ باسم ربه الذي خلق.

ماذا قرأ الأمين، قرأ قرآناً عربيًا غير ذي عوج «فصلت آياته قرآناً عربيًا لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً..».

قرأ محمد، قرأ باسم ربه الذي خلق، ربه الذي خلق، بالجلال النور، ينفذ إلى القلب فيعرف، ربه الذي خلق، تلكم هي الحقيقة وقد تجلت ظاهرة واضحة.

وهتف الوجدان، فقد عرف الحق، عرفه محمد الأمين الذي برأه الله من كل نقيصة وحماه من كل سوء، وحصّن بالفضائل روحه، وصان حياته فعز على الشيطان الرجيم، ولم يجسر أن يحوم حوله.

عرف الأمين، الطاهر الكامل، الراجح اليقين أن قريشاً.. أن القبائل جمعاء كانت على ضلال حين سعت إلى باحة الصنم وساحته، وسجدت أمام جلاله المزعوم، وسألت الحجر الأصم وهي صانعته، وهي التي أوجدته.

عرف محمد أن هؤلاء الناس جميعاً قد عموا عن الحق، وأن الحق الذي صانه وحماه، وبرأه من الوهم، والاتجاه إلى الصنم، فقد اصطفاه من بين الناس جميعاً فهداه إليه، ليقرأ ويعرف، ثم يقرأ بعد ذلك على الناس ما عرف، ليهتدوا بالهدى، ويتبعوا النور الذي أنزل على الأمين الصادق محمد بن عبدالله.

واهتدى محمد إلى ربه الذي خلق، أجل، الذي خلق وصنع وصوّر، وأبدع ثم هدى، وأفاض على العالمين كل خير وكل بركات، وكل نعم أجلّها وأعظمها نعمة الخلق، والمقدرة على جليل الصنع والإبداع.

خلق، وهو القادر، خلق الإنسان من علق، نعم، من علق خلق الإنسان ذلك الكائن العظيم الذي انطوى فيه العالم الأكبر، خلقه الله من علق، خلق الله الإنسان، هذا الطاغية المتحكم سيد الأرض وما فيها.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك

الأكرم الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان مالم يعلم﴾.

وقــرأ محمد، ثم عاد يقرأ، قرأ باســم ربه الأكــرم الذي خلق أولاً ثم، وبعــد أن تكرّم وخلق، تفضّل وأنعم بالعلم ونورانية العلم، فعلم الإنســان مالم يعلم.

يالهــا كانت من ليلة، ويالجلالها من لحظــات مرت بمحمد وهو في الغــار، لا يدري كم مــن الزمن مرّ عليه، هل لبث حيث كان دهراً، أم أنها كانــت لحظات جلاء خاطفة مــرّت به، أم هو مرّ بها، وأســرع إلى بيته يرتعد ويرتجف، ويسترجع في خياله ما كان، وهو يخشى أن تكون به جنة أو أن تصوّر أن الوحدة قد عبثت وأثرت فيه.

رجــع إلى بيته، في وقت لم يكن من عادتــه أن يرجع فيه أبدا، فطالما قضــى أيام رمضــان كلها متحنثاً متعبداً في الغار، بــل إنه كثيراً ما كان يحدث أن مرت به في خلوته، تلك شهور كانت تتعدى الأربعة، وقد تصل إلى ســتة شهور، فترى لماذا عاد الآن والوقت لا يسمح بمثل هذه العودة، وما كان يضيره من شيء أو هو صبر حتى مطلع النهار!!

وأي حادث تعرض له!!

تلكم كانت الأسئلة التي تزاحمت على خيال خديجة الحانية، العطوف ســاعة أهل عليهــا زوجها عائداً مــن الغار، بادي الاضطــراب، ظاهر المخــاوف، يرتجف ويرتعد، فأقبلت عليه في حنان ســابغ وعطف عظيم تسأله ما به.

وتكلم الأمين، ولم يقل غير كلمة، دثّروني.. دثّروني.. وهو يرتعد.

وأســرعت خديجة تهيئ لزوجهــا ما طلب، ثم راحــت تحوطه بالبر، وتدثــره بالحنان، والرحمــة، فأضفت عليه من روحهــا الكبير ما جعله يستشعر بعض الهدوء النسبي، ثم تكلم.

ولقد كان من اللازم أن يتكلم، إلى من يعرف كيف ينصت إليه، ويتفهم جيداً ما كان يقول، وهل كان هناك أجدر وأليق وأكثر حناناً وبراً وعطفاً وحدباً من خديجة الكبيرة القلب لتنصت وتســمع وتتدبر ثم تصغى بعقل سليم إلى ما كان يقول.

وتكلم الأمين، ووجف قلب خديجة، بل غلبته الفرحة ودهمته السعادة، فقد صدق حدســها في محمــد، وأن ما ظنته فيه ليحققــه لها حديثه

الصادق وهو يروي على مسمعها كل ما حدث في الغار.

أبداً، ما كتم الأمين الصادق عن زوجته شيئاً مما رأى، ولا حرفاً مما سمع، وهي تسمع في إصغاء شديد، وبريق الفرح يشع من أعماق عينيها، وعلى وجهها الرقيق الملامح، الناطق بالعطف والحدب، تجلّت أضواء الفرحة الكبرى، وكأنى بالأمين لم يأتها بجديد ما كانت تتوقعه وهي التي طالما تصوّرت هذا، بل طالما أحسّت بوجدانها الحي، أن وراء عزوف زوجها عن مجامع قريش وأربابها، بل عن أهلها ثم تحنثه وتحنفه، وطول وحدته في الغار البعيد - طالما أحسّت أن وراء هذا كله ما وراءه، وأيقن فؤادها، أن محمداً الأمين الطاهر، الكامل، الراجح العقل لا يبعد أبداً أن يكون هادي هذه الأمة، والنبي المنتظر، الذي كانت البشرية ترجو ظهوره والذي تهامس بمقدمه وأشار إلى بعثه، في هذه البقاع بالذات أهل الكتاب.

ولقد ارتاح محمد إلى إنصات زوجته، وطاب نفساً بإقبالها عليه، وقرأ في ملامحها، أنها آمنت بما قال، وصدقت كل ما سمعت، وإذا به يقول في هدوء مَن بدأ يغمره الهدوء «لقد خشيت على نفسي».

وتسامى الحنان، وتعالى، وتعاظم أمره، وجلّ وتفرّد فوصل إلى مراتب القداسة، وبلغ درجات الملائكية، وإذا بالشريكة الحانية، تقول:

- يا ابن عم، والله لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

هذه الفضائل جمعاء، لا يمكن أن تتجمع إلا في كامل، مطهر، مختار، اصطفاه الله ربه لأمر عظيم، ورسالة عظمى، ليهدي الناس إلى الحق فيتبعوه وهم على ثقة من صدقه، فقد كان صورة حيّة للكمال البشري، والسمو الإنساني، المبرأ من كل عيب، البعيد عن كل نقيصة.

وارتاح الأمين، وهدأ، وطابت نفسه وعاوده الهدوء، وكأنما غلبته راحة طاغية، جمل مع مسراها إلى نفسه ينصت إلى قول خديجة له بأن الله لن يخزيه أبداً، فهو الفضيلة مجسّدة والكمال الخلقي ماثل للعيون في صورة إنسان، طهّره ربه، وعلّمه، واصطفاه، وتخيّره، بعد أن أدبه فأحسن تأديبه.

وراح محمد يسترجع ما كان، ويتذكر دقائق ما حدث ثم...

ثم ما لبث أن استغرق في نوم عميق، بعد أن دثّرته خديجة، وعنيت به كدأبها دائما معه.

وأخذ الوقت يمر، اللحظات كالأعوام، والدقائق كالدهور، وخديجة متيقظة الحنان، شديدة الانتباه، مرهفة الحساسية، يشملها صمت البيت الهادئ وتحتويها سكينته، ثم لا تلبث أن تردها إلى الواقع أنفاس الزوج المستغرق في نومه، فتذكر مرة في إثر مرة ما سمعت منه. ثم تسترجع مرات ومرات ما قال، ثم تسلم نفسها لا إلى الخيال الجامح، بل إلى الواقع والحقيقة، فهي لا تحب الخيال، ولا ترتاح لشيء ما ترتاح إلى الحق.

وبدأت خديجة تتدبر في إمعان وعمق تفكير ما سمعت.

أهي رؤيا؟!!!

أجل، وإنها لرؤيا حق وصدق، بل.. وأمر، ثم تكليف، بعد هدى وهداية إلى حق طالما فكر محمد في عوالمه وحار.

هذا الذي حدث لا يمكن أن يكون إلا حقا، حقاً مؤكداً لا مرية فيه أبداً.

اقرأ.. ماذا يقرأ..؟! ذلك ما فكرت فيه خديجة.

اقرأ، ما سوف تسمع، اقرأه على الناس وهذا هو التكليف الإجمالي، والأمر بالبلاغ المبين.

اقرأ، ما سوف تسمع من آيات الله المحكمات، اقرأها على الناس ليهتدوا بها.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان مالم يعلم﴾.

هذا كلام لم يسمع به أحد من قبل أبداً، كلام يجب تدبّره والإمعان فيه.

ولكن، هل تستطيع خديجة وحدها أن تفكر في هذا الذي سمعت؟!

لقد صارحها زوجها بما رأى، وما سمع، وجعلها شريكته في الرأي، وقد أحب أن يستمع إلى رأيها في هذا الأمر العظيم الذي تعرّض له، فلماذا لا تسرع هي الأخرى، إلى من تثق فيه وتهمس إليه ما كان، فقد

يكون له رأى!!

وأسرعت خديجة وحدها، إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وراحت تروي له ما حدث لمحمد، وما تعرض له في نبرة المقتنعة بما كانت تقول، المؤمنة بما كانت تروي، والرجل منصت إليها في هدوء، فقد كان ممن قرأوا الكتاب، وكان على النصرانية، ولم يكن على دين قريش.

ورفع ورقة وجهه في النهاية، وبعد أن أتمت خديجة حديثها في هدوء قال:

- قدّوس، قدّوس هو الله، يا ابنة عم، والذي نفس ورقة بيده إن كنت قد صدقتني الحديث، فإن ما رآه محمد في الغار، إنما هو الناموس الأعظم الذي أنزل على موسى وعيسى من قبل، وأن محمداً لهو نبي آخر الدهر، إنه دعاء إبراهيم عليه السلام، وبشرى عيسى، وأن أهل الكتاب ليعرفونه في توراتهم.

ونزل حديث ورقة على قلب خديجة برداً وسلاماً، وأنها لتستشعر الزهو، وتحس الفخار وتعرف أن شعورها لم يكذبها أبداً يوم تخيرت الأمين زوجاً، وأن فراستها فيه كانت صادقة صائبة، وأنها أحسنت بوقوفها إلى جانبه، وحدبها عليه، وبرها به، وتباعدها عن تصرفاته، وحبّه للوحدة، وإغراقه في البعد عن الناس، ولجوئه إلى الغار، لأيام وأسابيع وشهور يتحنث ويتفكر.

وإنها اليوم لتحس والسعادة تغمر قلبها أنها تجني ثمار ما غرست، وأن الله رب محمد، ومرسله، ومرسل ناموسه الأكبر إليه في الغار، لابد أن يجزيها أجر العاملين، الصادقين المؤمنين.

وعادت خديجة إلى بيتها، والدنيا تتضاءل أمام فرحتها، عادت لتجد البيت على حاله من الهدوء والسكينة والصمت.

كان الأمين لم يزل مستغرقاً في نومه، ولكن.. أي نوم! نوم تقطعته الرؤى، وتخللته الأحلام اليقظى، فصوت جبريل لم يزل يدوي في خياله، وصورته، مازالت تملأ كل فراغ كان محمد يراه ثم..

ثم هاهو ذا يسمع الصوت القدسي نفسه مرة أخرى، وهاهو ذا جسد محمد يضطرب، ويهتز وينصب عرقه مثل الجمان، وإذا هو بين النوم واليقظة، وهو في تمام الوعي، يصغى من جديد إلى تكليف جديد.

﴿يـا أيهـا المدثر.. قم فأنذر * وربّك فكبّـر * وثيابك فطهّر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾.

وأسـرعت خديجـة البارّة مرة أخـرى إلى زوجها تذهـب عنه الروع وتطمئنه، وتسـمع إليه، وهو يتلو ما أوحـى إليه من كتاب ربه، ثم تطلب إليه في همس رقيق، أن يريح نفسه، ويعاود النوم من جديد.

أي نوم! وأي راحة كانت تشـير خديجة إليها لمحمد رسـول الله، وقد أمره ربه بالقيام، وهاهو ذا يقوم طاعة وامتثالا، ليستجيب للأمر الثاني، ويسارع إلى تنفيذه وهو الإنذار.

قـم، فانذر، فكيف ينام، أو كيف يسـتريح، والله الحـق يأمره بالقيام بالانـذار، ويعين له الطريق الواجب اتباعها وهي التكبير، الله أكبر.. الله أكبر.

وأصغـت خديجة طويلاً إلى زوجها، في الوقت الذي راحت تدوي فيه أصداء كلمات ورقة في خيالها المرهف، وقد قال عن محمد إنه نبي آخر الزمـان، وأن ما رآه في الغار هو النامـوس الأكبر. الذي كان ينزل على موسى وعيسى، وأنها الآن لتستمع إلى جديد.

لقـد عاد الناموس إلـى محمد، وهاهو ذا يتلقـى أوامر جديدة تعين طريق الجهاد، الذي أنبأها به ورقة.

ووجدت خديجة نفسها تصارح زوجها بما سمعت ثم، إذا ببرها وحنانها، وحدبها على محمد، يتعالى إلى أقدس درجات التسـامي، فيستحيل إلى إيمان صادق بما قال، وتصديق مطلق، لكل ما تحدث به.

وآمنـت خديجة بمحمد، وخلعت دين قريـش وأرباب من كفروا بالله، ودخلت في دين الإسلام واتبعت زوجها على ملته، وقد قرّ بها العزم على أن تقف إلى جواره، وأن تشـد أزره، وأن تعينه، بما تستطيع في جهاده، تصورت وعثاء الطريق، وطولها وعناد من سوف يلقونه فيها من الآن.

وكان إيمان خديجة برسـالة محمد، أول حلاوة تذوقها وهو في بداية مرحلة الجهاد الشـاق، بل إن هذا الإيمان السـريع مـن جانب خديجة والتصديق بما قال محمد، ثم الاسـتجابة لدعوة، كان ولاشـك بلسـم الراحة والهدوء الذي أحسـه رسول الله، ووجد فيه بشرى النصر المؤز، وآيته الكبرى، التي سوف تتلوها آيات بينات بعد آيات.

وخـــرج محمد ذات يوم من بيته، وبينمـــا كان يطوف بالكعبة، بيت الله العتيق، إذ رأى ورقة بن نوفل الذي أســـرع إليه في لهفة وشـــوق. يتعرف أنباءه ويريد أن يعرف إلى أي حد وصل من حدود الرسالة.

وقال ورقة لمحمد، في حرارة وصدق، والذي نفس ورقة بيده، إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى.

وقـــد كان هذا هو نص ما قاله لخديجة مـــن قبل، ولكنه - ومادام قد انفرد بمحمد صاحب الرسالة، فليكن معه أشد صراحة، وأكثر وضوحاً، وإذا هو مستمر في حديثه يقول:

ولتكذبّن، ولتؤذيّن ولتخرجن من ديارك ولتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه..».

وراحـــت الكلمات تدوي في خيال محمد، وكأنما هي دقات كانت تفتح لعينيه الأبواب بعد كل دقة منها ليعرف. ويعلم، ويســـتقر. فلا يرده هول، ولا يروعه شر، ولا يتراجع أمام خطب من الخطوب.

سيكذبونه.. اللهم هذا حق.

وسيؤذونه.. اللهم هذا صدق.

وســـيخرجونه من دياره، وذلك كان وجـــه العجب، لماذا يخرجونه، وهو الصـــادق الأمين، الذي ما عرفوا عليه كذبا ولا ســـمعوا منه إلا صدقا!! فقال: «أو مخرجي هم».

وأجاب ورقة بن نوفل، أن القوم ســـيخرجونه، لأنه ســـوف يجيئهم بما يفرق بين الأب وابنه، والأم وابنتها، وبما يســـفه أحلام العشـــيرة، ويعيب أربابها. وهذا أمر سيبدو في عيونهم عظيماً، ولن يسكتوا عليه، استجابة منهم للعرف، والتقاليد المتوارثة ثم، لإهانة الأرباب.

ومال ورقة على محمد يحتضنه، ويقبل رأســـه تبرّكاً به، وتشجيعاً له، وتهويناً على ما سوف يلقى في حياته القادمة من تكذيب وإيذاء وإخراج من الدمار.

وافترق الرجلان، وعاد محمد إلى نفسه يسترجع ما سمع، ويربط بينه وبين ما أوحي إليه وأصداء الأمر بالقيام والإنذار يدوي في خياله.

كيـــف يقوم وينذر؟! ومن ينذر من الناس؟! هذا أمر تنفيذه يســـتوجب التوجيه الحاســـم المحدد ولاشـــك. فلينتظر أمراً جديداً بالتوجيه الذي

يرجوه.

وفتـــر الوحي أمداً طويلاً، تبلبل معـــه خاطر محمد، واعتوره الخوف، وغلبه القلق، وبان عليه الوجد، وراح يصارع الشـــوق. فكاد يصرعه طول الترقب والانتظار.

وخديجـــة، خديجـــة الحانيـــة، ذات القلـــب الكبير الدافـــق بالحدب والعطـــف، إنها إلى جانبـــه، وعلى عهدها الذي عرفـــه محمد، وعرفت هي به، المواســـية، والمشجعة، التي تدعو إلى التريث والصبر. ومزيد من التشـــجيع، فقد يكون بعد العسر يســـر، وبعد الضيق فرج، وبعد الصبر نصر مؤزر، فإن الله الذي تخيّر واختار، ووجه وأمر بالقيام والانذار، لابد أنه محكم لدينه، يؤجل الوحي. وأنه ما ودع محمداً ولا قلاه.

وعرفت خديجة في برها، كيف تشحن الروح الكبير بشحنة من الطاقة القـــادرة الغلابة، وإذا باللهفة تزول، والقلـــق يتراجع، والثقة تغمر القلب الفياض بالنور، وإذا بالوحي يعود، وإذا بمحمد يســـتمع إليه، ثم يقرأ من بعده كما أمره الله.

﴿والضحـــى * والليل إذا ســـجى * ما ودعـــك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيما فـــآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

وبـــان الأمر، ووضحـــت معالم الطريق. وتجلت القـــدرة وتعالت لتذكر محمداً بعظيم المنن الســـابقة التي نالها، فالله مـــا ودعه وما قلاه، وأنه ليبشـــره بآخرة أفضـــل وأعلى درجات من الأولى، ثـــم يعدد له بعد ذلك بعض مننه عليه، فقد آواه، في يتمه، وحماه شر الحاجة والسؤال، وهداه إليه، وأرشـــده إلى الحقيقة التي حار وهـــو يفكر فيها، فاهتدى إلى الله الذي خلق وعلّم، ثم أغناه بعد ذلك ويسّـــر له رزقه، وأخيراً، راح سبحانه وتعالى يوصيه ألا يقهر اليتيم وألا ينهر الســـائل وأن يتحدث دائماً بأنعم الله عليه، وأن يشكره، فبالشكر تدوم النعم.

ولم تكد تطمئن نفس محمد إلى أن الله ما ودّعه وما قلاه، حتى عاوده الشـــوق من جديد إلى الجهاد. وأنـــه ليذكر قول الله له: **﴿قـــم فأنذر﴾**، فكيف يقوم؟ ومن ينذر؟ وإلى من يتوجه بهذا الإنذار العظيم ؟!

وجاءه الجواب، ونزل الوحي... ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون**﴾.

أما وقد آمنت خديجة بنت خويلد، أقرب الأقربين، فتلك هي الخطوة الأولى، وإن بقية الخطوات لتتلوها بعد ذلك في يسر، فها هو ذا على بن أبي طالب، يعلم بالدعوة، ويدخل الدين ومن بعده زيد بن حارثة مولى محمد ومتبناه، ثم من بعد هؤلاء، سمع أبو بكر بالأمر وارتاح له واستشعر فيه الصدق، فآمن، وأعلن إسلامه، ثم.. بدأت الدعوة بعد هذا تتسع في محيط من السريّة محدود، فدخل في دين الله، عن طريق أبي بكر، عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، ثم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبيدة بن الحارث. وسعيد بن زيد، وخباب بن الارث، وفاطمة بنت الخطاب زوج سعيد بن زيد، ثم أسماء بنت أبي بكر، ثم كثيرون وكثيرات.

وعلم الله الصلاة لرسوله فراح يؤديها، ثم علّمها لمن اتبعوه، فكانوا يؤدونها، فرادى وجماعات، إذ حرصوا أن تبتعد الدعوة ما أمكن عن التوغل في مجتمع قريش حتى لا يثوروا عليها، وهي لما تزل بعد في بدايتها، ولم تعتز بكثرة تستطيع أن تثبت عليها وأن تجاهد من أجلها.

ومرّت ثلاث سنوات، على هذه السرية المضروبة على الدعوة، وقد قام محمد خلالها بإنذار عشيرته الأقربين، إذا، فلينتقل حسب الأمر، من القيام ثم الإنذار إلى التكبير، والتكبير، هو الجهر، هو الخروج بالدعوة من الحيز المحدود والخاص إلى النطاق العام.

وخرج محمد إلى قريش كلها، وعلا صوته الكريم يردد «الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله».

وذُعرت قريش، ثم راحت تسترد ذعرها في هدوء، ثم ما لبثت أن توثبت، وتثمرت وأضمرت السوء لمحمد، وتحفّزت له، ووقفت في وجهه تناضله، وتجاهده، وهو وحده، والقلة المستضعفة من ورائه يجاهد ويجاهدون ويثبتون.

وركبت قريش رأسها، وتربصت بمحمد، وحاولت في بادئ الأمر أن ترده بالحسنى فلم يقبل إلا أن يؤمنوا بأنه لا إله إلا الله، وأنه هو الصادق

محمد رسول الله.. «وأن يبرأوا من دينهم ويكفروا بأربابهم، فأبوا، وأسرفوا في الاباء، وتبين لهم أنهم يرتطمون بصخرة صامدة، فكان أن اجتمع رأيهم على مقاطعة المسلمين، بل بني هاشم جميعاً. ومحاصرتهم في شعاب الجبل والإمعان في هذا الحصار إلى حد الخروج به إلى الحرب الرهيبة التي تحول دون وصول الزاد والماء للمحاصرين.

وتبعت خديجة محمداً إلى شعاب الجبل. تبعته لتقف إلى جانبه تشجعه وتعينه، وتقوم على خدمته، وتشعره أنها معه دائماً، إنها إلى جواره، وأنها لن تتركه أو تتخلى عنه أبداً.

كانت خديجة في تلك الفترة، في سن لا تسمح لها بتلك الحياة الخشنة، وكانت حالتها الصحية تفرض عليها أن تبقى في بيتها بعيدة عن صخب الجهاد، ووعثاء النضال الشاق، لتستريح ولكنها أبت، أبت إلا أن تثبت إلى جانب محمد، وأن تكون رفيقة حصاره، كما كانت رفيقة يساره وظلت إلى جانبه.

ومرّت ثلاث سنوات على الحصار الرهيب وقريش تأبى إلا أن يشتد ويعظم وأن تقسو فيه. وتغلظ قلوب قريش بغية أن تلين قناة محمد ومَن تبعه، ليعودوا إلى دين العشيرة، ولا فائدة.

لقد روّع قريشاً ثبات المسلمين، وأن السادة في قريش ليسعون في نقض عهد المقاطعة والخروج من نطاق الحصار، وقد ضجوا منه، وهم الذين أحكموه، وراحوا يكسرون حدّته، ثم هاهم أولاء يختلفون ويغلظ بعضهم لبعض ويأبى نفر منهم إلا أن يصل أهله من المحاصرين، وكان أول مَن أقدم على هذا هو حكيم بن حزام، الذي أصرّ على أن يبعث الزاد إلى عمته خديجة مهما يكن الأمر، وبالرغم من تعرض أبي جهل له.

ووجد السادة من قريش أنهم قد بدأوا يختلفون، فتراجعوا عن العهد، وبدأ الحصار يضعف ثم يتلاشى ولكن...

ولكن بعد ثلاث سنوات عجاف شداد، كان لها أثرها الظاهر على الكثير من الشباب، فكيف بخديجة؟!

أجل، كيف بخديجة التي أسنت، وبدأت الشيخوخة تعبث بها، وبالرغم من هذا كانت شابة القلب والجنان، قوية الحدب على محمد والمسلمين.

وعاد المحاصرون من شعاب الجبل، وعادت خديجة مع رسول الله إلى بيتها مرة أخرى.

ثم، ما لبثت أن راحت تحيط بها العلل وتلعب بها الأمراض، ويؤثر فيها الضعف الجسدي وقد بدأت تظهر آثار الإرهاق ونتائج سنوات الحصار.

وحان الحين، وحم القضاء، ولبت خديجة نداء ربها.

تفتحت أبواب الجنة للروح الطاهرة، روح المسلمة الأولى، المجاهدة الأولى، المناضلة، التي لم تغلب يوماً، الروح الدافع الذي وقف وراء محمد يدفعه، ويشجعه، ويواسيه، ويعينه.

ماتت خديجة بنت خويلد، ماتت أم المؤمنين، نور بيت محمد، وأم المؤمنين وأم بنات رسول الله المطهرات.

ماتت، والرسول صلى الله عليه وسلم في معمعان معركة المصير، أحوج ما يكون إلى وجودها إلى جانبه، تعينه، وتشجعه، وتواسيه.

ماتت أم المؤمنين أول مَن أسلم وآمن بدين الله، وهي في الخامسة والستين من عمرها، وكان موتها فاجعة ألمت برسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجعة قاسية، جاءت بعد فجيعته في عمه وحاميه أبي طالب، فتضاعفت النكبتان، وما أسرع ما أحس محمد بهول المصابين.

ماتت خديجة، الروح الحاني، والقلب الكبير، ماتت في وقت كان محمد أحوج ما يكون إلى وجودها بجانبه ولكن، تلك كانت إرادة الله، وتلك كانت مشيئته، وذلكم كان أجلها، ولكل أجل كتاب.

ماتت خديجة - رضي الله عنها وأرضاها، ودفنها سيدنا رسول الله «بالحجون» وصلى عليها ونزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة.

وتفتحت أبواب السموات العلا للروح الطاهرة، ودخلت في جنة الله التي أعدها لها وبشّرها بها محمد، وقد قال له جبريل ذات مرة، إن الله يبلغ خديجة سلامه ورضوانه، ويبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه، ولا نصب.

ومن كان أجدر من خديجة بالجزاء العظيم والمثوبة الجليلة جزاء ما قدمت للرسول وللإسلام وللدعوة، إلا أنها كانت خير نساء الدنيا، ثم إنها في الآخرة، لخير نساء الجنة، هي، ومريم ابنة عمران.

عائشة حبيبة رسول الله *

١ الله أكبر...

هذا محمد الأمين صلى الله عليه وسلم في فراشه، وقد استغرق في نومه، بعد يوم شاق من أيام الجهاد المضني في سبيل نصرة دين الله، وإبلاغ رسالته الكبرى، وهذا جبريل عليه السلام يبدو لرسول الله في الرؤيا، وفي يده سَرَقة من حرير أخضر فيها صورة لم تتجاوز صاحبتها مراحل الطفولة السعيدة، ولم تخطر بعد نحو عتبات الشباب البكر النضر.

وعجب سيدنا رسول الله للرؤيا الصادقة، وانتبه من نومه وهو يكبّر ويحمد الله ويتساءل في عجب عما يمكن أن تعنيه تلك الرؤيا.

وجاء مع الصباح الوليد، يوم آخر من أيام جهاده العظيم صلى الله عليه وسلم، فشغلته شواغل الدعوة الكبرى.

وركب سفهاء قرش رءوسهم وأبوا أن يصغوا إلى محمد أو أن يؤمنوا بما جاء به وهو الحق من عند الله.

وتولى النهار، وأقبل الليل، وغشيت الدنيا ظلماته، وأوى محمد صلى الله عليه وسلم إلى فراشه واحتواه نوم عميق.

ومرة أخرى.. تبعت رؤيا الأمس ثانية، وانتبه الصادق الأمين من نومه، والرؤيا لم تزل بعد عالقة بخياله الشريف ثم كبّر وحمد الله، فقد بدأت الرؤيا تتضح، وراحت الحقيقة تبين.

* العربي - العدد ١٢٣ - فبراير ١٩٦٨م.

وجـاء مع الصباح الوليد يوم آخر من أيام الجهاد الأعظم في سـبيل دعوة الحق، فشغلته صلى الله عليه وسلم شواغل النضال.

ومضـى اليوم كأمسـه الذي ذهـب، وأقبل الليل فـي مواكب صمته، وغشيت الدنيا ظلماته، وعاد محمد صلى الله عليه وسلم إلى بيته، وأوى إلى فراشه ولم يلبث أن احتواه نوم عميق.

ومـرة ثالثة، تبدت للنائم العظيم رؤيا الأمس والأمس الذي قبله، نفس السَـرَقة الحريرية الخضراء وفيها الصورة نفسها التي قدر على محمد أن يشهدها في رؤياه تلك للمرة الثالثة.

ونشـر جبريل السـرقة، وتبدت الصورة ظاهرة، وعاد يقول للرسـول الكريم، هذه زوجك في الدنيا وفي الآخرة.

وإذن، ومـا دام الله المقدر الهادي، قد أراد صاحبة الصورة الملتفة في السندس الأخضر، زوجة لرسـوله الكريم، وأما للمؤمنين، فلتكن إرادته السـامية، وليفعل الله سبحانه وتعالى ما يشاء، وصارح صاحبه الصديق بالأمر كله ثم خطب إليه ابنته عائشة.

مـا توقع أبو بكر الصديـق هذا الأمر أبداً، ولا تصـور حدوثه، وإنها لمفاجـأة سـعيدة ولا جدال، أن يوثق الحق سـبحانه ربـاط الإخاء بين الرجلين العظيمين، برباط جديد هو رباط المصاهرة والنسب، ولكن..

ولكن عائشـة الصغيرة كانت قد سـميت من قبل لجبير بن مطعم بن عدى، وإن أبا بكر ليستشـعر الحرج أمام رسـول الله، ولا يجد ما يقوله رداً على طلبه يد عائشـة إلا أن يشرح له الأمر ويرجوه أن يتكرم بإمهاله بعض الوقت حتى يثل عائشـة من جبير بن مطعم، ويحرر نفسه هو من وعده لصاحبه مطعم الذي قبل في يوم ما زواج ابنه جبير بعائشة.

وأسرع أبو بكر ليحرر نفسه من الوعد، وثل عائشة من ابن صاحبه ثم، تمت خطبتها رضي الله عنها إلى رسول الله، وهي يومها صغيرة، فبقيت في بيت أبيها الكريم حتى يحين الوقت الذي يريده الله.

كان محمـد صلـى الله عليه وسـلم قد فقد من قبل زوجـه البارة أم المؤمنـين خديجة بنت خويلد رضي الله عنهـا، فأقفر البيت النبوي من الروح العالي، والشريكة البارة الحبيبة التي لحقت بربها راضية مرضية، فتزوج الرسـول من بعدها زوجه الثانية أم المؤمنين سودة بنت زمعة وإنه

اليوم ليخطب عائشة استجابة للتوجيه وخضوعاً للاختيار المقدس ثم..

ثم ينسى محمد صلى الله عليه وسلم في غمرة جهاده، أمر الخطبة والمخطوبة ويدفع بقوة إيمانه، وحرارة يقينه، موكب الجهاد الأعظم ليسير في طريقه المرسوم.

وجن جنون قريش، وثارت كوامن أحقاد ساداتها أعداء محمد وحاسديه، وركب السفهاء رءوسهم، وقد رأوا أن السكوت على محمد ليس غير جرم رهيب في حق الصنم المعبود، ومن هنا، وأمام الخطة الرهيبة التي استقر عليها تفكير جميع الحاقدين على الدين القويم والداعي إليه، برزت فكرة الجريمة النكراء، وهان الدم الزكي في عيون سفهاء قريش، واستقر بهم الرأي في النهاية على ضرورة التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم.

وبدأت الفكرة الإجرامية تنفذ ساعية إلى حيز العمل، وتخرج من مستقرها المظلم إلى مجال التنفيذ، وحدد الكفار مكانها وزمنها وعيّنوا من سيقومون بتنفيذها، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

وأمر الله سبحانه وتعالى رسوله بالهجرة من مكة، إلى يثرب، مدينته صلى الله عليه وسلم المنورة بدينه، المشرقة بدعوته، فخرج إليها مع أبي بكر صاحبه وصهره، فلقية أعظم لقاء، ورحبت به أروع ترحيب، فربط الإخاء بين أنصاره والمهاجرين، وآخى بين أوس يثرب وخزرجها وجعل من المسلمين جميعاً، وحدة متجانسة قوية، شديدة التماسك، التفت حواليه صلى الله عليه وسلم. فكانت درع الدعوة القوى وسيفها المسلول.

وهكذا دخل الإسلام مع الهجرة طوراً جديداً مباركاً من أطوار العزة والمنعة والقوة وعظم الشأن، فاليوم بحاضره العزيز، وغده المشرق ومستقبله المستقر المدعم المرموق.

وأمام هذا الاستقرار المدعم الذي أراد الله أن تحققه الهجرة المباركة، رأى سيدنا رسول الله، وصاحبه الصديق، أن يبعثا في طلب أهلهما من مكة، إذ لا مقام لهم هناك بين جموع الكافرين المتربصين، فكان أن أرسلا، لذلك زيد بن حارثة وعبدالله ابن أريقط.

والتأم الشمل، وتجمع الأهل في رحاب يثرب المعتزة بوحدتها،

ومنعة المسلمين فيها، وبدأت الحياة تسير مسيرها الذي عهده جميع المسلمين.

وذات يوم، ومحمد وصاحبه الصديق معا، يتناقشان، وجدها أبو بكر فرصة مواتية ليطرق باب حديث ما فكر قبل اليوم في الاقتراب منه، نزولا على الظروف التي مرت بالدعوة العظمى وصاحبها العظيم، وتكلم أبو بكر، وأصغى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسأله لماذا لا يبني بأهله.

أجل، لماذا لم يبن محمد بأهله، وماذا كان يمنعه أن يعرس بعائشة المطهرة، التي شهدها في رؤيا صادقة ثلاث ليال متوالية، إنه لم يجد ما يقول لأبي بكر الصديق غير الموافقة على رأيه، والاستجابة لمشورته.

وهكذا، بنى محمد بعائشة، ودخلت بيته الكريم، وهو أعرف الناس بها، وأكثرهم خبرة بطبيعتها، فلم ينس أنها لم تزل بعد صغيرة، ليّنة العود، فأخذها باللين، وعاملها بالرفق، ورعاها بالحنان، وراح يحدوها، ويعدها للدور العظيم الذي خلقها الله له، باعتبارها أما من أمهات المؤمنين.

وكفل رسول الله صلى الله عليه وسلم لعروسه كل أسباب الرعاية، وهيأ لها الجو الذي ارتاحت له، وسكنت إليه، وأنها وهي في بيت الزوجية، تعود بخيالها البريء إلى طفولتها، إلى أترابها ومن كن في مثل سنها، غريرات مازلن يلعبن بالدمى، بعيدات عن مسئوليات الزواج وتبعاته. الجسام، فكانت تخلو إلى نفسها، ويغلبها مرح الطفولة مرة، فإذا هي تعد الدمى، وتصنع «العرائس» وتجهز «الشخوص» وترتب هؤلاء وهؤلاء، وتجعلهن صفا بعد صف تجود على بعضه بالأجلاس، وعلى بعضه بالكسوة، وعلى بعضه بأن تجعل له هيئات خاصة أو أجنحة.

ويرقب محمد الحاني عروسه الطاهرة، ويسألها عن «عرائسها» ذوات الدمى، فتجيب في صفاء، ومرح «إنهن خيول سليمان»، ويضحك صلى الله عليه وسلم ويستفسر عن «الأجنحة» التي ركبتها لهن، فتعود هي وتسأله: ألم تكن لخيول سليمان أجنحة يحلقن بها في الفضاء ويسابقن الريح..!!

ويضحك محمد، ويتضاعف حنانه لعروسه التي كان يحدث أحياناً، وهي تعد الخبز، أن يغلبها الإرهاق ويسودها الكلال والتعب، لتغفو حيث

هـــي، أو يداعب النوم جفنيها فتنام وتغفل عمـــا في يدها، فلا تلبث أن تدخل الشاة فتأكل «العجين» ولا تبقي عليه!!

أبـــداً ما غضب محمد الزوج الحاني لشـــيء من هـــذا، ولا هو أبدى اســـتياءه، بل راح في رفق ولين وهوادة، يرعى عائشة ويبرها، ويشجعها بالكلمة الطيبة الرقيقة والتوجيه الحاني، والعطف السابغ لتطيب نفسا، وتعتاد حياتها الجديدة وتســـتطيع بما وعت أن تحمل أعباءها وتساير ما سوف يمر بها من ظروف وأحداث.

وأخـــذت عجلـــة الزمن تدور مع مســـير الأيام، وســـار الجهاد وجهته المقدسة، وتعاظم أمر الإسلام والمسلمين، وأيدهم الله بنصره ورعاهم.

ولقد عاشـــت أم المؤمنين عائشـــة هذه الأحداث كلها، شهدت الأمجاد المتلاحقـــة جمعـــاء، وتذوقت في إخلاص مرها قبـــل حلوها، وظلت في مكانها الذي فرضه الله عليها، ترقب واعية، وتتعلم في كل يوم جديداً.

أبداً ما فاتت عائشـــة شـــاردة ولا واردة من رسول الله، بل كيف كانت تفوتها، وهي التي كانت أقرب نســـائه إلـــى قلبه الكبير وأحبهن إلى ذاته المطهرة، وألصقهن به، فأخذت عنه صلى الله عليه وســـلم كل جديد في التوجيه والإرشـــاد، وعرفت عنه وحدها أكثر مما كان يعرفه كثيرون. من خاصته، وإنهـــا رضي الله عنها لتفاخر وتقـــول إن الوحي لم ينزل عليه وهو في بيت أحد من نسائه غيرها، وهذا حدث افتخرت به عائشة على سائر أمهات المؤمنين.

وكانـــت رضي الله عنها من الذكاء والألمعية والفطنة بحيث وعت جيداً كل ما كانت ترى. وكانت دائمة السؤال، دائبة الاستفسار منه صلى عليه وســـلم، فلم يبخل عليها بمعرفة ولا توجيه حتى لقد وعت مالم يستوعبه كثيرون، وفهمـــت ما دق على إفهام كثيرين، وحتـــى لقد قال عنها صلى عليه وســـلم وهو الذي لا ينطق عن الهوى: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء!!».

وعرف المســـلمون جميعاً مدى إعزازه صلى الله عليه وســـلم لعائشة، فكانوا يخصون يومه عندها بما هو جدير به من الإعزاز والتكريم، وكانوا يقدمون للنبي هداياهم في ذلك اليوم بالذات مما كان له بعض الأثر في نفـــوس أمهات المؤمنين فاجتمعن إلى الزهراء البتول فاطمة بنت محمد،

وحدثتها في ذلك الشـــأن، وعرضن عليهـــا الأمر الدقيق وطلبن منها أن تكون شـــفيعتهن لدى الزوج العظيم ليســـوي بينهن وبين عائشة حتى في توجيه المسلمين إلى تقديم هداياهم.

وذهبت فاطمة إلى أبيها العظيم، وحملت إليه رســـالة أمهات المؤمنين، فسمعها صلى الله عليه وسلم وهو صامت ساكت لا يريم، بل نكس رأسه طويـــلاً، وظل على صمته الطويل، مما جعل فاطمة تعيد عليه الســـؤال، وتلح في أن يعدل بين نســـائه جميعاً، حتى في تقبّل هدايا المسلمين التي يبعثون بها إليه.

وزفر محمد الأب الحاني زفرة طويلة، ذكر فيها اسم الله ثم رفع وجهه الكريم بعدها إلى فاطمة الحبيبة الغالية وسألها إن كانت تحبه!!

ودهشـــت فاطمة رضي الله عنها للســـؤال، ومـــا دار بخلدها يوماً أن يســـألها أبوهـــا إن كانت تحبه، وهو يعلم أن حبها لـــه، وإعزازها يعدلان الدنيا وما حوت، ولكنها وجدت نفسها تجيبه صلى الله عليه وسلم بأنها تحبه، فعاد يسألها إن كانت تحبه، فلتحب ما يحب ومن يحب، ثم أمرها عليه الصلاة والسلام أن تحب عائشة وأن تخلص في حبها.

ولـــم تجد الزهراء البتول قولا ترددہ بعد مقـــال أبيها العظيم غير أن سكتت وإذا بمحمد الحاني العادل المقسط بين نسائه يقول لابنته ما أراد أن تعرفه أمهات المؤمنين جميعا:

- فليتقين الله في عائشـــة، فوالله مانـــزل عليّ الوحي وأنا في فراش واحدة منهن غيرها. وكانت عائشـــة رضي الله عنها تعرف مكانها جيداً من قلب رسول الله، وكانت تعزّه وتؤثره، وتغار عليه أشد الغيرة، حتى لقد حدثّ ذات ليلة ومحمد صلى الله عليه وســـلم في بيتها أن أرق من نومه، فإذا هو يخرج تاركاً الدار ويتجه إلى البقيع كعادته في مثل لياليه الأرقة ليهل على ســـكان القبور، ويحادث أهـــل البقيع، ويناجي أرواحهم، ويقف لحظات خاشعة أمام جلال الموت.

وأرقت عائشة بعد خروج زوجها العظيم أرقا شديداً، وأسلمت نفسها إلى غريب الأفكار التي راحت تعبث بها في قسوة وعنف، فلم تستطع أن تقـــاوم الغيرة التي تملكتها، وجعلتها تتخيل ما لم يحدث، حتى عاد صلى الله عليه وسلم من زيارته للبقيع، فإذا به يلقاها، وهي على حال غريب،

لم يتركها عليه ساعة خرج، فأقبل عليها حانياً ودوداً يسألها ما بها.

وتكلمت عائشة، وضحك محمد العظيم أستاذ الشعوب ومعلم الأمم، وقد عرف أن ما كانت تشكو منه زوجته، لم يكن غير غيرتها عليه، وإذا به صلى الله عليه وسلم يقول لها:

- أوغلبك شيطانك.. يا عائشة.

وعجبت عائشة لسؤال الرسول الكريم، وهو يسألها عن شيطانها ذلك الذي غلبها في ليلتها هذه وأسلمها إلى الغيرة وكأنما عليها وهي زوج محمد، أن يكون لها شيطان وأن يغلبها ذلك الشيطان.

وإذا بهادي الأمم، ومعلم البشرية جمعاء، يرشدها ويعلمها، ويقول لها إن لكل امرئ شيطانه الذي يوسوس في صدره بما يريد ساعة يجد فرصته إلى تملك الإنسان والعبث به، ودفعه إلى حيث يريد من الأهواء.

وعرفت فعلاً أن شيطان الغيرة المقيتة قد تملكها في لحظة استسلام وضعف وأنها ركنت إليه ثم ما لبثت بعد كلمات الرسول الكريم إن استردت نفسها، وتخلصت من كل وهم صوره لها ذلك الشيطان.

حتى كان ذات يوم من الأيام وإذا باللعين الرجيم يفلح مرة، حيث أخفق عديدا من المرات، ويصل في غمضة عين إلى حيث لم يستطع من قبل، وإذا بنساء النبي يتجمعن على رسول الله، وهو الزاهد في الدنيا ومتاعها، العزوف عن بهرجها وزينتها - وقد رحن يسألنه التوسعة عليهن في مطالب الحياة.

لقد عرف الوسواس الخناس كيف يطرق باب الوصول.

لقد صوّر التطلع لنساء محمد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فتح الله عليه وأيّده بالنصر بعد النصر، وقد كثر الفيء في أيدي المسلمين ودخلت الأموال بيت مالهم وأصبحت القبائل تخطب وده، ورءوسها يبعثون إليه بالهدايا، أنه صلى الله عليه وسلم قد أصبح في مكان كسرى أو على عرش قيصر، وأنه قادر بما أوتي من عروض الدنيا، أن يبدل سنن الحياة، ويجعل من نسائه، نساء تتخمهن الحياة، وتتكاثر عليهن أسباب زينتها وشتى ألوان خيلائها .خيل هذا إلى نساء محمد، أو هكذا صور لهن التطلع، وجمله في عيونهن طمع النفس ورغبتها،

والرواة هنا، وأمام مظاهرة نساء محمد عليه السلام، يقفون موقف الحيرة وهم يحاولون الوصول إلى سبب المطالبة بالتوسعة في النفقة، ومن كانت أولاهن في الإشارة إليه، وجمع بقية صواحبها حولها للتقدم بما يطلبن إلى النبي، عساه يجد في إجماعهن على الطلب وإصراره على مضاعفة النفقة ما يجعله ينزل على رأيهن، فيعطيهن ما سألنه، ويحقق لهن الأحلام التي طوفت برءوسهن فيكون لكل منهن ما كان لنساء قيصر، وما استمتعت به نساء كسرى من مطالب الحياة وزينتها.

ولقد قال بعضهم، أن عائشة وحفصة، كانتا صاحبتي الفكرة، ومن ثم انضم بقية أمهات المؤمنين إلى رأيهما.

وقال آخرون، وفيهم ابن عباس رضي الله عنه، إن عائشة كانت صاحبة الرأي وأن ابن عباس سأل في ذلك عمر بن الخطاب فأكد له الرأي وأن عائشة هتفت بأحلامها وصوّرت فكرتها فطابت لها نفوس أمهات المؤمنين، وتجمعن على النبي ورحن يسألنه، ما لا يملك، وما لا طاقة له به.

وسواء أكانت عائشة وحفصة هما الموحيتين بالتحريض على طلب التوسعة أم كانت عائشة وحدها هي صاحبة الفكرة أم كانت نساء محمد جميعاً، هن صاحبات هذا الرأي - فالمعروف إجماعاً أن نساء محمد قد تجمعن عليه في شبه إصرار يسألنه توسعة الحياة وتحقيق بعض رغبائهن الدنيوية والكمالية، وأنه صلى الله عليه وسلم استمع إليهن في صمت وهدوء ولم يتكلم.

ولقد ذكر الرواة أن طلب مضاعفة النفقة تم، وأنه قد حضره أبو بكر وعمر، وأن كلا منهما قد قام غاضباً فوجأ عنق ابنته، لاجترائها على الرسول الكريم ومطالبته بما لم يكن يملك، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم، خلال هذا كله لم يتكلم أبداً، ولم يتحرك من مكانه، وأنه ظل على صمته الطويل أمام تلك المظاهرة الغريبة والمطلب الأشد غرابة.

لقد وجد رسول الله نفسه أمام قضية من نوع جديد، قضية ليست خاصة أبداً، لأنها إن خصت اليوم نساء محمد، فستخص مع الغد والغد الذي بعده نساء المسلمين جميعاً، والرأي فيها والحال هذه يجب ألا يكون أبداً أن يكون رأي محمد وحده بل رأيا أهم وأخطر وأجل قدراً، رأيا

ينسحب على المسلمات جميعاً لا في عصر محمد فحسب، أو في عصر يليه بل على كل العصور وعلى المسلمات جميعاً، على مسير الأزمنة. فنساء النبي، هن القدوة الحسنة دائماً، وما يسري عليهن من أوامر وتوجيهات ملزم لجميع نساء المسلمين على شتى العصور.

وطال الصمت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتكلم، ولم يجب في طلب نسائه بلا أو نعم، ولم يقف في صف أبي بكر، وقد قام فوجأ عنق عائشة ولم يظاهر عمر. وقد فعل المثل بحفصة بل قام من مكانه في هدوء ووقار، ثم اعتزل نساءه جميعاً، حتى لقد قيل يومها إنه طلقهن!

ولكن محمداً الكامل، قدوة العالمين جميعاً، لم يطلق نساءه إذ لو فعلها، لكانت سنة من بعده، ولكانت ذريعة يلجأ إليها كل مسلم تسأله زوجته النفقة، وزيادة التوسعة، في مطالب الحياة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وباعدهن، ففي الاعتزال والتباعد زجر وتأديب كاملان.

وطالت مدة الاعتزال شهراً كاملاً، وهذا منتهى الزجر، ثم هو بعد هذا منتهى التأديب والتوجيه الصحيح إلى ما يجب ومالا يجب، فللنساء، أي نساء، مطالب ولكن، يجب أن تكون في حدود مقدرة الزوج وطاقته، و.. هذا هو الأهم.. متمشية مع منطق الحاجة، وشرعة المجتمع الذي يعشن فيه، فلا يكفي أبداً أن تطلب زوج من رجلها القادر، أكثر مما تطلبه سائر نساء زمنها، فهذا هو الخروج، وهذا هو الشذوذ عن القاعدة، وتلك هي الوسيلة إلى التمني ثم إلى التطلع، وهذا شر يجب أن يتحرر منه المجتمع الإسلامي.

المهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه شهراً كاملاً.

ثم شاء الله أن يحقق أمنية رسوله في أن يكون هو جل وعلا، الحكم في تلك القضية الدقيقة، فنزل في ذلك قوله تعالى:

«يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً× وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً».

وكانت آية التخيير هذه هي الكلمة الحاسمة، التي وضعت نساء النبي أمام الأمر الرباني الواجب الطاعة، وأن عليهن أن يتخيرن، فمن أرادت

الحيـــاة الدنيا وزينتها فلتصارح محمداً برغبتها تلك ليمتعها بما تشـــاء ثم ليســـرحها بعد ذلك ســـراحاً جميلاً، أما من كانت تريد الآخرة منهن، ورضوان الله ورسوله، فعليها بالرضا، والقبول لكل وضع وأن لا تنظر إلى غيرها، أو تتمنى أن يكون لها كذا، لأن الله قد أعد لها إذا أحسنت، ولم تستسلم إلى رغبات النفس، ومطالبها - أجراً عظيماً.

وهكذا قضى الله علـــى الفتنة الصغيرة التي قامت في البيت الكريم، ووضع نساء محمد المطهرات في محك التجربة، فكان أن برئت كل منهن من أطماعها ومطالب دنياها، وتخيرت الله ورسوله.

وكان من الطبيعي أن تتخير عائشـــة هي الأخرى الله ورســـوله، وأنها لتقول للنبي في ذلك:

بأبـــي أنت وأمي يا رســـول الله، أفي هـــذا تخيرني!! بـــل أختار الله ورسوله.

وعـــاد الصفاء يخيّم على بيت محمد، والهدوء والقناعة والرضا، تغمر نفوس نسائه أجمعين.

وتوالـــت الأحداث، وتعددت الانتصارات، وكثر خروج رســـول الله في غزواته المظفرة لنشـــر دين الله الحق، واعتاد صلى الله عليه وســـلم أن يصطحب معه في أثناء خروجه هذا بعض نسائه، وهاهو ذا عليه الصلاة والســـلام يخرج مع المسلمين إلى قبيلة بني المصطلق، وكانت تتآمر عليه، وتنوي اغتياله.

وهكذا، خرج المسلمون إلى تحقيق نصر جديد وخرج على رأسهم رسول الله، وخرجت معه زوجه الغالية، أم المؤمنين عائشة. وانتصر محمد على بني المصطلق، وأمكنه الله منهم، وأيّد المسلمين بنصره العظيم.

وعند ماء البئر كادت تحدث فتنة خطيرة، أوشكت أن تندلع على أثرها نار القبلية المقيتة التي قضى عليها الإســـلام، وكاد يتشـــابك المهاجرون والأنصار، لولا أن أســـرع رســـول الله صلى الله عليه وسلم، فأطفأ النار قبل أن تندلع وأمر بالتجهز للعودة إلى المدينة فوراً فتســـارع المســـلمون يلبون أمره.

ونسوق بعض النص كما روى عن السيدة عائشة:

«ثم أذن مـــؤذن في الناس بالرحيل، فارتحـــل الناس، وخرجت لبعض

حاجتـــي، وفي عنقي عقـــد لي فيه جزع ظفار - الجـــزع: الخرز وظفار من اليمن فلما فرغت انســـل من عنقي ولا أدرى، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمســـته حتى وجدته، وجاء القوم خلافي الذي كانـــوا يرحلون لي البعيـــر، وقد كانوا فرغوا مـــن رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشـــكوا أنى فيه، ثم أخذوا برأس البعيـــر فانطلقوا به. فرجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب، قالت فتلفعت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وعرفت أن لو افتقدت لرجع الناس إلي».

وأمسى الليل، وانتشرت غواشيه في الأفق ولمح رجل ممن كانوا يعملون على ساقة الجيش شبحاً في مكان مخيم المسلمين الذين رحلوا، فأسرع بتبين الشـــبح وإذا هـــو أمام أم المؤمنين فغض بصره ثـــم تراجع وعرفها بنفســـه، فعرفت أنه ممن يعملون مع ساقة الجيش وأنه مكلف بجمع ما يكون قد نســـيه المســـلمون إبان تعجلهم بالعودة، وسألها أن تتجهز لتعود معه.

ودخلت عائشة إلى المدينة، وعند مشارفها كان المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول وفئة ممن على شاكلته، يتحدثون حديث الحقد والضغينة، وإذا بهم وهم في غمرة الحديث المسموم يرون «الهودج» العائد ويعرفون أن بداخله عائشة.

ووجدها ابن ســـلول فرصة للنيل مـــن محمد، فأطلقها كلمة لعينة هي الكذب المسموم، وهي الافتراء وهي الإفك، ورمى بعض من معه المحصنة الغافلة بما لم يكن فيها، وبما لم يكن يرقى إليها الشـــك فيه، وما أسرع ما ســـرى في المدينة الهمس بما قـــال رأس المنافقين وبطانته من أعداء سيدنا رسول الله وانتشرت الأكذوبة الباغية اللعينة كوهج النار الساطعة الضوء في جوف ليلة رهيبة الظلمات.

وطرقت الهمســـات اللعينة أذنى الـــزوج العظيم، فارتاع لها، وتعوذ من شـــرورها، ووقـــف عليه الصلاة والســـلام أمام ما ســـمع موقف الحائر المتـــردد، لا يدري، هل يأخذ بمـــا تقول به المتقولون، ويصدق ما أشـــاع الحاسدون، أو يتحقق من الأمر بنفسه فيسأل ويستجوب.

كانت أم المؤمنين المبرأة الطاهرة، قد عادت من رحلتها، مرهقة متعبة، قد أثر فيها حادث ترك المسلمين إياها وحيدة في الصحراء، فتملكها خوف وأخذتها رهبة، شعرت معهما بالمرض وأسرعت إلى الاعتكاف وقد برح بها ما وجدت، وأحزنها أن لاحظت إعراض زوجها العظيم عنها، وتحاشيه النظر إلى وجهها المحبب إليه، فاغتمت لذلك، وحز في نفسها أنه صلى الله عليه وسلم قد شغل عنها بعروسه الجديدة التي تخيرها من بين سبايا بني المصطلق.

واستبدت بعائشة همومها، ولم تطق أن تبقى حيث هي ضحية للوهم والشكوك والغيرة من أن يكون قد انصرف عنها قلب محمد، فطلبت منه صلى الله عليه وسلم أن يأذن لها لتعود إلى بيت أبيها لتعنى بها أمها هناك، فوافقها محمد دون معارضة أو اهتمام، وذهبت إلى بيت الصديق.

ووجدت الفتنة في خروج عائشة من بيت محمد مرتعاً جديداً رحباً تمرح فيه، وطعاماً مستساغاً تعيش من جديد عليه، فزادت انتشاراً، وعظم أمرها حتى صارت شاغل الناس.

ورسول الله، ماذا كان بوسعه أن يفعل والعاصفة تشتد والهول يتعاظم.

إنه يعرف عائشة جيداً يعرفها بأكثر مما تعرف الصديقة المبرأة نفسها ولكن، لماذا لا يسأل ويستجوب، فقد تستكشف له نواح ربما لم يعرفها ولم يصل إليها.

وسأل الزوج العظيم، صاحبات عائشة عنها، سأل أمهات المؤمنين، فلم تذكرها واحدة منهن بغير الكمال والتسامي، ولم تشهد إحداهن إلا بما كان يعرف محمد عن عائشة.

إذن فماذا يفعل، فيسأل الجارية، وماذا كان بوسع الجارية أن تقول أكثر ما قالت أمهات المؤمنين.

وأقبل محمد الزوج الحائر على أحد أصحابه يسأله، وإذا به ينفي الاتهام عن عائشة، بل ويستنكر أن يسمعه، ويأبى في إصرار، وقوة أن يقال هذا عنها.

وعائشة.. عائشة الصديقة، المبرأة الغالية عائشة الأثيرة المحبوبة،

ماذا كان موقفها من الإفك وحديث الإفك!!

لم تكن الضحية - التي نال قالة السوء منها - تعلم شيئاً مما قيل: والحمد لله بل لم يصل إلى سمعها بهتان أهل البهتان وزور أهل الزور، إذ كانت مريضة تعاني نتائج أحوال تلك الليلة الرهيبة، وتقاسي في ذات الوقت ألماً نفسياً رهيباً.

كانت تظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انصرف عنها إلى زوجه الجديدة «جويرية بنت الحارث بن ضرار» سيد بني المصطلق. وأنها احتلت عنده صلى الله عليه وسلم مكانة عائشة فزاد بها الهم وبرحت بها الغيرة وتضاعفت أضعافاً، ساعات كانت تراه صلى الله عليه وسلم، وقد أتى ليعودها، فلا يخاطبها ولا يقترب منها ولا يبادلها حديثاً بل يقول لأبويها مشيراً إليها: كيف تيكم».

أبداً ما تصورت الصديقة المبرأة أن بعض المناقين قالوا فيها قول الإفك، ورموها بما لم يكن فيها، وما برأها الله منه.

أبداً ما تصورت عائشة هذا، حتى فوجئت بسماع الحقيقة ذات يوم، وعن طريق المصادفة المحضة، فذعرت وبكت، وكاد يقضى عليها!!

إذن فإعراض محمد عنها لم يكن بسبب أم المؤمنين جويرية بنت الحارث، بل كان مرجعه قالة السوء التي روجها المنافقون، ولكن.. ماذا كان بوسع الصديقة أن تفعل!!

كيف كانت تستطيع عائشة أن تدفع عن نفسها ما قيل، وتبرئ ذاتها المصونة من حديث الإفك والبهتان.. كيف.. كيف..!!

إنها أيام قلائل مرت ولكنها في بطئها كأنها دهور ودهور..

وسأل محمد نفسه، لماذا لا يواجه الأمر، ولماذا لا يتولى سؤال عائشة ومناقشتها، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر، ودخل على أم المؤمنين وعندها أبواها وامرأة من الأنصار تبكي غماً وحزناً وتشاركها عائشة البكاء لكنها ما إن رأت زوجها العظيم يهل عليها حتى سكتت وكفكفت الدمع.

وأخذ محمد صلى الله عليه وسلم مكانه بالقرب من زوجه المبرأة ومال عليها يسألها أن تصارحه بحقيقة ما كان، وسألها أن تتقي الله وتخشاه وتسأله التوبة.

وعز على أم المؤمنين الطاهرة أن تسمع ما سمعت وكبر لديها أن يظن بها زوجها السوء، وأرسلت نفسها إلى البكاء ونظرت إلى أبويها الصامتين الحزينين تسألهما أن يتوليا عنها الجواب.

وحارت الأم، ولم يدر الأب بماذا يجيب عن ابنته، وإذا بعائشة تلتفت إلى زوجها وتقول له: «والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا، والله إني لاعلم لئن أقررت بما تقول الناس - والله يعلم أني منه بريئة - لأقولن مالم يكن، ولئن أنا أنكرت ما تتقولون لا تصدقونني، ولكني أقول لكم جميعاً ما قاله يعقوب لبنيه، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون..».

وخيم الصمت على بيت أبي بكر ومن فيه، ومرت اللحظات بطيئة متكاسلة ملولا، ولم يبرح محمد صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى جاءه الوحي فسجي بثوبه حيث كان، ووضعت وسادة تحت رأسه.

ومرت اللحظات في رهبة وقسوة: وفزع الجميع إلا هي، إلا عائشة المبرأة التي كانت تعرف أنها بريئة، وأن الله لن يتركها نهباً مقسماً لتطاول الناس واجترائهم على ذاتها، وأفاق محمد في النهاية، ووجهه يتألق بالبشر بأن الله قد أنزل براءتها من فوق سبع طباق، فهتفت تقول: الحمد لله.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، من بيت أبي بكر إلى المسجد، وراح يتلو على جموع المسلمين براءة عائشة التي أنزلها الله من السماء:

﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴾.

وهكذا حصحص الحق، ووضحت أضواء اليقين، ونزلت براءة المطهرة عائشة من السماء، في قرآن قطع ألسنة المتقولين.

وعادت عائشـــة إلى بيت محمد عزيزة مكرمة، لتحتل مكانها المرموق في البيت النبوي، وفي قلب محمد العظيم، وعاد الصفاء مرة ثانية يخيم على الجميع، ثم أخذت عجلة الحياة تدور، وأحداثها تسير، وحقق سيدنا رســول الله النصر بعد النصر، حتى أفاء الله عليه بالفتح الأكبر، ومكّنه من الكافرين عبدة الصنم، وأتم فتح مكة، وحطم أصنامها، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

ومرت الأيام والشهور، وهاهي ذي تقف في بطء أمام يوم، لم يكن من مقدمه مهرب ولا مفر، يوم مرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض الموت الذي فاجأه وهو في بيت أم المؤمنين زينب بنت جحش، فراح صلى الله عليه وســلم يقاومه في صبر وقوة، ثم انتقل بعد ذلك إلى بيت أم المؤمنين «ميمونة» بنت الحارث.

وأحسّ محمد بقســوة المرض، وأنه في حاجــة إلى مزيد من الرعاية، وأنه من الضروي أن يريح بدنه بعض الشيء، واجتمعت نساؤه حوله وراح صلى الله عليه وسلم ينقل فيهن بصره وهو يقول:

أين أنا غدا؟

فتجيب إحداهن: عندي أنا.

فيعود إلى تكرار السؤال، حتى فهمت أمهات المؤمنين ما يعنيه.

لقد أراد رســول الله صلى الله عليه وســلم أن يكون في بيت عائشة، وأن تشــرف هي على تمريضه ورعايته، فكان أن اســتجابت نساء النبي إلى رغبته، ونزلن عليها عن رضى، وانتقل صلى الله عليه وسلم إلى بيت عائشة.

ولم يكد الرســول الكريم يستقر في بيت المبرأة، الطاهرة، حتى أحس بثقل المرض، وبأنه سوف يصعب عليه أن يمر بنسائه جميعاً كما عودهن فبعــث في طلب ابنته الحبيبــة فاطمة الزهراء البتول، وأســر إليها أن تســتأذن أمهات المؤمنين في إعفائه من المرور عليهن، فهو في حاجة إلى الراحــة، وأن يقبلن راضيات بأن يبقى طــوال أمد مرضه حيث أراد أن يكون في بيت عائشة، فقبلن جميعاً عن رضى.

وجاءت سكرة الموت بالحق، وقبض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بين حجر عائشة وسمت روحه المبرأة إلى الرفيق الأعلى، وآخر ما شهده من دنياه، وجه أم المؤمنين عائشة الغالية أحب نسائه إليه.

وانتشر النبأ الفاجع بين المسلمين، انتشار النار في الهشيم، وتجمعت جموعهم أمام البيت، وهم لا يصدقون أن رسول الله صلى عليه وسلم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وأسرع أبو بكر يستأذن في الدخول كعادته، وإذا بصوت عائشة يصل إلى مسمعه وهي تقول له باكية حزينة، «لا حاجة لأحد في طلب الإذن بعد اليوم، فقد قبض رسول الله».

ودفن محمد صلى الله عليه وسلم مكان موته في بيت عائشة، الذي أصبح المستقر الأخير للجسد الطاهر على صاحبه رضوان الله عليه وسلامه وجزيل الصلوات، وصلى عليه المسلمون فرادى لا يؤمهم أحد، إذ افتقدوا أمامهم الأعظم محمداً سيد الناس، وإمام الرسل أجمعين.

وحمل أبو بكر تبعات الأمر بعد سيدنا رسول الله وأصبح الخليفة المسئول عن زعامة المسلمين فما قصر في أمر من أمورهم، ولا تهاون في حد من حدود الله: بل اتبع منهاج محمد وأسلوبه في قوة واعتداد وعنفوان، ولم يمكن لخارج من الخروج، ولا ترك فرصة لمقصر إلا رده إلى جادة الحق بكل وسيلة وسلاح.

وقرت أم المؤمنين عائشة في بيتها بعد محمد صلى الله عليه وسلم، كما قرت في بيوتهن سائر أمهات المؤمنين.

ومضى أبو بكر، وجاء أمير المؤمنين عمر ثم، خلفه عثمان الطيب ذو النورين، وكان رجلاً غلبت عليه الطيبة التي سمحت لبعض ذوي قرابته في التدخل في أمس أمور الدولة، فكره المسلمون ذلك، وعلت أصواتهم في سائر الأمصار، يعترضون ويعلنون عدم الرضا على كثيرمن الأمور، بل سارت وفودهم إلى المدينة قادمة من هنا وهناك.

واعتبر عثمان قدوم أهل الأمصار إلى المدينة خروجاً على الطاعة، وكره أن يتفرق أمر المسلمين على هذه الصورة، فردهم وأبى أن ينزل على آرائهم أو يستجيب لمطالبهم، فكانت الفتنة الكبرى، وكانت غضبة المسلمين، لانصراف أمير المؤمنين عنهم، ولم يجدوا غير أن يطرقوا باب

عائشة ويتشفعوا بها عنده حتى لا يتسع الخرق ويعظم أمر الفتنة.

وكبر على عثمان أن يلجأ أهل الأمصار إلى عائشة، وأن تستجيب هي لهم، وتقحم نفسها في أمور الدولة وهو وحده المسئول عنها، ولم يحدث قبل اليوم أن تدخلت واحدة من النساء أيا كانت في مثل هذه الأمور.

وكان عثمان صريحاً في إعلان رأيه هذا، وكانت صراحته تلك بمنزلة أمر لأم المؤمنين عائشة لتلتزم بيتها وأن تقر حيث أمرها الله .... وهنا.

وهنا أقف مشفقة، فالمحدثون والرواة، لم يقفوا من هذا الحادث موقف الحيدة أبداً، ولم يلتزموا فيه جانب الحقيقة والتاريخ، وإذا هم أكثر من فريق، وأكثر من رواية، وأكثر من محدث، حتى لقد ضلت الحقيقة، وعرتها مبالغات جعلت من أم المؤمنين عائشة، تخرج على حدودها وتعلن العداء علانية لعثمان، بل وتقيم خيمتها في صحن المسجد وسط جموع الثائرين وترفع نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تقول لأمير المؤمنين الذي كانت تستحي منه الملائكة أنه خرج على شريعة صاحب ذلك النعل!!

اللهم هذه فرية لا يرضاها مسلم وما كنت أحب أن أذكرها لولا ورودها في كثير من المصادر، حتى لتأخذ صورة جديدة تنقلب بعد هذا إلى تحريض سافر من عائشة على قتل عثمان في القول الذي أقحم عليها بغير حق، وقد ادعوا أنها قالت للثائرين على أمير المؤمنين:

«اقتلوا نعثلا (عثمان) فقد كفر...».

فهل يعقل هذا... وهل يرضي الله ورسوله أن يتجاسر المتقولون على الحرمات بهذه الصورة، وأن يجعلوا عائشة أم المؤمنين تحكم بأن عثمان، ذا النورين، وصاحب رسول الله السباق إلى الإسلام وإلى نصرته - بأنه قد كفر، وهو الموعود بالجنة!!

هذه افتراءات تاريخ، وعائشة منها براء، ولكنها تواردت وكثرت وتوارثها الناس دون تحقيق حتى لقد بلغ التحزب بفئات منهم أن حملت أم المؤمنين تبعة التحريض على قتل عثمان ابن عفان ثالث الراشدين بعد رسول الله.

وقتل عثمان، ونجحت الفتنة الكبرى. فإذا بالخيال يشتط بالمجترئين المتقولين ويجمح بهم إلى أبعد مما كانوا يتصورون، وإذا بهم يجعلون

السيدة الكريمة المبرأة التي حرضت في رواياتهم المفتراة على قتل عثمان - بعد أن قضت بكفره - تقف اليوم في موقف المطالب بدم الشهيد العظيم ممن خرجوا عليه وسفكوا دمه.

اللهم هذا افتراء على مقام ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإني لأجزم أنها كانت أبعد الناس عن الفتنة، ولكن حب الإثارة وإعادة الأمور إلى أصول خيالية جعل الناس يقحمون اسم الصديقة أم المؤمنين عائشة في المؤامرة، ليخونهم السرد الخيالي بعد ذلك وهم ينتقلون بالأحداث إلى الصراع الذي قام بين عائشة، وبين الإمام الأعظم علي بن أبي طالب، لما صار إليه الأمر بعد عثمان، وأصبح أميراً للمؤمنين!!

وقد أجاري بعد هذا من يقولون إن المسلمين في أثناء اشتداد الفتنة الكبرى واندلاع أوارها، قد لجأوا إلى عائشة ينتصحون بنصحها، وأن أم المؤمنين وقفت موقف الحياد، أو قد تكون نصحت عثمان بكذا وكذا - أما أن تكون قد رفعت في وجهه نعل سيدنا رسول الله، وحرّضت المسلمين على قتله لأنه كفر، وخرج على شريعة صاحب النعل، فذلك أمر أرفضه ولا أرضاه.

ولنسرع بعد هذا إلى ما قام بين عائشة وعلي. وكيف تطورت الأمور لتقف بينهما إلى حد الخروج علناً على البيعة الإجماعية والتحريض على خلع أمير المؤمنين، ثم لنقف في حذر، ولنمسك بالخيط من بدايته فنسخر من الزعم بأن عائشة كانت تكره علي بن أبي طالب لأنه وقف في غير صفها أيام حديث الإفك، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن النساء غيرها كثيرات، ودعا إلى طلاقها!

هذا أيضاً قول مفترى، ولا أساس له من الصحة، ولا يمكن أن يرضاه أحد، فعائشة كانت من أهل محمد «وعلي» وهو ابن عم محمد وزوج ابنته الحبيبة، وكان أحب الناس إلى سيدنا رسول الله ولن يعقل أبداً أن تكره عائشة أحداً كان يخصه محمد بالحب والتقدير والاعتزاز.

إذن... لماذا خرجت عائشة على أمير المؤمنين على بن أبي طالب!!

ذلك هو السؤال.. لماذا خرجت عائشة.. ولماذا أقدمت على تفريق المسلمين وجعلت بعضهم يقدم على حرب بعضهم الآخر.

هذا أمر يعرفه جيداً من صوروا لعائشة الأمر بعد مقتل عثمان على

غيـــر حقيقتـــه واتهموا عليا بأنـــه تقاعد عن نصرة عثمـــان، ولم يأخذ بدمه، وأفهموها أن خروجها فيه صلاح لأمر المســـلمين وتجميع لكلمتهم فخرجت.

وكانـــت وقعة «الجمل» الرهيبة، كان النصـــر الذي أيد الله به علي بن أبي طالب ثم.. كان إرجاع عائشـــة الكريمة معززة مكرمة إلى بيتها حيث أمرهـــا الله أن تقر فيه، وقد عرفـــت حقيقة الصراع ثم ندمت على أنها شاركت فيه دون تحقيق.

وشهدت عائشة رضي الله عنها عهد معاوية ثم لحقت بالرفيق الأعلى في الســـابع عشـــر من رمضان للعام الثامن والخمسين من هجرة رسول الله صلى الله عليه وســـلم: ودفنـــت بالبقيع، وصلى عليهـــا أبو هريرة، وطويت صفحتهـــا، أنضر صفحة وأطهر صحيفة في صحائف النســـاء المسلمات الخالدات.

حفصة بنت عمر*

عاد المسلمون من «بدر الكبرى» وقد أيدهم الله بنصره، وأعلى مكانتهم، فقويت شوكتهم، ونبه شأنهم في حين هان شأن قريش العاصية التي لقيت أشنع هزيمة، وفقدت الجاه، وتساقط رءوس الكفر من كبرائها، بين صريع ملقى الجثة في القليب، أو أسير ينتظر أن يفتديه أهله بالمال الذي فرضه سيدنا رسول الله.

وفي الوقت الذي خيّم فيه الأسى على مجتمع قريش، وران عليه صمت رهيب، فلا صوت، ولا حس، ولا بكاء على صريع لقي حتفه، أو اهتمام بأسير وقع ذليلاً في أيدي المسلمين.

في هذا الوقت الذي جلل الحزن فيه مكة وكبراءها، وقد فقدوا قادتهم ورءوس عشائرهم، كان المسلمون في مدينة رسول الله في عيد سعيد مليء بالزهو والفرحات، فقد حقق لهم الله آية النصر، وأعزهم، وأمدهم بجنود لم يروها، فازدادوا إيماناً وثباتاً ولهجت ألسنتهم بالحمد والثناء والشكران.

ووسط مظاهر السعادة والفرح هذه، حل العام الهجري الثالث، وبهجة النصر على سفهاء مكة لم تزل في قلوب المسلمين، فكان مطلع العام، طالع يمن وبشرى انتصار بعد انتصار.

وسارت الحياة في المدينة المنورة سيرتها، دأب وعمل وإقبال على العبادة والتفاف حول راية سيدنا رسول الله، معلم الإنسانية الأكبر،

* العربي - العدد ١٣٢ - نوفمبر ١٩٦٩م.

وهادي العالمين إلى الله رب العالمين، ومرشدهم إلى عز الدارين والسعادة والرضوان.

وذات صباح، والمدينة على حالها من العمل والتوثب والاستعداد لمزيد من النضال في سبيل الله، سمع المسلمون صوت الناعي، ينعي مسلماً كريماً هو «خنيس بن حذافة» زوج السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب عليه رضوان الله.

وأسرع الناس يكرمون الراحل، ويجهزونه وهم يستودعونه لله الذي لا تضيع عنده الودائع، ثم راحوا يقدمون العزاء في «خنيس بن حذافة» إلى حميه «عمر بن الخطاب» الذي حزن لوفاة صهره، وسأل له الرحمة، وتمنى لابنته حفصة الصبر، وقد ترملت وهي لم تزل في ريعان الشباب.

ومرت الأيام، وعادت الحياة تأخذ سيرتها الرتيبة في المدينة، وبدأت السرايا تخرج لتنطس أنباء قريش وتقصي أحوالها، ورفرفت من جديد راية الجهاد، وراح المسلمون يعدون أنفسهم لمزيد من الكفاح لنصرة الدين وإعلاء شأن الدعوة إلى الوحدانية الخالصة من الشرك والضلالات.

ودارت عجلة الزمن دوراتها التقليدية، وتولى الأمس وما وقر به من ذكريات، وعلى سنة الحياة، نسي الناس خنيس بن حذافة، وإن النسيان لشريعة كل هذا الوجود.

نسي الناس ميت الأمس، إذ انقطعت بالحياة صلته، وطويت صفحته، ولم يعد غير حديث يروى، أو زفرة تتعالى، إذا ما طوفت بالفكر ذكراه، ثم.. سار الوجود في مساره، وتطلعت العيون إلى الغد، إلى المستقبل بعد أن فات الأمس وما كان فيه من حزن وأفراح.

وهز عمر بن الخطاب رأسه في أسى للراحل الذي استراح وترك في قلب أهله لوعتين، أسى وفراقا، وأرملة شابة كان التفكير في أمرها شغل أبيها الشاغل ومدار تفكيره العميق.

لقد كان من تقاليد العرب منذ القدم، أن يشغلوا ذواتهم بصوالح البنات. وكان أهم ما يهتم له كل أب أن يرعى ابنته، ويراها عزيزة في بيت سعيد مستقر، وفي رعاية زوج كريم يقدرها حق قدرها ويكفيها مئونة العيش.

وكان عمر قد مر بهذه التجربة من قبل، حتى تزوجت حفصة بخنيس الطيب، وعاشت في كنفه ما شاء له الله أن يعيش، وكفت أباها الكريم، مشقة التفكير في أمرها وأمر مستقبلها.

أما اليوم. فإنه غير الأمس، فقد ترملت حفصة وأصبح على أبيها أن يفكر في أمرها من جديد، وأن يجد لها الزوج الحاني الجدير بها.

واستعرض ابن الخطاب في ذهنه الكثيرين من شباب المهاجرين والأنصار، ممن كان يرى فيهم الكفاية لحفصة، ولكنه لم يستقر على شخص معين بالذات، إذ كلما فكر وفكر، وتذكر وتذكر، اتسعت الرقعة أمامه، وتكاثرت الشخوص في ذهنه وتزاحمت الأسماء.

وتوقف عمر فجأة أمام اسم صاحبه وأخيه في السبق إلى الإسلام، عثمان بن عفان!!

هذا هو السيد الجدير بزواج حفصة ولاشك، فهو أخو أبيها في الله، وإنه بعد لمن بيت عريق عال من أكرم بيوت قريش، يتطاول وبيت ابن الخطاب.

والأكثر من هذا والأهم، أن عثمان بن عفان كان قد ترمل هو الآخر، وكانت زوجته السيدة رقية بنت سيدنا رسول الله قد لحقت بربها عقب العودة من بدر فبكاها بدمع هتون وما نسيها قط، ولا فكر من بعدها في مصاهرة أو زواج.

وارتاح عمر بن الخطاب، إذ تذكر عثمان الطيب السمح الكريم، ووجد فيه خير زوج يصلح لابنته حفصة، وأسرع إليه يحدثه في شأنها ويعرضها عليه شأن السادات الكرام، ولكن عثمان رضي الله عنه انصرف عن صاحبه عمر وتركه وهو يقول له إنه ليست به إلى النساء حاجة، خاصة بعد أن انقطعت صلة رحمه بسيدنا محمد رسول الله.

وعاد عمر بن الخطاب يفكر من جديد في أمر حفصة وأمر زواجها، وعاد يستعرض الأكفاء لابنته، فارتاح قلبه كل الراحة لتذكر صاحبه أبي بكر، وأسرع عمر إليه وهو واثق كل الثقة أن الصديق سيرحب بمصاهرته أيما ترحيب، وسيسعده - ولاشك - أن تدخل حفصة بنت عمر بيته وتكون زوجة له.

وتلاقى الرجلان الكريمان، وتحدث عمر، وتحدث، وأبو بكر صامت

لا يريم وعمر في دهشـــة من أمره فهو لم يخرج عن صمته الطويل بنعم أو.. لا.. ثـــم انصرف أبو بكر وترك عمر في حيرة من أمر ذلك الصمت الغريب!

ومرت أيام بعدها أيام ثم.. أراد الله - ولا راد لإرادته أمرا - وكما كرم سبحانه بالأمس القريب الصديق أبا بكر فألحق نسبه بمحمد صلى الله عليه وســلم فزوّجه ابنته أم المؤمنين عائشـــة، كذلك أمر الله رسوله أن يضفي الشـــرف ذاته على عمر بن الخطاب ويطلب إليه الزواج بالسيدة حفصة، وذلك عندما ذكر عمر ما حدث مع الصديق أبي بكر للنبي صلى الله عليه وســلم، وأضاف إلى ســمعه ما حدث من إعراض عثمان عنه، فقال له الرسول الكريم: قد زوج الله عثمان خيراً من ابنتك وزوج ابنتك خيراً من عثمان. فتزوج رســول الله حفصة، وزوج أم كلثوم ابنته بعثمان بن عفان.

لقــد كان تكريماً أيما تكريم، وشــرفاً أثلج قلب عمر بالرضا والراحة، حتى لقد أســلم نفســه إلى أحلام ســعيدة راح خلالها يتصور الحدث السعيد والمفاجأة التي لم يكن يتوقعها.

كان عمــر يريد لابنته الــزوج الكريم الذي يســعدها ويرعاها ويرفع قدرها، وأي زوج في الوجود أجدر من رسول الله في هذا؟

وتزوج سيدنا رسول الله أم المؤمنين حفصة على صداق قدره أربعمائة درهم، وسنها يومئذ عشرون سنة.

فقد ولدت رضي الله عنها قبل بعثة النبي بخمس سنين.

وكانــت رضــي الله عنها من أوائل من دخلن الإســلام، ومن أوائل من هاجــرن من مكــة إلى المدينــة، إذ هاجرت مع زوجهــا الأول خنيس بن حذافة، وبقيت معه هناك حتى لقي ربه.

ودخلــت حفصة بيــت محمد صلى اللــه عليه وســلم، وأصبحت أما للمؤمنين، وزوجة ثالثة لســيدنا رسول الله بعد زوجتيه سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر.

وســعدت نفس عمر ولم يعد صاحب رســول الله فحســب، بل حماه أيضاً، وصهره الكريم، حتى لقد فاخر بهذه الصلة عندما التقى بصاحبه أبي بكر بعد زواج حفصة من الرسول فقال له:

- عرضت ابنتي حفصة على عثمان بن عفان فردني، وقال إنه لا حاجة له بالنساء بعد انقطاع صلة رحمه برسول الله، ثم عرضتها عليك أنت يا أخي أبا بكر، فكان موقفك عجيباً، إذ سكت، ولم تجب بلا أو نعم، فكان حزني لسكوتك أضعاف ما سببه رفض عثمان لطلبي.

وزفر أبو بكر زفرة عميقة قال بعدها في هدوئه الجليل المحبب:

- أي أخي عمر، الآن وقد دخلت أم المؤمنين حفصة بيت رسول الله وعلا بهذا قدرك وشرفت حسباً ونسباً، فإني في حل من الكلام، لقد عرضت علي ابنتك وأنا أعرف الناس بها وبك ولكن، كان رسول الله قد ذكر لي عن ابنتك شيئاً، وكان هذا سراً، خشيت إفشاءه خاصة وهو سر خاص برسول الله.

وعاشت حفصة في بيت سيدنا رسول الله حياة وادعة، هادئة، يخيم عليها الصفاء، ويرفرف الحب بين أمهات المسلمين جميعاً، خاصة حفصة وعائشة. حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبهما معاً في إحدى غزواته، وكان من عادته صلى الله عليه وسلم ألا تخرج معه غير زوجة واحدة ولكنه، أمام الوفاق الذي جمع بين ابنتي صاحبيه أبي بكر وعمر، صاحبهما معا، كل واحدة في الهودج الخاص بها، والرسول الكريم طوال الرحلة لا يفتأ يقترب من كلا الهودجين للاطمئنان على راحة كل منهما.

ولاحظت حفصة أن زوجها العظيم كان يقترب من هودج أم المؤمنين عائشة أكثر مما يقترب من هودجها هي، ويطيل مسارته معها، فاستشعرت بعض الغيرة، والغيرة طبيعة في النساء تكاد تكون متممة لوجودهن وإحساسهن.

وراحت حفصة تفكر وطال بها أمد التفكير حتى اهتدت إلى حيلة طريفة ضحكت لها طويلا وأصرت على تنفيذها للتسرية عن زوجها الرحيم الذي كانت تعرف مدى حبه وعطفه على نسائه.

وأسرعت حفصة إلى هودج عائشة، وأسرت إليها بفكرتها، وضحكت عائشة طويلاً وطابت لها الفكرة، وأحبت الدعابة البريئة، وما أسرع ما لبت مطلب حفصة وتبادلت كل منها مكان الأخرى، في غفلة من العيون، فإذا حفصة في هودج عائشة وإذا عائشة في هودج حفصة، وإذا

بالرسول الكريم يسرع كعادته فيقترب من كلا الهودجين للاطمئنان على صاحبته ثم يطيل البقاء إلى جانب هودج حفصة وهو يظنها عائشة.

وظل الجيش في مسيره، ورسول الله إلى جانب هودج عائشة وحفصة بداخله، حتى قاربت الشمس المغيب، وكان على المسلمين أن يحطوا رحالهم حتى الصباح.

وحطت عائشة بهودجها بعيداً وانتظرت، وحطت حفصة بهودجها إلى جانب رسول الله الذي لم يكد يراها حتى فطن للخدعة البريئة الساذجة وضحك لها وأبى إلا أن يستمر فيها إلى النهاية، فبقي سواد ليلته مع حفصة ولم يتركها، وترك عائشة تقضي مع الغيرة ليلة مسهدة، إلا أنها كانت ليلة سعيدة، مرحة، دللت على مدى الصفاء الذي كان يسود بيت محمد، ويغمر قلوب أمهات المؤمنين!

وعادت الحياة تسير، وعاد رسول الله إلى جهاده ونضاله، واتسعت رقعة ذلك الجهاد، ولم تعد قريش وحدها هي العدو الألد المتربص بمحمد، بل كانت ثعالب اليهود، الذين أحبوا في بادئ الأمر أن يهوّدوا دعوة محمد، فردهم بالحسنى والبينة والكتاب المبين ودعاهم إلى الإسلام، فهو دين الفطرة، دين إبراهيم، وموسى وعيسى، ولكنهم أبوا وعصوا وكشفوا عن وجوههم. وكشّروا عن أنيابهم وراحوا يتآمرون على المسلمين.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قينقاع فضربهم وطردهم من ديارهم. ولم يلبث أن ألحق بهم أبناء عمومتهم بني النضير فطردهم وأخرجهم وملك الله المسلمين ديارهم وأموالهم.

ثم، والرسول في معمعة النصر الأكبر، تطاولت قريش مرة ثانية بعد «أحد» فزحف سفهاؤها من جديد، وكانت موقعة بدر الصغرى، وفيها لقوا هزيمة جديدة أطاشت لبهم وأطارت صوابهم فعادوا إلى مكة يجرون أذيال الخيبة والهزيمة.

وخرج محمد بعد هذا إلى بني غطفان، ثم إلى دومة الجندل فأدب الخارجين، وفرض الجزية، وعاد إلى المدينة منتصراً عزيز الجانب.

لقد أصبح رسول الله اليوم قوة غلابة، يحسب لها ألف حساب، لقد ضرب اليهود، وفرض عليهم الجزية والديات، وغنم أموالهم وديارهم، وبدأت المدينة في خلال هذه الآونة تشهد لوناً جديداً من ألوان الحياة.

وتصورت نســـاء محمد أن الرسول الكريم قد أصاب المال الجم، وأنه من واجبه بعد أن فتح الله عليه، وأغنمه المال، أن ينفق عليهن عن ســعة وأن يغــدق عليهن بلا حســاب، ورحن يتحدثن في ذلــك ويتصورن الغد المشرق الباسم وما يحمل في طواياه من متاع وغنى ورياش!!

وطــاب الخيال لحفصة وعائشــة بصفة خاصة، وما أســرع ما راحتا تتحدثان عنه مع بقية أمهات المؤمنين وتســألانهن أن يتجمعن على النبي في صف واحد يسألنه السعة في النفقة في إلحاح وإصرار.

وأصغى رســول الله طويلا إلى نسائه ثم ســكت وكن جميعاً جالسات حولــه، ودخل أبو بكر وعمر، وتولتهما الدهشــة، وكبــر لديهما أن تقدم نساء النبي على سؤاله النفقة، وأن تكون حفصة وعائشة هما المحرضتين لهن على ذلك.

ونهر عمر ابنته حفصة، وكذلك فعل أبوبكر، ثم قام كل منهما إلى ابنته فوجأ عنقها وعنّفها وحذّرها أن تسأل رسول الله مالا طاقة له به.

وانصرف الرجلان الكريمان كل إلى شأنه وقد ظن كل منهما أن الأمر وقف عند ذلك الحد ولم يدر بخلدهما أن حفصة وعائشــة أصرتا على موقفهما وعادتا تطالبان بالتوسعة.

وحار رســول الله، ولم يدر كيف يرد نســاءه ويسكت حفصة وعائشة بصفة خاصة، فسكوتهما هو حسم المطالبة والكف عنها، ولكنهما أصرتا، فأقسم رسول الله أن يعتزل نساءه جميعاً.

وشــاع النبأ في المدينة وذاع، وقيل إن محمداً قد طلق نســاءه!! فذعر المسلمون أي ذعر، وخشوا في أعماق نفوسهم أن يصح هذا النبأ الذي - إن صح - فسوف يكون سابقة خطيرة في الحياة الإسلامية الاجتماعية، قد تودي بالمجتمع وتقضي على الصلات والتصاهر، وأسرع بعضهم إلى بيت عمر يدق بابه في ذعر أقض مضجع الرجل الكريم، حتى لقد خشي أن تكون قد نزلت بالمســلمين في مدينتهم نازلة، وأقبل يستوضح الخبر، فإذا هو يعرف مع الحسرة واللهفة أن محمداً قد طلق نساءه جميعاً.

وارتج على عمر، إنها نازلة كالقضاء المبرم لا تدفع أبداً، وشر ما توقع أحد حدوثه، وأســرع عمر إلى بيت النبي وهــو يقول في ذعر: «ما يعبأ الله بعمر بعد اليوم!!».

ثم دخل على ابنته أم المؤمنين حفصة فإذا هي ذاهلة تبكي هي الأخرى وإذا هي شـــاردة اللب حائرة، فأقبل عليها يسألها إن كان رسول الله قد طلق نساءه حقاً، فحارت ولم تجب. فعاد يسألها من جديد، وإذا بها تقول والعبـــرات تكاد تخنقها إنها لا تدري إن كان قد طلق نســـاءه أم لا، ولكن الذي تدريه أن الزوج الكريم قد اعتزلهن جميعاً.

وأسرع عمر يستأذن في الدخول على صاحبه العظيم، وصهره الكريم، فدخل غلام الرســـول ثم عاد بعد فترة ليقول لعمر إنه استأذن له رسول الله فسكت عنه ولم يجبه.

ونكس عمر رأســـه في أسى وتحسّر، وزفر زفرة عميقة عن كبد حرى ثـــم نظر حواليه فـــإذا الكآبة تخيم على البيت المحمـــدي، وإذا الصمت يجلله، وإذا لأمهات المؤمنين شـــهيق وزفرات فلم يحتمل هذا كله، ووجد نفســـه يســـير في صمت إلى خارج البيت، ولكنه لم يكد يصل إلى بابه، حتى لحق به الغلام ليخبره أنه صلى الله عليه وسلم يأذن لعمر بالدخول عليه.

وتقدم عمر إلى حيث كان رســـول الله، فإذا هو مضطجع على حصير خشن، قد أثر في جسده تأثيراً ظاهراً.

ونظر عمر إلى رسول الله، إلى جسد الرجل الوادع الأمين، الذي أعزه الله وأعز المسلمين به، وتحدث الناس بذكره، وأقبلت عليه نساؤه يسألنه سعة النفقة والمتاع، ورآه وهو على هذه الحال، وقد اضطجع على حصير خشـــن كأنه حجارة مدببة، فبكى تأثراً وإشفاقاً على صاحبه الزاهد في الدنيـــا، الكاره لعرضها، الذي يعمل في ســـبيل الله ونصرة دينه وإعلاء شأن المسلمين.

وأقبل محمد في دهشة على صاحبه ابن الخطاب يسأله، فلم يستطع أبو حفصة أن يكتم مشـــاعره وإذا به يقول لرســـول الله صلى الله عليه وسلم إنه إنما يبكي إشفاقاً عليه لأن الحصير قد أثر في جسده ويعجب كيف تكون هذه حاله وهو رســـول اللـــه ومصطفاه المختار، في حين يرتع الكفار في النعم الوفيرة والخير الكثير.

وتجهـــم وجه محمـــد العظيم، وأقبل علـــى عمر يقول: ويلـــك يا ابن الخطاب، أفي شك أنت من وعد الله الحق؟!! إنما لنا الآخرة، أما أولئك

الذيــن تذكر فهم قوم عجلت لهم طيبات الدنيا ولســنا من أهلها ولا من طلابها!!

ونكس عمر رأســه راضيا، وأنحى باللائمة على نفسه وراح في حرارة يســتغفر الله لتطلعه إلى حياة الآخرين، ثم أقبل على رسول الله ملاطفاً يســأله إن كان طلق نســاءه حقاً. فهز محمد رأسه بالنفي، وكان جوابه الصامــت صلى الله عليه وســلم برد الهدوء على قلب عمر، وســرعان ما اســتأذن النبي وخرج إلى جموع المسلمين في المسجد يطمئن قلوبهم بأن رســول الله لم يطلق نســاءه، فعاد الهدوء يعمر النفوس. وقد عرف المســلمون أنه إنما اعتزل أمهات المؤمنين فقط لشــهر كامل، إمعاناً منه صلى الله عليه وسلم في ردعهن وتهذيبهن.

ولــم يقف الأمر عند هــذا الحد فقط، بل عزز الله هذا الزجر الرادع مــن عنده، ليكون خاتمة الإلحاح فــي طلب النفقة، فنزلت في هذا آيات التخيير وفيها يقول جل وعلا:

﴿يــا أيهــا النبــي قــل لأزواجــك إن كنتن تــردن الحيــاة الدنيــا وزينتها فتعالين أمتعكن وأســرحكن سراحا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما﴾.

وأمام التخيير الواضح، تراجعت حفصة وتقهقرت عائشــة واستغفرت أمهات المؤمنين الله على ما بدر منهن، وتخيرن الله ورسوله والدار الآخرة وهانت في عيونهن عروض الدنيا وزخرفها، وندمن على ما فات.

وعاد الصفاء من جديد يغمر بيت محمد ويرفرف على أمهات المسلمين جميعــاً، وقد أقبلن راضيات علــى الحياة مع رجل زاهد في متع الحياة، أقبلت عليه الدنيا فأعرض عنها، ودان له الزمان، فولى وجهه عن مفاتنه واتجه بروحه وقلبه ووجدانه إلى الله يطلب النصر والفتح والرضوان.

وهــدأت ثائرة المســلمين جميعــاً، وطابت منهم النفــوس لنزول آيات التخييــر، التي زادت الحياة الاجتماعية الإســلامية رســوخاً وتدعيماً، وزرعــت القناعة في قلوب المســلمات، وحمتهن من إغراء أطايب الحياة وزخارفها.

وأحب المســلمون في غمرة تلهفهم على تقصــي حقيقة آيات التخيير ومعرفة من خصت من أمهات المؤمنين بوجه قاطع دون غيرها، وإذا بعمر

رضـوان الله عليه يحسـم الأمر، ويعين المحرضة علـى طلب النفقة من رسول الله، بل المحرضتين، لقد كانتا حفصة وعائشة، ولاشك وقد قلدتا في ذلك نسـاء الأنصار المدللات بعض الشـيء، واللاتي كن من عادتهن قبل الإسـلام مراجعة أزواجهن ومغاضبتهم إمعاناً في الصد ورغبة في الاستجابة السريعة للمطالب التي كن يردنها.

وأكمل عمر حديثـه إلى ابن عباس في هذه الواقعة بالذات، فقال إنه لـم يكد يعلم بأمر مغاضبة أمهات المؤمنين لرسـول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسرع إلى حفصة ابنته وقد اشتم بسليقته أن الرياح قد هبت من ناحيتها وأسرع يسألها:

- يا حفص.. أتجرؤ إحداكن على مغاضبة رسـول الله صلى الله عليه وسلم حتى الليل؟

وتجيب حفصة: نعم.

وثار عمر وغضب، وعلا صوته الجهوري مزمجراً يقول:

- ويلـك يا بنت عمـر، أتجرئين على هذا، خبت وخسـرت والله، أفتغاضبين رسـول الله ثم تأمنين غضب الله ورسوله فتهلكين!! إياك إياك أن تعودي إليها، وإياك إياك أن تسـتثيريه صلى الله عليه وسلم أو تغاضبيه أو تراجعيه في قول، وإياك أن تسأليه ما هو فوق طاقته، وسليني أنا، فإن أعانني الله أعطيتك، وإياك.. إياك أن تغرك وضاءة صاحبتك عائشة، وقربها من قلب رسول الله، فتفعلي مثلها.

ولم تكن حفصة التقية الورعة المطيعة لله ولرسـوله في حاجة إلى نصح أو إرشاد، إذ سبقت كلمات أبيها ونصائحه إرادة الله، ونزل في التخيير حكمه فأصبح أمراً واجب الطاعة، لا يقبل الجدل أبداً.

ومر شـهر الاعتزال، وعـاد محمد إلى أمهـات المؤمنين، وأخذت الحياة بعد ذلك تسير مسيرها الطبيعي في البيت وخارجه.

ومرت الأيام، وخرج المسـلمون بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام إلى غـزو «بني المصطلق» العصـاة، فنالوا عليهـم النصر، وفرضوا الجزيـة، وعادوا إلـى مكة منتصريـن مظفرين، وكانـت الصديقة عائشـة مع رسـول الله في تلك الغزوة، فتأخرت عن ركب المسلمين بعض الوقت، لأمـر من الأمور العارضة، وكان تأخرها عليها رضوان

الله مجالاً لتقـــول بعض المنافقين، فافتـــروا حديث الإفك والضلال والبهتان.

وكانـــت أزمة رهيبة مر بها المســـلمون جميعاً، وحار فيها رســـول الله، وزاد في حيرته أن سكت الله عنه، ولم يوح إليه بشيء يحسم تلك الفرية الظالمة، ليضع المسلمين جميعاً في اختبار عسير.

وأقبل محمد يســـتثير ويستوثق، وأسرع يســـأل عمر رأيه في عائشة، فنفـــى عنها الاتهام وفّنده ودافع عنها، وســـأل رســـول الله بنت عمر، أم المؤمنين حفصة إن كانت قد لاحظت عوجا في عائشة، فقالت في حرارة المنكرة المحتدة المحتجة:

احم سمعي وبصري يا رســـول الله، والذي بعثك بالحق هادياً وبشيراً ما رأيت على عائشة السوء قط، وإنها لبريئة مبرأة.

وصفع الله المنافقين والمشـــركين والمرجفين بأن أنزل براءة عائشة من لدنه وهو العزيز الحكيم.

وبرأهـــا مما أرجف به أهل الضلال، فعاد الهـــدوء يرفرف من جديد على بيت محمد، ونال المرجفون جزاءهم، وسكتت الألسن الكاذبة.

وعادت الأيام تمر، وراية الجهاد تزداد زهوا وظلها الوارف ينتشـــر في كل البقاع، ولم يكتف رسول الله بإخراج السرايا، وانفاذ الجيوش، وفرض الجزية في سبيل نشر دعوته، بل راح يرسل سفراءه إلى الحكام والقادة، ويبعث كتبه إلى الأباطرة والملوك في شتى الأمصار.

ودعا محمد كسرى وقيصر إلى الإسلام، وخاطب غيرهما من الاقيال والقادة، ووصلت رســـله إلى هنا وهناك، فهي مرة في فارس وأخرى في القسطنطينية وثالثة في الحيرة ورابعة في مصر.

وأرســـل كورش بطريرك الإسكندرية الملكاني الذي عرفه العرب باسم المقوقس ردًا جميلاً على رســـالة محمد، وبعـــث إليه طبيباً وجارية، فرد الطبيـــب وقبل الجارية وهـــي «مارية القبطية»، ســـريته صلى الله عليه وسلم، التي رفعها إلى مصاف الزوجات لما رزقت بابنه إبراهيم.

ولقـــد لاحظت حفصة أن الرســـول الكريم يولى ماريـــا عطفًا وحدباً، ويخصها برعاية فائقة، بـــل لقد حدث ذات مرة أن خصها بيوم من أيام عائشة، وفي فراشها.

ولم تستطع حفصة أن تكتم غيرتها لإيثار الرسول مارية على نسائه، وخاصة صاحبتها عائشة، وصارحته بذلك، بل وأقسمت أنها لابد أن تبلغ عائشة بما حدث، وتظاهرها عليه صلى الله عليه وسلم.

واستمع الرسول صلى الله عليه وسلم طويلاً وفي أناة وصبر إلى حديث حفصة، فقد كان الزوج الحاني، البار بنسائه، المقدر لعواطفهن حتى انفعالات الغيرة في نفوسهن فلم يثر ولم يغضب، بل ترفق في الحديث مع حفصة وراح يطيب خاطرها ويهدئ من ثائرتها لتقلع عن الغيرة، ولا تبوح بشيء مما عرفت لأم المؤمنين عائشة، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك مَن تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً**﴾.

وبالغ محمد صلى الله عليه وسلم في محاولته إرضاء حفصة والتخفيف من غلوائها، وأقسم لها أن مارية حرام عليه منذ اليوم، ثم أسر إليها حديثاً خاصاً قيل إنه بشرى بأن أباها سيكون خليفته الثاني بعد أبي بكر.

كل هذا، ولحكمة أرادها الله، لم يرض أم المؤمنين حفصة، ولم يخفف من غلواء غيرتها، فلم يكد الرسول الكريم يتركها حتى أسرعت إلى أم المؤمنين عائشة وصارحتها بما كان، ولم تكتم عنها أيضاً سر رسول الله الذي أوصاها بكتمانه.

وتظاهرت حفصة وعائشة على رسول الله، واجترأتا على مغاضبته.

وشاءت إرادة الله أن تبين الحكمة مما حدث، وإذا ما ظنته حفصة تظاهراً على الرسول العظيم، لم يكن غير خير دافق عم المسلمين جميعاً.

لقد ورث العرب في جملة ما ورثوه من تقاليد الجاهلية، يمين التحريم، وتمسكوا به بالرغم من دخولهم الإسلام، لأن الله لم يقرر بشأنه شيئاً ولم ينزل فيه قرآنا للتبيان والتوجيه.

وكان إقدام رسول الله في لحظة من لحظات الرغبة في إرضاء حفصة، على تحريم سريته مارية على نفسه، بعد أن رفعها إلى مصاف الزوجات، تعزيزاً لقوة يمين التحريم، وعدم جبه أو فسخه، وإذا بالحكمة تبين

واضحة، وإذا بالقادر سبحانه يعلم رسوله شيئاً جديداً في التشريع الإسلامي بدد نهائياً قوة يمين التحريم، وخفف من جبروت سلطانه، ويسره أيما تيسير في قوله سبحانه وتعالى:

﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾.

والآية فيها توجيه بعتاب الرسول الكريم، يذكره الله القادر فيه، بأنه قد أحل له مارية القبطية، فكيف يقدم هو على تحريم ما أحله الله له، ليرضي أزواجه، وخاصة حفصة وعائشة.

وسارعت الآيات البينات بعد هذا تكمل بقية التشريع السماوي في قوله تعالى:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾.

وبانت الحكمة العالية، واتضح السر، وأبى الله إلا أن يخرج بمشكلة التحريم من حيزها الخاص برسوله إلى المجال العام، فلم يجعل له وحده تحلة إيمانه صلى الله عليه وسلم، بل رخصة للمسلمين جميعاً، فهو مولاهم، وهو العليم الحكيم.

لقد كانت يمين التحريم قبل هذا، يميناً قاطعة، لا يحل بعدها ما حرّمه الإنسان على نفسه وكانت سلاحاً بتّاراً طالما قضى علي روابط وهدم صلات اجتماعية وثيقة في لحظات عصبية وغضب، فتداركته رحمة الرحمن الرحيم، وخفف من قسوته ورخص فيه وجعل له تحلة، حتى لا يظل سيفا مصلتا فوق الرقاب.

وهكذا رد النبي صلى الله عليه وسلم مارية إلى عصمته، وبقيت كما هي حلالاً له، لأن الله القادر قد أراد هذا وليس للرسول غير أن يعرف ويطيع ولا يقدم بعدها مرة ثانية لا هو ولا غيره من المسلمين على تحريم ما أحله الله له.

وكان هذا هو الشق الأول من المشكلة التي أوجدتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر، وقد قضى الله عليها، ولم يعد لها في المجتمع الإسلامي سلطان ولا وجود، وبقى بعد هذا الشق الثاني من المشكلة وهو ما تفرع من تظاهر حفصة وعائشة على سيدنا رسول الله ومغاضبتهما له صلى

الله عليه وسلم، وفي هذا قال الحق لكل من السيدتين الجليلتين:

﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير﴾.

إذاً.. فقد اطلع الله رسوله، على أسرار الحادث بالتفصيل، ونبأه سبحانه بكل ما كان من أمر اتفاق حفصة وعائشة، فلم يعد لأيهما مناص من الاستغفار وقد وضح كل شيء وضوح النهار وإن الله ليقول لكلتا السيدتين بعد هذا:

﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

وبعد التوجيه السماوي السمح وهو الأمر بالتوبة عما كان وعدم العودة إليه، جاء دور الزجر الرباني لحفصة وعائشة في قوله تعالى:

﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا﴾.

وهكذا، حسم الأمر، وعلم أمهات المؤمنين درساً في الطاعة، حتى لا يعدن لمثلها أبداً...

وكما رخص الله سبحانه وتعالى بعائشة التيمم وبدل الوضوء، وأباح دخول الصلاة به، كذلك رخص بحفصة يمين التحريم، وجعل للمسلمين تحلة إيمانهم.

واستقامت الحياة بعد ذلك، وعرفت نساء محمد فوق ما عرفن، آدابًا وكمالاً وخلالا تحتذى على كر العصور، فكن القدوة، وكن المثل الحسن لجميع المسلمات.

وكان حب عائشة لحفصة معروفاً غير خفي. كما كان حب حفصة لعائشة شديد الوضوح ظاهراً للجميع، وكانت كلتاهما محل ثقة صاحبتها وموضع سرها، ومشيرها المؤتمن.

وقد حدث ورسول الله في مرض موته، أن غشيته غاشية وكان قد حان موعد الصلاة جامعة ورن في مسمعيه صلى الله عليه وسلم صوت بلال يدعو إلى الصلاة، فالتفت إلى عائشة، وهو في بيتها وقال لها:

- مرن أبا بكر فليصل بالناس.

وكان في أمره صلى الله عليه وسلم ما يعني استخلاف، أبى بكر على المسلمين.

ولكن عائشة تلكأت في تنفيذ الأمر، والتفتت إلى حفصة تسألها فيه فأسرعت حفصة تقول:

- أخشى أن يرى الناس أباك في مكان رسول الله فيكرهوه.

وسألت عائشة حفصة:

- وما العمل إذن؟

وعادت حفصة تقول:

- قولي لرسول الله إن أبا بكر رجل رقيق الصوت ضعيفه لن يسمعه المسلمون، فمر عمر ليصلي بالناس.

وهمست عائشة برأي حفصة في أذن رسول الله، فعاد يقول في إصرار:

- مرن أبا بكر فليصل بالناس.

وعادت عائشة تستشير حفصة التي تمسكت برأيها بوجوب أن يؤم عمر المسلمين للصلاة، ودعت كلتاهما بلالا وأمرتاه بذلك.

وأبلغ بلال عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس في مكان رسول الله، وتقدم عمر الجهوري الصوت يردد في قوة وإيمان:

- الله أكبر.

ودوى رنين صوت عمر في مسمعي رسول الله، وانتبه من غشيته، وكبر لديه أن تعصي عائشة وحفصة أمره، ونادى غاضباً.

- أين أبو بكر، أين أبو بكر، إن الله لا يرضى بذلك أبداً، لا يرضى الله بذلك ولا رسوله، أين أبو بكر، مره فليصل بالناس.

ووصل الأمر إلى عمر، فتراجع، وترك مكانه لخليفة رسول الله، وهو كسيف البال، شديد التأثر يقول:

- لم فعلت بي هذا يا بلال.

وعلا صوت أبي بكر الخاشع يكبر، وسمعه رسول الله فأشرق واستنار ثم التفت إلى حفصة وعائشة وقال:

- يا صواحب يوسف، تخفين في أنفسكن غير ما تبدين.

وقبض رسول الله، وسمت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وبدأت

بموته صفحة جديدة في كتاب حياة المسلمين.

وخلف أبو بكر الصديق صاحبه محمداً الأمين، وأصبح خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحامل لواء الجهاد من بعده والأمين على تنفيذ سننه، وأصول دينه.

وواجه أبو بكر أول ما واجه أهل الردة، ووجد نفسه في مركز لو اعتورته وهو فيه أبسط الهزات لكانت النكبة الكبرى، فإذا بالصديق الطيب السمح البكاء الرقيق الصوت يتحول إلى رجل كفاح ونضال مرير، وإذا به رضي الله عنه يسير الجيوش إلى أنحاء الجزيرة العربية لجمع الزكاة وإشعار الخارجين والمرتدين أن الدين قوة، وأن الدعوة عقيدة ثابتة في أعماق النفوس، وأن المسلمين لن ينقلبوا على أعقابهم ويعودوا إلى الجاهلية بعد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وضرب أبو بكر رضي الله عنه على أيدي المرتدين، وكانت لجيوشه مواقع مظفرة عليهم، وعرف رضي الله عنه كيف يقضي على دعوة مسيلمة كذاب اليمامة، ومتنبئها.

ولكن هذه الحروب كلفت المسلمين رجالا لهم القدم الراسخة في الإسلام. فمات منهم ومن أجلاء أصحابه كثيرون، ورأى عمر بن الخطاب أن استشهاد هذا النفر وهم من حفظة القرآن خسارة سيبين أمرها فيما بعد لو مر الأمر دون أن يأبه له أحد، ولم يفكر ولاة الأمور في استدراكه.

والاستدراك هنا هو جمع صحائف القرآن في مصحف واحد، يكون المرجع للجميع، والإمام الهادي للقرّاء في شتى الأمصار التي بدأ الله يفتحها على المسلمين.

وأشار عمر على أبي بكر بجمع القرآن، لأنه مهما طال الأمد بالباقين على الحياة، من حفظة الكتاب، فإنهم لن يكونوا مخلدين، ومن الواجب أن يكون هناك المرجع الثابت الباقي الذي تتوارثه العصور ويرجع إليه الناس في شتى الأزمان.

واقتنع أبو بكر برأي عمر وعهد إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي بأن يجمع أجزاء القرآن من الرقاع التي كتب عليها متفرقاً يوم أنزل على سيدنا رسول الله فقام الرجل بمهمته خير قيام، وجمع الصحف الشريفة

وآياتها من الحفاظ ومن قطع العسب وجريد النخل، واللخاف «الحجارة البيضاء الرقيقة»، ومن صدور الرجال، وراجعها وأعد منها نسخة كاملة أسلمها إلى خليفة رسول الله ليحتفظ بها عنده.

وظلت الصحف لدى أبي بكر طوال خلافته، حتى لقي الله راضياً مرضياً عنه وبويع عمر بالخلافة وصار أميراً للمؤمنين، وانتقلت الصحف إليه فوضعها عند ابنته حفصة أم المؤمنين.

ومرت السنون وعمر في مكان صاحبيه يناضل ويكافح ويسير الجيوش للفتح ونشر راية الإسلام وإعلاء شأن دين الله فتم فتح الشام وفارس ومصر، وأخذت الرقعة الإسلامية تمتد في جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك الوقت، وأيّد الله المسلمين بنصره وتوفيقه وحسن رعايته.

وعاشت أم المؤمنين حفصة خلال فترات الجهاد الإسلامي هذه حياة وادعة هادئة مستقرة في بيتها كما أمرها الله، بعيدة عن مجال الحياة اليومية للمسلمين لا تعرف غير شئون دينها وتعبّدها، ولا تعرف من أمور دنياها غير التخلف لماما إلى بيت أبيها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لزيارته أو الاطمئنان عليه.

واجترأ الكلب المجوسي أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ذات صباح مبكر فعقر عمر بن الخطاب أطول المسلمين باعا، وأنقاهم سريرة، وأعظمهم عدلا، وكانت الطعنة قوية نافذة صار يتوجع منها عمر رضي الله عنه ويئن، وزارته ابنته أم المؤمنين حفصة وأقبلت عليه مواسية تخفف عنه ما يكابده من مواجع وجراح وتقول له في مسارة هامسة حنون:

«أي أبت.. ما يحزنك وفادتك على رب رحيم ولا تبعة لأحد عندك، ومعي لك بشارة لا أذيع السر مرتين، ونعم الشفيع لك العدل، لم تخف على الله عز وجل خشنة عيشتك، وعفاف نهمتك، وأخذك بأكظام المشركين والمفسدين في الأرض».

وارتاح عمر رضي الله عنه إلى جميل مواساة ابنته الكريمة أم المؤمنين حفصة، وكان يعرف أنه لابد ملاق ربه، فالجرح خطير والطعنة رهيبة والنفس تتساقط يوماً بعد يوم!!

ولقي ابن الخطاب ربه.. ولحق بصاحبيه العظيمين، ونام إلى جوارهما.

وبكت حفصة أباها بأحر ما تبكي به بنت والدها.. فقالت:

«الحمد لله الذي لا نظير له، والفرد الذي لا شريك له.. أما بعد - فكل العجب من قوم زين الشيطان أفعالهم وارعوى إلى صنيعهم ورب في الفتنة لهم ونصب حبائله لختلهم، حتى هم عدو الله بإحياء البدعة ونبش الفتنة وتجديد الجور بعد دروسه، وإظهاره بعد دثوره وإراقة الدماء وإباحة الحمى وانتهاك محارم الله عزوجل بعد تحصينها، فاضرى وهاج وتوغر وثار غضبا لله ونصرة لدين الله، فاخسأ الشيطان، ووقم كيده وكفف إرادته وقدع محنته وأصعر خده لسبقه إلى مشايعة أولى الناس بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم الماضي على سننه، المقتدي بدينه، المقتص لأثره، فلم يزل سراجه زاهراً وضوؤه لامعاً، ونوره ساطعاً، له من الأفعال الغرر ومن الآراء المصاص ومن التقدم في طاعة الله اللباب إلى أن قبضه الله إليه قاليا للدنيا إذ عرفها، لافظا لها إذ عجمها، وشانيا لها إذ سبرها، عركها بالعزم الشديد حتى أجابت بالرأي الجليد، فأقام بها دعائم الإسلام وقواعد السنة الجارية ورواسي الآثار الماضية واعلام أخبار النبوّة الطاهرة حتى دعي فأجاب ونودي فأطاع.

ثم راحت تقول:

اكظم الغلة المخالطة القلـ

ـب أعزى وفي القرآن عزائي

لم تكن بغتة وفاتك وجدا

إن ميعاد من ترى للفناء

وعادت حفصة بعد ذلك إلى حياة العزلة والتعبّد..

وبويع عثمان بالخلافة...

كانت رقعة العالم الإسلامي قد امتدت وكان المسلمون قد عظم شأنهم، وتكاثر عديدهم، وتعددت لهجاتهم، واختلطت ألسنتهم، وظهرت لهجة محلية على لهجة، وعلا شأن قوم على قوم وراحت قراءات متعددة شتى لكتاب الله في كل مصر من الأمصار.

وانتبه عثمان رضي الله عنه إلى ما يمكن أن يسفر عنه الاختلاف في قراءة كلام الله، وأسرع ليتدارك الأمر، فأمر بأن ينسخ مصحف أبي بكر الموجود عند حفصة بنت عمر.

وكان زيد بن ثابت مرة أخرى على رأس القائمين بذلك فطلب المصحف من حفصة وأسلمته إياه، وبدأ الكاتبون أعمالهم فكان المرجع والملاذ والقدوة للمصاحف التي أرسلت إلى الأمصار.

ولحق عثمان بربه بعد هذا شهيداً، وبويع مكانه علي بن أبي طالب، وما أسرع ما هبت رياح الفتنة بين المسلمين، وتفرقت أمورهم وأسفاه، وخرجت عائشة رضي الله عنها على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وطالبت بدم عثمان.

وتراجعت أمهات المؤمنين، وخشين مغبة الفتنة، ولم تقف مع عائشة في خروجها غير صاحبتها حفصة بنت عمر، فصحبتها وهي خارجة بالناس لجهاد «علي» ونقض بيعته، ولم تكد حفصة تبلغ مشارف المدينة حتى لحق بها أخوها عبدالله وأرجعها إلى بيتها الذي أمرها الله أن تقر فيه.

وهكذا.. وعند هذه النهاية، افترقت حفصة برغمها عن عائشة التي كان من أمرها مع «علي» ما كان، ثم عادتا لتتلاقيا من جديد بعد أن هدأت الفتنة.

وشهدت حفصة خلافة معاوية... ثم.. حان الحين عام ٥٤ من الهجرة، ولقيت ربها راضية مرضيا عنها، طاهرة الصفحة، نقية النقيبة، وصلى عليها مروان بن الحكم وإلى المدينة، وصلى معه أبو هريرة ثم دفنت بالبقيع وعمرها وقتذاك بضعة وستون عاماً.

ذات الهجرتين *

حلوة ريانة، متفتحة، عبقة الشذى، طاهرة الأريج كزهرة الأقحوان لنضـــرة، شـــقت طريقها في قلـــب الصخر، وســـخرت بالجدب الرهيـــب، وتعالى عودها، مياســـا رطبا، تلك كانت «هنـــد بنت أبي أمية سهيل بن المغيرة بن مخزوم» الذي أسماه قومه من سادات قريش «سهيل زاد الركب» لجوده الفائق وكرمه الشديد، وبرّه ونداه.

ولقد عبّق أريج الزهرة الندية، ربى قريش، وحملت النســـائم طيبه إلى كل بيت وناد، فتطاولت الأعناق مشـــوقة متطلعة، وهفت القلوب مشتوقة متمنية، وتطلعت العيون في فضول ولهفة، وحوّمت الأرواح حول بيت أبي أمية ولكها ترجو لو يقبل أن يســـعدها ويرضى بـــأن تكون هند صاحبة العمر، وشريكة الحياة.

وكانت الصبية الســـاذجة ذات الحســـن البارع والأصل العريق، تخطو أولى خطواتها المشبوبة نحو الصبا الريق، غريرة مرحة، ساذجة، لا تقيم للدنيا وزنا ولا تشـــعر بأعباء الحياة، ولم يكن يدور بخلدها، إن أكثر من يد متلهفة كانت تدق باب بيت أبيها، تسأله أن يجود عليها بهند السعيدة، لتضفي من ســـعادتها وصباها على من ســـوف تكون من حظه كل سعادة وهناء.

كانت هنـــد في عمر الورد النضـــر، على أوراقه الريانـــة تتألق أنداء الفجر كحبات اللؤلؤ المضيئة الغالية، وكانت الحياة تبدو في عينيها ربيعا

* العربي - العدد ٩٩ - فبراير ١٩٦٧م

دائما مونق الخضرة ندى الأزاهير رخي النسمات، أحست وهي تعيش في روضه كأنما هي طيف من طيوف المرح العبق أوأغنية عذبة يشدوها أرغن في الليل نشوان.

ولقد عزّ على أبيها أن يحسده قومه عليها، وأرضى نفسه أن تتسارع جموع شبابهم نحوه تطلبها منه. ولكنه حار ماذا يصنع؟ وأيهم يرد، وأيهم يقبل ويجود عليه بالحسب والنسب والجمال والأصل العريق!!

ولم تطل بالأب حيرته، إذ وجد في عبدالله بن عبدالأسد خير زوج للشابة المحظوظة فارتضاه لها وزوّجها منه، وانتقلت من بيت أبيها إلى بيته الرفيع العماد، لتبدأ حياتها الزوجية السعيدة الموفقة في كنف شاب مخلص، مجد، أمين، كان العمل على إسعادها أغلى أمانيه.

ومرّت الحياة بالعروسين هانئة، هادئة، رضية، حتى شاء الله أن يقوى أواصرها، ويدعم روابطها، فرزق الزوجين الشابين أولى بناتهما سلمة الغالية، التي بلغ من حب أبويها لها وإعزازهما إياها، أن تكنّيا باسمها السعيد فأصبح عبدالله بن عبدالأسد أبا سلمة، ولم يعد لهند من اسم غير أم سلمة.

واستمرت الحياة في مسيرها الرتيب الذي عرفته مكة، ضجة وحياة وعمل في موسم الحجيج، ثم صمت وموات يخيمان على الدور، ويفسحان في المنتديات والسوامر، كل مكان لكل لهو ومفاسد وشرور وآثام.

لقد كان مجتمع قريش مجتمعاً منحلاً، شديد الفساد، بينه وبين الفضائل تنافر وخصام رهيبان.

وعلى الرغم من كرم الرجال وجودهم ونداهم، ومسارعتهم إلى النجدة والغوث وتسابقهم نحو المكرمات، فقد كانوا سادرين في غيهم وضلالهم، لا عرف ولا دين، ولا توقير للعبادات بل إباحة لكل خطيئة وترحيب بكل إثم، وتفاخر بعد هذا بارتكاب الدنايا والشرور.

مجتمع ظالم، ما أسرع ما يلتهم قويه الضعيف فيأتي عليه.

مجتمع لا روابط كريمة تربط بين أهليه، غير روابط الرذيلة وممارسة الفسوق والعصيان.

مجتمع عاش بالشر، وتغذى بالفساد، وارتكس في حمأة الخطيئة، وتفتحت أبوابه للفسق والمجون والآثام!!

مجتمع جـاور بيت الله العتيـق، فجعل منه معـرض أصنام وحجارة شوهاء، بلغ من سـفاهة الناس وجهلهم، أن سعوا إليها حاجين، وأقاموا لها مواسـم وأعيادا، وأفراحا وسوامر كانت تهرق فيها دماء كل فضيلة، ويباح كل محظور، حتى العرض والشرف اللذان يفتديان بالأرواح.

مجتمع ران عليه البغي وتحكّم الشيطان.

فمرت به مواكب الأعوام، وما صحا، أو فكر في الاستيقاظ، من حمأة الإثم والبغي، لينظر حواليه، فيرى مشارق الأنوار.

مجتمـع نام كعادته ذات ليلة في حمأة التردي ليسـتيقظ مع الصباح، وقـد أخذته القارعـة، وهزت جوانبه صيحة الحق، وهـدم باطل أهليه صوت رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وقد وقف على نشـز من الأرض يكبر ويكبر وينادي باسـم الله الحق الذي لا إله إلا هو وحده بلا شـريك ولا ولد، ويقول لمن تجمعوا حواليه إنه هو رسـول الله إليهم جميعاً يدعوهم إلى نبذ الشـرك وإلى الكفران بالصنم وعبادة الله الواحد الذي لا إله غيـره، يحيي ويميت، فالق الإصباح مصرف الرياح، خالق الليل والنهار، تفرد وتعالى، وهو على كل شيء قدير.

وصاحت قريـش صيحة الدهشـة والعجب، وضجـت ضجة الحقد والكراهيـة، وزمجـرت فـي وعيد وتوعـد، وفقد أهلوها جـادة الحلم والصواب، وغشـيهم الذهـول، فتراجع العقلاء في ذعر وراح السـفهاء يسـخرون. وانقسم المجتمع المكي على نفسـه، وبدأت دعوة الحق تأخذ مكاناً في أعمال القلوب.

وأسـرع أبو سـلمة إلى داره وقد أخذ منه الذهول والعجب كل مأخذ، وراح يقص على مسامع زوجته المتلهفة النبأ العظيم الذي سمع به كل من في قريش من سادة وعبيد.

وأنصتت هند في ذهول اسـتحال دهشـة لم تلبث أن أصبحت تساؤلا وعجبا.

إنها لتكاد تستشـف الصدق فيما سـمعت وإنها لتـرى فيه الخير كل الخيـر والصدق كل الصدق، وإنهـا لتحس في أعماقها ثورة على تقاليد القـوم وعباداتهم العديدة، وما توحي به هذه الأرباب من رذائل وموبقات لا يمكن أن يوحي بها دين أو يأمر بها إله.

وشـــعرت هند بالفرحـــة تغمر قلبها، ومواكب النـــور تتقدم فيه لتطرد حشود الظلمات، واهتز قلبها بالبشر وراحت تصغي ثم تسأل وتستفسر، وقد تفتح القلب للدعوة تفتـــح أكمام الوردة للندى الطاهر الذي أيقظها لتسعد بموكب الصباح وتشهد الحياة تدب في الأكوان.

وارتاحت أم سلمة عن يقين إلى دعوة محمد، وقد استقرت في أعماق وجدانها، فإذا هي تشهد عن اقتناع بأنه لا إله إلا الله حقا، وأن الصادق محمد هو رســـول اللـــه صدقـــا، وأن كل عبادة تدين بهـــا قريش باطلة ولا شـــك، وأنه من العار أن يستذل البشـــر عقولهم وأفهامهم ويسجدوا للحجـــر ويســـألوا الصنـــم أن يمنحهم الخيـــر وأن يدفـــع عنهم المحن والشرور!

وهكذا آمنت أم ســـلمة هند، وكذلك آمن زوجها أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد. ثم هاهما يتركان دارهما ويذهبان إلى محمد لمبايعته وإعلان إســـلامهما بين يديـــه، وطلب نصحه وإرشـــاده وهدايتهما إلى مزيد من الدين.

وعادت أم سلمة وزوجها، وقد ازدادا هدى وإيمانا، واستمساكاً بدعوة محمد رسول الله.

وكتبا بذلك لأنفســـهما فضل السبق إلى دين الله الحق فكانا من أوائل المسلمين.

وسارت الدعوة السمحاء بعد ذلك في طريقها، وراح سيدنا رسول الله يجاهد في الله حق جهاده، ويدعو إلى دينه الحق، مسفهاً أحلام قريش، ســـاخراً من أربابها العاجزة، لا يمر اليوم حتى يعجزها بآية، أو يسكتها ببيان يقوي من يقين القلة القوية التي اتبعته صلى الله عليه وسلم ويثبت من إيمانها العميق بالله الواحد القهار.

وكبر في عيني الســـفهاء أن يقفوا مـــن محمد ودعوته موقف المجادلة دون أن يقدموا على عمل حاســـم يحد من ســـطوة هـــذه الدعوة القوية، ويرهب من يتابعون محمداً على دينه ويحول دونهم والانضمام إليه، وفي الوقت نفسه يفض عنه من التفوا، حوله وآمنوا برسالته.

ورأت قريش أن خير ما تحمي به مجتمعها المنحل المنهار، هو أن تهاجم الداعية العظيم، وتقف في وجه دعوته بالرهبوت والطغيان ليعتز باطلها

وتعلو رايته ويقل شأن المسلمين.

وبـدأت فترة الصراع الظالـم، والبطش المقيت، وعـدا العادون على القلة المؤمنة المستمسـكة بإيمانها، فلم يزدها العادون على القلة المؤمنة المستمسـكة بإيمانها، فلـم يزدها العدوان إلا إيماناً وسـخرت بالعذاب الباطش الشديد.

وأغضب السفهاء وأحنقهم أن جبروتهم لم يأت بثمرته المرجوة، فراحوا يمارسون ألواناً أخرى من العذاب في المسلمين.

كان المسلمون يومذاك فئتين، الرقيق، والأحرار.

وراحت قريش تعذب الرقيق أقسـى عذاب. وهم على إيمانهم ثابتون، بـل إن بعضهـم لقي حتفه واستشـهد وهو مستمسـك بدينه طامع في رضوان الله.

لقد عجـزت قريش أمام يقين الرقيق، وذهلـت وجن جنونها، وكذلك عجزت أمام الأحرار من السادة أصحاب العصبيات، وعز عليها أن تقف عاجزة، حائرة، أمام هؤلاء وهؤلاء فراحت تتشاور وتدبر وتتقارب رءوس سفهائها للقيام بعمل حاسم جريء.

ورأى محمـد المبعوث بالهدى والرحمة والحنـان وهو الذي جعله الله حريصا على من اتبعوه رءوفاً بالمؤمنين، رأى صلى الله عليه وسـلم أمام رهبة التحدي المكي، وقسـوة الإيذاء أن يطلب من المسـلمين أن يهاجروا بدينهم حتى يأذن الله بالنصر الذي وعدهم به.

وهكـذا خرجت فئات من المسـلمين تاركـة وراءها مكـة وما حوت، مهاجرين إلى الحبشـة. وفي حشود المهاجرين خرج أبوسلمة مع زوجته أم سـلمة فكانت تلك هجرتها الأولى إلى بلاد النجاشي ناجية بعقيدتها ونفسها من إيذاء طغاة قريش.

وثـار المجتمع العابث ثورة عارمة على محمد العظيم، وقد رأى إلى أي ذروة من القوة بلغت دعوته، وإلى أي مدى استمسك بها المسلمون، وكيف هانت في سبيلها الوشائج والصلات بل.. والوطن أيضا.

لقـد كانوا فـي قريش يصدقون كل شـيء، إلا أن تهون مكة لدى أعز أبنائهـا وبناتها، ويتركوها عن رضى واطمئنـان، ولا يتركوا دعوة محمد ولا يكفروا بدينه، ويعودوا إلى باحة هبل واللات والعزى ومناة.

لقد تصدع المجتمع وإنه لموشك أن يتهاوى وينهار، فماذا تبقى للقوم لضمان بقائه وحمايته، وها هم أولاد صفوة الأهل يخرجون مهاجرين.

وران الأسى على المجتمع المنحل العابث، وأقفرت الدور من أعز الأهل وأخلص الأحباب، وارتد كيد قريش إلى نحورها واعتزت دعوة محمد وتزايدت قوة ومنعة وجاها.

ومرت الأيام وتتابعت الشهور والذعر في قريش يتزايد، وحنين الأهل إلى الغائبين منهم يتضاعف ويعظم حتى أمسوا ولا حديث لهم إلا الرغبة في عودة المهاجرين.

وبعثت قريش سفراءها إلى بلاط النجاشي يطلبون إعادة المهاجرين، ولكن الحاكم الطيب السمح أبى أن يعيدهم، وأبقاهم في رعايته وبعد أن سألهم عن أمرهم قال: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، فوالله لا أسلمهم إلى أيدي الاضطهاد» (ابن هشام ص٧١٢). وفشلت سفارة قريش وعاد رسلها بالخيبة والفشل اللذين كان لهما صدى، ودوى رهيب في المجتمع المتصدع المنهار!!

وسار ركب الحوادث قدما، ومرت مواكب الأيام، وعاد إلى قريش بعض المهاجرين، وعاد فيهم أبو سلمة وأم سلمة، وقد ظنوا أن حنين الأهل لهم، وتشوقهم إلى عودتهم سيحول دونهم ومعاودة الإيذاء والترصد والتعذيب، ولكن قريشا كانت هي هي.. وكان سفهاؤها هم هم، على عهدهم القديم.. ضراوة ووحشية، وكراهية مقيتة لمحمد وكل من تابعوه.

وخلال هذه الفترات الدقيقة من تاريخ الجهاد الديني في سبيل دين الله، كان أهل يثرب قد تسامعوا بالدين القيّم، وأصغوا إلى دعوة الحق، وجاء وفدهم في موسم الحجيج إلى مكة، وتلاقوا مع سيدنا رسول الله، وآمنوا بدينه، وبايعوه على السمع والطاعة والإسلام، وأن يكونوا دعاة إلى الإسلام حيث هم.

ولقد طالب اليثربيون محمداً بالهجرة إليهم ساعة بايعوه، ولكنه طالبهم بالتريث والصبر حتى يأذن الله بما يريد.

وعاد اليثربيون إلى بلادهم، ولحق بهم «مصعب بن عمير» سفير محمد ليعلمهم الدين ويفقههم فيه، ويقرئهم القرآن.

وعظم شأن الدعوة في يثرب، وتكاثر المسلمون هناك، ونجح مصعب

بن عمير في هداية القوم إلى الإسلام، حتى اعتز شأن المسلمين هناك، وأصبحوا قوة يعتد بها وأصبحت يثرب موئلا للدعوة وملاذاً وحمى لمن يريد الهجرة إليها من المسلمين.

وزاد حقد قريش على محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين وقد عظم شأنهم في أرض جديدة، وعادوا إلى التربص والإيذاء والبطش بالمسلمين.

ومرة أخرى طلب الرسول الكريم ممن تابعوه أن يهاجروا إلى مدينة يثرب حيث بدأ يسطع نجم الإسلام، ويعظم شأن المسلمين، وحيث المنعة والحمى في رعاية إخوتهم في الله والدين.

وبدأت جموع من المسلمين تترك مكة مهاجرة إلى المدينة، وهاجرت أم سلمة هجرتها الثانية في سبيل الله.

ومرة أخرى تركت المسلمة المجاهدة الصابرة الديار والأهل والأحبة، ورحلت ليستقر بها المطاف في يثرب، فكانت بهذا أول ظعينة مسلمة تدخل المدينة مهاجرة من مكة، وفازت بقصب السبق الأول إلى التضحية في سبيل العقيدة وسميت عن جدارة «ذات الهجرتين».

وعاشت أم سلمة في المدينة قريرة هانئة، وطابت لها الحياة هناك، وألفت المجتمع المدني، ولم تقصّر في مخالطة أخواتها من مسلمات يثرب، فعاشت بينهن كواحدة منهن، وكانت لديهن حبيبة أثيرة، طيبة المعشر، لطيفة الجوار، ذات عقل راجح، وبديهة حاضرة، ورأى صائب.

ومرت الأحداث تباعاً، وبدأ ميزان الأحداث يميل في مصلحة المسلمين وواتتهم الريح رخاء.

وهاجر محمد إلى مدينته حمى دعوته، وكبّر المسلمون وهللوا وحمدوا الله، إذ كان انتقال المهاجر العظيم إلى يثرب نقطة التحول الكبرى في الدعوة العظيمة، فخرجت من محيط الجهاد السلمي إلى ميدان الجهاد العملي، الذي فرض على أصحابه تقاليد جديدة من تقاليد الكفاح.

وتربص المسلمون بالكفار، وبدأوا يخرجون إليهم في سرايا استطلاعية لتقصي أخبارهم، وقطع السبيل على تجارتهم، وكأنما كان محمد بهذا يمهد لموقعة كبرى فاصلة يرى كفار قريش فيها كيف أعز الله الدعوة بالمسلمين!

وأحست أم سلمة بأنه لابد وأن يكون وراء هذا الخروج الجريء ما وراءه، وأن الغد المرجو لابد وأن يشرق على مفاجآت لم تكن في الحسبان، وألهمها عقلها الراجح أن تسرّ إلى أبي سلمة زوجها بما جرى إليه الفكر، وما تصورته من غد مشرق باسم المؤمنين، وطلبت إليه أن يسهم مع المجاهدين في جهادهم ليكون له فخر السبق في ميدان الجهاد أو... الاستشهاد الأعظم في سبيل نصرة دين الله، فيكتب له أجر الصدّيقين! واستجاب أبوسلمة لداعية الجهاد، وخرج قوي القلب، ثابت الوجدان، ليتصدى لقريش ويروعها ويرعب سفهاءها ويزرع الخوف في أعماق قلوبهم أجمعين، ليعرفوا أن الإسلام قوة،وأن الله لا بد وأن ينصر الحق ويخذل الظالمين.

وحقق المسلمون وفيهم أبو سلمة نصراً بعده نصر، وحبب الله إليهم الجهاد، وأقرّ به عيونهم، فأسرعوا يتسابقون إلى ميدانه، ليعودوا منه بزاد وافر من الأمجاد يتحدثون به في سوامرهم وفي عقور ديارهم.

وأسعد أم سلمة المجاهدة أن ينال زوجها الباسل هذه المكانة، وأن يكتب له في صحائف النضال الشاق، هذه الأمجاد العظيمة الباهرة، وراحت في غمرة إعجابها به تتصور الغد، وقد اتسعت رقعة النضال واستطارت شرارته، وتعالت ألسنة نيرانه، وقد ركبت قريش العابثة رأسها وخرجت في خيلها وخيلائها تحاول الرد على المسلمين بأسلوب الحرب والقتال.

ولقد حدث هذا فعلا، وكانت موقعة بدر الكبرى ذات الدوي الأعظم والأثر الكبير الواضح في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذ أيد الله عباده بنصره، وأمدهم بجنود لم يروها، وكتب سبحانه وتعالى للفئة القليلة المؤمنة النصر على الفئة الكثيرة الباغية.. وعادت قريش كسيرة مهزومة، بعد أن فقدت القادة والسادة، وخسرت الأمجاد والصيت العريض، لتفكر في فداء أسراها، والإذعان لأمر محمد فيهم.

وعاد المسلمون إلى المدينة، يكبرون ويهللون ويحمدون الله على نعمة النصر،وعاد معهم جرحاهم ممن كان لهم في الجهاد شأن أي شأن وفيهم أبو سلمة الذي أصيب في «بدر» بعديد من الجراح كانت دليل شجاعته، وبرهان مقدرته على خوض غمار الحرب في قوة ومقدرة

واعتداد.

وقامت ذات الهجرتين أم سلمة على رعاية زوجها وتمريضه وتضميد جراحه حتى شفي منها،وقد امتلأ بروح جديد، وعزيمة وثابة جعلته يسرع إلى الصف من جديد مجاهداً في سبيل نصرة دين الله.

وكانت موقعة «أحد» الرهيبة، ودارت رحاها بما روّع وأذهل وأثار الرعب، ومال ميزانها مرة في صف المسلمين وأخرى في جانب قريش.

ومشى الخوف في القلوب، وبلغت الأرواح الحناجر، وانتشرت الشائعات المخيفة ولولا ثبات طائفة من المسلمين إلى جانب سيدنا رسول الله وفيهم أبو سلمة الشجاع لتغير يومها وجه التاريخ.

وعاد المسلمون من «أحد» وراية النصر ترفرف فوقهم، عادوا وهم يذكرون الوغى وأبطال اللقاء أولئك الذين جادوا بالروح ليحموا سيدنا رسول الله، ويردوا كيد أعداء المسلمين، ويتشبثوا بالنصر حتى أتمه عليهم الله.

وقد أبت «أحد» في معمعان رهبوتها إلا أن تترك في جسد أبي سلمة آثار بطولة لا تمحى تشهد بثباته وعزيمته، ومدى ما قام به في حومة الصراع من كرّ وثبات.

لقد كانت جراحا خطرة، نافذة لولا حنان أم سلمة ومقدرتها على التمريض لقضت على المجاهد الباسل الذي لم يكد يشفى منها، حتى عاد ليتصدر صفوف المجاهدين ويقود السرايا المظفرة التي وجهها رسول الله إلى القبائل المجاورة ليثبت لها بعد «أحد» أن المسلمين قوة مازالت في العنفوان وأنها قادرة على إحراز النصر وخوض المعارك كل المعارك من جديد.

وعقد سيدنا رسول الله لأبي سلمة لواء السرية التي خرجت لتأديب بني أسد، وكان تحت إمرته فيها بعض كبار قادة المسلمين أمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حضير.

وسار أبو سلمة على رأس السرية إلى مواطن النصر فحقق غايته وغاية المسلمين، وأعاد لهم سابق هيبتهم، ورجع بالغنائم والأسلاب، وكان الإرهاق قد بلغ منه مبلغه، وتفجرت بعض جراحه القديمة، فلحقه الضنى، وعدت عليه عوادي انتكاس الجرح، واشتدت به العلة، وعز

الدواء، وأخذت المنية تطوف بالبيت السعيد، وتقترب من المجاهد العظيم الذي كان يسلم الروح وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانبه يواسيه ويثبت وجدانه ويبشره بالجنة والرضوان.

ومات أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد شهيداً، راضياً مرضياً عنه، وترك وراءه السيرة العطرة الباقية، وقصة البطولة المجيدة، والثبات الأكيد على المبدأ، والاستهانة بالروح والوطن والأهل والأحبة في سبيل الله.

مات أبو سلمة، وترك وراءه أرملته ذات الهجرتين أم سلمة، المجاهدة ثابتة الإيمان الراجحة العقل، الحسنة الترتيب، تركها وصغاره لرعاية الله.

وعادت الحياة تسير سيرتها في مدينة رسول الله، ومرت الشهور، واندملت بعض جراح ذات الهجرتين، فتقدم لخطبتها أبوبكر الصديق فردته رداً جميلاً.

ومرت شهور أخرى وحاول عمر بن الخطاب المحاولة نفسها، فتقدم لخطبتها فردته أيضا هو الآخر.

وسمع سيدنا رسول الله بما حدث من أمر ذات الهجرتين، فذهب إليها مواسياً في مصابها، متفقداً أمورها، وقال لها صلى الله عليه وسلم:

- يا أم سلمة، سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك، ويخلفك خيراً.

وزفرت ذات الهجرتين عن كبد حرى ثم بكت وقد راحت مع سيل الدمع المنهمر تذكر عمرا تولّى بأحداثه وذكرياته الوضيئة الغالية!!

عادت ذات الهجرتين إلى شبابها الأول وأيامه، ثم إلى يوم تزوجت من أبي سلمة السمح البطل المؤمن، الذي فتح الله قلبه للإيمان، كما فتح قلبها فأخلصا للعقيدة وضحيّا معاً في سبيلها ومن أجلها، وهاجرا الهجرتين معاً من أجلها حتى شاء الله لهما أن يستقرا في المدينة المنورة، فكانت الحياة الرغدة، وكانت حلاوة الكفاح وروعة النضال، وعظم الدور الذي قام به الزوج الشهيد حتى اختاره الله إلى جواره.

وهدأت هند قليلا، ثم توقفت أمام مواساة رسول الله الكريم، وهو يقول لها:

- سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيراً.

ووجدت نفسها تقول في ثبات وهدوء لرسول الله:

- ومن يكون خيرا من أبي سلمة يا رسول الله؟

وأمّن محمد على قول ذات الهجرتين.

وسكت طويلاً أمام هذا الإجلال الرائع لذكرى الراحل العزيز وكأنما كان صلى الله عليه وسلم يخاطب نفسه هو الآخر مردداً قول هند أم سلمة:

- ومن يكون خيراً من أبي سلمة يا رسول الله؟

أجل.. من يكون خيراً من أبي سلمة.. رجل آمن عن عقيدة، وثبت على دينه، وهاجر، وتحمل إيذاء قريش وقاسى لوعة فراق الوطن والأهل والأحبة. ثم جاهد وحارب، وشهد «بدراً» وثبت في «أحد» وناضل وكافح وقاد السرايا وحقق النصر للمسلمين، ثم مات شهيداً ولقي ربه راضيا مرضيا عنه؟!

رجل، هذه صفحته، وقصة حياته، من يكون خيراً منه؟!

وكان من عادة العرب أنه إذا مات سيد منهم أسرع السادات من أترابه إلى بيته يواسون أهله ويتقدم أقربهم مرتبة من المتوفى فيطلب يد زوجته ويضمها إلى بيته، لا لسب إلا لحماية أهله وتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم ولمن تركهم من بعده.

ومرت أيام، وشاء الله القادر أن يكرم ذات الهجرتين، وأن يعوضها عن أبي سلمة الطاهر النقي، الأبيض الصفحة، فأمر رسوله أن يتقدم لخطبة هند ويلحقها بنسائه ويرفعها إلى مراتب أمهات المؤمنين.

وأرسل محمد إلى ذات الهجرتين، رسولاً يخطبها هو حاطب بن بلتعة، فلقيته هند أحر لقاء وأعزه وقالت له:

- مرحبا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن رغبته لأمر مطاع ولكن.. عد إليه وأبلغه عني أني امرأة مسنة، وأم أيتام، وأكثر من هذا، فأنا شديدة الغيرة، وليس لي شاهد من أوليائي.

وعاد إليها حاطب بعد ذلك يقول لها: إن محمداً صلى الله عليه وسلم يبلغها أنها إن كانت مسنة، فهو أسنّ منها ولا يعاب على المرء أن يقال تزوج أسنّ منه، وأما أنها أم أيتام فالله تعالى سيكفيها أيتامها، وأما عن غيرتها فسوف يسأل الله أن يذهبها عنها، أما الأولياء الشهود، فإن

حاضرهم وغائبهم سيرضى أن تكون زوجة لرسول الله.

وكانت رضي الله عنها، ذات عقل ورأى.

وكانت أثيرة محببة عند رسول الله، قسم لها كسائر نسائه، وعاشت مع أخواتها أمهات المؤمنين أطيب وأهدأ حياة.

وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف في ذات الهجرتين أم المؤمنين أم سلمة العقل الراجح والرأي السديد وسرعة التفكير، والاهتداء إلى أسلم الحلول والخواتيم.

ولقد صحبت ذات الهجرتين سيدنا رسول الله في كثير من غزواته، وكانت معه صلى الله عليه وسلم وسلم يوم «الحديبية» وقد تلبدت الخواطر بعد أن تم صلح النبي مع كفار مكة، وظهور رغبته في المسالمة والتسليم بما أصر عليه القرشيون، حتى لقد غضب بعض المسلمين، فلما أتم عليه الصلاة والسلام كتاب التحالف قال للمسلمين:

- قوموا فانحروا ثم احلقوا..

وكانت دهشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمة، إذ بقي المسلمون حيث كانوا في أماكنهم ولم يقم أحد منهم طاعة وتلبية لأمر رسول الله الذي كرر أمره ثلاث مرات، دخل بعدها خيمة أم سلمة وذكر لها ما كان من أمر المسلمين.

وأصغت ذات الهجرتين طويلاً إلى حديث زوجها العظيم، ثم رفعت رأسها وقالت له صلى الله عليه وسلم: يارسول الله .. اخرج ولاتكلم أحداً من المسلمين كلمة واحدة، حتى تنحر هديك وتدعو حالقك فيحلقك.

وارتاح النبي صلى الله عليه وسلم إلى رأي ذات الهجرتين، وأسرع فترك الخيمة خارجا فنحر ذبيحته ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى المسلمون ذلك أسرعوا بالقيام فنحروا ذبائحهم وأقبل بعضهم على البعض الآخر يحلق له وكلهم يضمر غما لأنهم لم يلبوا أمر النبي ساعة أمرهم ولم يسارعوا إلى طاعته فور ذلك الأمر.

وعاشت ذات الهجرتين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت خلافتي أبي بكر وعمر، وحضرت خلافة عثمان، وراعها ما ساد الناس في عهده من قلق وتربص وانصراف عنه وتآمر عليه ورغبة في الخروج

والانقضاض على خلافته، وعز عليها أن يحدث ذلك وأن يتقرق أمر المسلمين ويثوروا على أميرهم ذي النورين عثمان، فخرجت رضي الله عنها من عزلتها لتجاهد من جديد، وتقدم ما عليها من حق الأمومة لعثمان والمسلمين، وكانت لا تملك وقتها أكثر من النصيحة فتوجهت بها إلى أمير المؤمنين قائلة:

«يا بُنيّ. مالي أرى رعيتك عنك نافرين، وعن جناحك ناقرين، لا تعف طريقا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها، ولا تقتدح ما كان عليه السلام أكباه.. وتوخ حيث توخ صاحباك فإنهما ثكما الأمر ثكما ولم يظلما، هذا حق أمومتي قضيته إليك وإن عليك حق الطاعة».

ولكن شاء الله، أن تتسع هوة الخلاف أيام عثمان، وأن تثور عليه الرعية، فأقدم المسلمون على الفتك به خلال الفتنة الكبرى، فذهب مبكيا عليه، تاركا وراءه صدعا رهيبا في صفوف المسلمين، راحوا ولسنين طويلة يحاولون رتقه عبثا، فكان خروج وتمرد وعصيان وإبدال وتغيير في أداة الحكم.

ولقد حدث بعد مقتل عثمان رضي الله عنه أن دخل رجل من بني تميم على أم المؤمنين أم سلمة فسألها عن عثمان بن عفان فقالت:

- شكا الناس منه ظلامة فاستتابوه فتاب وأناب، حتى إذا صيروه كالثوب الأبيض من الدنس عمدوا إليه فقتلوه.

وذات الهجرتين رضي الله عنها كانت صادقة الفراسة بعيدة النظرة حين تدخلت بين عثمان ورعيته وقدمت النصح إلى أمير المؤمنين، حتى يعمل على تلافي الغضب ورتق الخرق قبل أن يتسع، وإن حكمتها في التدخل لتبين بعد ذلك، فقد انشق المسلمون على أنفسهم، وأنكرت فئة بيعة «علي بن أبي طالب» وخرجوا عليه، ومعهم أم المؤمنين عائشة تطالب وهم معها يطالبون بدم عثمان بن عفان.

وكانت ذات الهجرتين هي الوحيدة بين أمهات المؤمنين جميعاً، التي خرجت على العزلة والصمت واعترضت على عائشة لخروجها على أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» ومشايعتها للخارجين على سلطانه، وتوجهت إليها بالنصيحة حتى لا يتسع الصدع وتعظم المصيبة ويتفرق المسلمون وتباح دماؤهم، ولكن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لم تأخذ بنصيحة

ذات الهجرتين واستمرت في طريق أصرت على أن تسلكه.

وشـــهدت أم المؤمنين أم سلمة مغرب شمس الخلافة الراشدة بعد قتل علي، وتولي معاوية ابن أبي سفيان وكيف أنه أمر بلعن علي ومن يحبونه على المنابر.

وعز ذلك على ذات الهجرتين وكبر في عينيها أن يصل الأمر بالمسلمين إلى هذا الحد، وأن يتناســى حكامهم في ســبيل شــهوة الحكم، قداسة الروابــط، ويتغافلوا عن أقدار الناس ويجعلوا عمالهم وخطباءهم ينالون من «علي» ومن يحبونه ناسين فضله على الإسلام وقربه من رسول الله، بل.. ووجدت أم المؤمنين أم سلمة أمام ذلك أن تكتب إلى معاوية ناصحة فأرسلت إليه كتابا قالت فيه:

«أما بعد.. فإنكم تلعنون الله ورســوله على منابركم وذلك أنكم تلعنون عليّ بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله...».

وتسلم معاوية الكتاب.. ولم يرد بكلمة على ذات الهجرتين.

وعاشــت أم المؤمنين أم ســلمة حتــى بلغت الرابعــة والثمانين، تروي الحديث، عن سيدنا رسول الله، وعن الزهراء ابنته صلى الله عليه وسلم، وعن عائشــة وعن ثقات الــرواة، ثم ماتت عام ٦١ مــن الهجرة، ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة، وطويت بوفاتها صفحة ناصعة من أنضر وأطهر وأفضل صحائف الجهاد في سبيل الله ومجد المسلمين.

فاختة بنت أبي طالب *

ساعة الغروب في مكة، وقد ساد الصمت الحالم كل شيء فيها، وخيم الجلال على ربوعها القدسية، فتلاشى الضجيج الصاخب الذي كانت أصداؤه منذ لحظات تتعالى في جوانب البلد الأمين الذي لا تهدأ له ضجة ولا ينقطع سيل زائريه والوافدين عليه من متباين الأنحاء والجهات.

وفتحت الدور أبوابها تستقبل العائدين، أو الوافدين، أو جموع الضيفان وقد أتوا مكة، زائرين معظمين، أو مارين بطرق قوافلها ذات الموعدين اللذين حددت لهما القدرة، رحلتي الشتاء والصيف، أو مرتادين لسوامرها التي طالما تحدث الناس عن لياليها وقيانها الساحرات.

وسكنت الطبيعة ورفت النسائم الهفهافة، وقد بدت تتقدم مع هبوبه الناعس ألوية الظلام التي راحت تنتشر وتنشر الأمن والسلام والهدوء.

لقد خفتت كل حركة، وأقفر كل طريق، وعاد العائدون إلى دورهم إلا هو.. وأن عمه الطيب أبا طالب ليجلس في صحن داره يرقب عودة الأمين.

ولم يطل بشيخ بني هاشم ترقبه وانتظاره، وأنه ليسمع مع الحصباء، وقع خطوات وئيدة متزنة، كان صاحبها يتقدم شأن الواثق من مسيره، العارف إلى أين كان يمضي، وأين يجب أن يستقر به المقام.

وتهلل بالبشر والفرح وجه أبي طالب بن عبدالمطلب ومحمد يتقدم إلى

* العربي - العدد ١٢٩ - أغسطس - ١٩٦٩م

الدار، في هدوء عرف عنه، ورزانة اشـتهر بها، وبشاشة حلوة، وأدب جم جعلاه موضع التقدير والحب والإكبار.

لطالما تمنى شـيخ بني هاشـم لو تطول بابن أخيه عبدالله جلسته إلى جانبه يحدثه مرة، ويصغي إليه أخرى، ويتناقشـان ثالثة، ثم لا يلبثان أن يتبادل كل منهما من أنباء قريش، فيرددا أحاديث الناس، ويتناقلا أخبار أولئك الذين قدموا في قوافلهـم التجارية، وأولئك الآخرين الذين كانوا يستعدون للخروج بها.. تماما كما تعوّد أهل مكة جميعا أن يفعلوا في مثل هذه الساعة من ساعات أوبتهم إلى دورهم وقت الغروب.

ولكن مثل هذا لم يحدث أبداً في بيت أبي طالب، ومع ابن أخيه محمد بالذات، وهو نفس ما تكرر حدوثه مغرب ذلك اليوم سـاعة أهلّ محمد على بيت عمه الذي كان يعيش فيه مع عيال أبي طالب تحت رعاية ذلك العم الطيب وفي كنفه منذ مات عائل محمد الأول جده عبدالمطلب الذي كفله بعد موت عبدالله أبيه.

وبقي أبوطالـب وحده، وفي مكانه التقليدي نفسـه، بقي حيث اعتاد أن يبقى السـاعات الطوال. ومضى محمد لشأنه، وأن العم الطيب ليهز رأسه في هدوء، وهو يتبع بعينيه وفكره خطوات ابن أخيه.

إنـه هـو.. هو دائماً، محمد الـذي لا يتغير أبداً، ولا يبدل شـيئا من طباعـه مهما كانت الظروف.. هو العزوف عن كل مجلس، المتباعد حتى عـن مجالس أقرب الناس إليه وأحبهـم عنده، فلا يكاد يعود حتى يأوي إلى عزلته التي تعشـقها، وتلمـس وحدته التي طالمـا أحبها ليهرع إلى الصمت والتأملات.

وزفر أبوطالب شأن من أحس براحة نفسه، واستقرار ضميره واستشعر الثقـة في كل مـا كان يراه، ثم غلبه إحسـاس بالطمأنينة الوادعة، وقد حوى البيت أهليه، وضم أحباءه جميعاً، وخاصة محمد بن عبدالله، يتيم الأمس، الذي ركن إلى وحدته كعادته دائما.

وإن أبا طالب بعد هذا الهدوء الذي أحسـه، ليشـعر بإحساس مبهم جرى به إلى التفكير في أمر محمد بالذات، حتى لقد عجب في نفسـه إذ لم يسبق له أن اهتم بمثل هذه الخواطر التي جعلت تطوف كلها حول محمد الأمين.

إن محمداً اليوم شـــاب قد تعدى العشرين من سني حياته، وأنه ليسير إلى ما قبل الخامسة والعشرين بقليل، وأن مكة كلها لتتحدث اليوم عنه، وتشيد بفضائله وكرمه وترفعه عن الدنايا وبعده عما يشين.

إنه شيخ شاب.. وكهل في ميعة صباه النضير، ولكنه شاب كامل الخلق، نقي القلب طاهر الســـريرة ليس فيه من صفات مجتمعه، إلا أنه قرشي كسائر أترابه من القرشيين.

وراح أبـــو طالب فـــي غمرة تخيله، واستســـلامه إلى أفكاره، يســـائل نفســـه.. لِمَ اهتم مجتمع قريش بمحمد المتباعد بروحه ونفســـه وأفكاره عـــن ذلك المجتمع، ولماذا أحبه القرشـــيون جميعـــاً وأجمعوا على التغني بصفاته وسجاياه؟

هـــل أحبوه لأنه باعدهم.. لكـــن محمداً لم يباعد قومه بما تعنيه كلمة التباعـــد، ولم يجافهم أبـــداً، فهو منهم. وإنه لبينهـــم، خاصة حين يجد الجد، ويتلمســـون صاحب المشورة والرأي الثاقب فيجدون محمدا ابنهم الأمين الذي جعلهم فكره الثاقب وذكاؤه اللماح يعبرون في بساطة وادعة، هوة سحيقة، كادت العشيرة بأسرها أن تتردى في أعماقها، وقد اختلفوا أيهـــم يرفع الحجر الأســـود، وهم يعيدون بناء الكعبـــة، وأيهم يضعه في مكانه المتعارف عليه.

إن شـــأن محمد ليعظم بين قومه يوماً بعد يوم، وإن إعجاب القرشيين بصفاتـــه ليتزايد مع مرور الأيام، حتى لقـــد راح الجميع دون تفرقة بين شـــيخ ورجل وشـــاب، يتفاخرون بحســـن معاملته لهم، وبره بهم وعطفه عليهم، وغيرته على صوالحهم، وحبه الدائم إلى أن يكون الإخاء رائدهم والسلام هدفهم.

وأبو طالب بعد هذا، يعيش في تصوراته هذه كلها، ثم يهز رأســـه وهو يصعـــد زفرات القلق، فمحمد هذا الذكـــي، البر العطوف، ليس ذا مال، فيعمل على إكثار ماله، وتنميته بثاقب فكره وحسن تصرفه، وقد عمل في صباه وطفولته مع أترابه يرعى الأغنام، فلم يتقن حرفة، ولم يتوفر على عمل خالص، وإنه اليوم ليســـير في مدارج شبابه الغض، ومن العدل أن يفكر عمه في أمره ويتجه به اتجاهاً معيشـــياً يضمن له الاستقرار فيما بعد وحتى يستطيع أن يكوّن نفسه بنفسه، وأن يقيم صرح مستقبله بجده

وعمله، وأن يحافظ على مستويات أهليه، السادة البهاليل من بني هاشم شيوخ العرب، ورءوس قريش.

وعاد أبوطالب يسائل نفسه، ترى أي عمل يتخيره لمحمد ابن أخيه!! إن مجتمع قريش، مجتمع تجارة، ورواج، وعمل مستمر، إما في الاتجار، أو في الخروج للتجارة مع القوافل التجارية، المنطلقة بما تحمل، نحو الجنوب مرة، أو الشمال مرة أخرى، مرتادة الصحارى الشاسعة لتنزل بواحاتها العديدة، أو تتجه إلى الحضر والحياة الرغدة الهانئة في مصر وبلاد الشام، أو إلى فارس، وما حولها من بلاد.

ويرتاح أبوطالب إلى مسير أفكاره، ويرى أنها تنطلق اليوم نحو وجهة صحيحة تماما. وتستقر في هدف ركّز العم أفكاره فيه بالذات.. فميدان التجارة كان الميدان العملي الصحيح لأي قرشي، وإن في محمداً بعد هذا كل ما يؤهله إلى أن يشق طريقه بنجاح في ذلك الميدان، فهو شاب فيه فوق قوته وشبابه طموح، وفيه فوق الطموح استقامة وأمانة، تجعله موضع ثقة كل ذي مال يرغب أن يقيمه على ماله، أو يأتمنه عليه.

ووجد أبو طالب أن خير ما يجب أن يتجه إليه محمد ابن أخيه هو ميدان التجارة، وأنه وإن عز عليه اليوم أن يتجر في ماله الخاص، فإنه لا شك سيجد من يستأجره ليخرج في تجارته وهو واثق فيه، عالم بأن الربح سيكون على يديه.

وصارح أبو طالب ابن أخيه بأفكاره هذه، ولم يعارضها محمد، فكان على العم، وهو في العشيرة كلها في موضع السنام أن يجد المكان اللائق بابن أخيه.

ووجد أبو طالب غايته، ونصح محمداً أن يخرج في تجارة لخديجة بنت خويلد، سيدة قريش، صاحبة الجاه، والمجد، والمال الوفير.

تلك قصة نعرفها جيداً، ونعرف كيف بدأت، وإلى أين اتجهت، وكيف وصلت بمحمد إلى بيت خديجة، أو بخديجة إلى بيت محمد، فتزوجها وهي التي كانت تكبره، وعاش معها حياة الاستقرار، والدعة، التي جعلته يتجه إلى عمه أبي طالب بفكره،وقد عرف مدى مسئولياته المعيشية وكثرة عياله فأحب لو يساعده بعض الشيء ويشاركه حمل بعض التبعات فكان أن أخذ ابن عمه علياً ليعيش معه، عساه بهذا يخفف عن أبي طالب

بعض تبعات الحياة.

إننا نعرف هذا جيدا.. نعرف أن محمداً استضاف علياً في بيته، علياً فحسب، ثم تقف السير المحمدية كلها وبما حوت من أنباء عند هذه الاستضافة الكريمة التي اقتصرت على ابن العم النابه، الذكي، علي بن أبي طالب دون أحد غيره من أخوته، أو أخواته ولكن..

ولكن بعض الرواة يأبون هنا، وفي هذا المجال بالذات إلا أن يضعونا أمام مفاجأة يقولون فيها إن محمداً، وقبل بعثته، تقدم إلى عمه أبي طالب، يخطب ابنته «فاختة» التي قيل إن اسمها كان «هندا» أيضا، وهي التي عرفت بعد ذلك بكنيتها «أم هانئ» وهي الكنية التي لم يختلف فيها أحد.

لقد قال الرواة، إن محمداً تقدم إلى عمه يخطب ابنته فاختة، وهذا أصح الأقوال في اسمها - وأنه تقدم إلى أبي طالب في الوقت نفسه شاب آخر يخطب ابنته هذه، وهو «هبيرة بن أبي وهب» فلم يكن من أبي طالب إلا أن رضي بهبيرة هذا زوجاً لأم هانئ، دون ابن عمها محمد.

والرواة يقولون بعد هذا، أن محمداً قد أمضّه أن يرفض عمه يده، وأنه فضّل عليه غريباً هو هبيرة بن أبي وهب، وأن محمداً أسرع في هذا يعاتب عمه، إذ تركه هو، وهو الذي يعرفه ويعرف أصله ونسبه ومكانته من العشيرة، وزوّج فاختة أم هانئ بهبيرة، فلا يجد شيخ بني هاشم غير أن يطيّب خاطر ابن أخيه وهو يقول له:

«يا ابن أخي.. إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم من يكافئ الكريم..».

واقتنع محمد بالرد ولا شك، فقد كان قويا مقنعا، كما أن أبا طالب كان في موقف دقيق لم يستطع أن يفضل فيه ابن أخيه على هبيرة فأسرع يترضى الغريب ليحكم صلته القديمة بأهله وعشيرته، بصلة وزواج جديد، ويرد من أجل ذلك محمدا، وهو يعلم أنه سوف يقدر مركزه، ويجد له العذر فيما أقدم على فعله، وقد كان.

وهنا، لابد لنا من وقفة، أجل وقفة عارضة أمام ادعاء الرواة أن محمداً قد خطب فاختة أم هانئ إلى عمه، ولسنا في هذا المجال نناقش حقاً من حقوق محمد في تقدمه يخطب من يشاء، ولكن لنسأل متى كان هذا التقدم على وجه التحديد من ناحية محمد ليخطب بنت عمه فاختة

بنت أبي طالب؟ وهل كان هذا قبل أن يخطب خديجة بنت خويلد؟

إننا.. وأمام هذا القول الذي أورده بعض الرواة من أن محمدا قد تقدم ليخطب إلى نفسه فاختة بنت عمه قبل بعثته - نقف في مجال الحيرة والتردد، فلا نستطيع أن نقبل القول بأن الخطبة من ناحية محمد قد تمت فعلاً، كما لا نجسر على رفض هذا الذي ذكره الرواة، ولكنا نناقش الأمر ذاته في هوادة ومنطق هادئ.

فإذا قيل إن الخطبة لفاختة قد تمت فعلا، ومحمد يعيش في كنف عمه، وتحت رعايته، وقبل العمل في تجارة خديجة وقبل زواجها، فإننا نستطيع أن نرفض الرأي بأن محمداً قد فكر حتى في خطبة فاختة وهو يعلم حقيقة مركزه المادي، وأنه يستعين بعمه على بعض ظروف حياته، ويعرف أيضاً أن عمه رجل كثير التبعات، كثير العيال، وليس من الحكمة، أن يزيد تبعاته ويفرض نفسه عليه فرضا بعد خطبته لفاختة ابنته، ثم زواجه بها بعد ذلك.

لقد كان محمد الشاب، الوداع، الرزين، وهو يسير نحو الخامسة والعشرين من عمره، رجل تجارب وحكمة، فكان يعيد النظر، وكان يزن الأمور بميزانها الصحيح، وكان دقيقاً في تفكيره، يعرف أن ظروفه الحالية لا تسمح له أن يستمر في رعي الأغنام، ولا تسمح له أيضا أن يفكر في الزواج قبل أن ينظم حياته، ويعرف وجهته.

ثم اتجه الأمين الصادق إلى ميدان العمل في التجارة، ولحساب غيره، وكانت خديجة بنت خويلد، أول من استخدمه، وأول من أولاه الثقة الكاملة، ومن عند نقطة بداية عمله في تجارة خديجة يبدأ جهاده الأول في حياته العملية.

حياة الجد والكفاح والدأب ليقيم أسس حياته المستقبلة بعد ذلك على دعائم ثابتة منتظمة.

وحدث بعد هذا الاستقرار المعيشي أن عرفت خديجة محمداً، وأنها ارتاحت إليه، وفضلته على كثيرين من أشراف القوم، وأصحاب الثراء فيهم، وتزوجته - فعرف الاستقرار الفعلي في بيت وادع، مدعم من شتى مناحيه، لم يكد يدخله، حتى فكر في أبي طالب عمه، وأحب أن يخفف عنه تبعات مسئولياته العديدة بعض الشيء، فاستقدم ابنه علياً وهو

يومها صبي صغير، ليعيش معه.

وهذه فترة ولا شـــك، رضي فيها محمد بزوجه خديجة، وما كان له أن يفكـــر في الزواج بأخرى كائنة من كانت، حتى لو كانت بنت عمه فاختة، فمحمد في تلك الفترة بالذات، لم يكن يملك من أمر نفســـه شـــيئا، بل كان في فترة الإعداد لتقبل الرســـالة، وكان أمره كله إلى الله الذي أدبه فأحسن تأديبه، ثم راح يعده لتحمل أعباء الأمر الخطير.

بـــدأ محمد في هذه الفترة بالذات تحنثـــه، وتعبده بهدي من وجدانه، وعلى ملة إبراهيم، وتعود الذهاب إلى غار حراء لفترة معينة من الزمان، كانت خديجة تعينه عليها، وكانت تتلمسه فيها أحيانا، وهي تشجعه مرة، وتعينه أخرى، ليستمر في طريق الكمال، حتى يأتي الله بأمره فيه.

ومحمـــد، وهو في هـــذه الفترة بالذات، وهو مأمور يســـير في طريق ممهد، أعده له الله وقد تباعد عن الناس، وانصرف عن شئونهم وشواغل الحياة.. محمد هنا وفي هذه الفترة على وجه التحديد لم يكن يفكر في زواج أبداً، وعلى هذا نستطيع أن نقول إنه لم يتقدم إلى عمه أبي طالب في هذه الأثناء، ليخطب فاختة أم هانئ.

ونزل الوحي على ســـيد الخلق جميعاً، يوم شـــاء اللـــه لهذا الوحي أن يهبط عليه، وجاءه الروح الأمين ليقرئه باسم ربه الذي خلق، ثم..

ثم مـــرت بمحمد بعد ذلك فترة الانتظار والقلق والخوف من أن يكون ربـــه قد ودعه أو قـــلاه، وخديجة تهدئ من روعه، وتؤكـــد له أن الله لن يخذله أبدا، فهو يحمل الكل، ويصل الرحم، ويعين على نوائب الدهر.

ويعود الروح الأمين بعد ليثبت يقين محمد، ويطمئنه، ويؤكد له أن الله ربه الذي اصطفاه برســـالته الكبرى، خاتمة رســـالات الرسل العظام، ما ودعه أبداً ولا هو قلاه، وأن الآخرة خير له من الأولى، وأن الله ربه سوف يعطيه فيرضى.

وقد أرضى الله سبحانه وتعالى عبده محمداً الذي أعده لتحمل أعباء كبـــرى الرســـالات، وأمره بالخـــروج بدعوة أنه لا إلـــه إلا الله وحده بلا شـــريك، ولا صاحبة ولا ولد، وأنه هو، محمد الصادق عبدالله، ورسوله الهادي إلى دينه، وأنه خاتم النبيين.

وفترة الخروج بالدعوة، والجهر بها، في مجتمع الضالين عبدة الصنم

- كانت ولا شك فترة جهاد حق، ونضال عسير، تعرض محمد صلى الله عليه وسلم خلاله لكل صنوف الإيذاء والمعارضة والتكذيب، فما وهن ولا هو تراجع، أو خشي وقوف سفهاء قريش كلهم ضده، بل مضى في سبيله يدعو، وينادي بدعوة الهدى والحق.

ولم يكن من المقبول أصلا، أو المعقول فعلا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بهذه الفترة من فترات النضال، أن يشغل نفسه بشيء آخر غير الدعـوة وإنفاذ أمر الله بإبلاغها وإنذار عشـيرته الأقربين إليه أولاً، ثم إنذار الناس جميعا من بعد ذلك ليتبعوا طريق الحق، ويؤمنوا بما جاء به الرسـول، ويشهدوا بأنهم وآباءهم إنما كانوا على ضلال، وأنه لا إله غير الله وحده، وأن محمدا الهادي عبده ورسوله الصادق الأمين.

إن رجلا هذا مدى تبعاته، وذلك طريق جهاده الذي أمره الله أن يتبعه، ما كان له أصلا أن يتحول عن غايته،، أو يقصر في الأمر بأداء رسالته، أو ينصرف عن جهاده ويسـمح لنفسـه أن يفكر مجرد التفكير العارض في زواج جديد ...!!

وإذاً، وعلى هذا الأساس، نقطع دون جدال بأن ما قاله الرواة عن تقدم محمد صلى الله عليه وسـلم ليخطب فاختة بنت عمه أبي طالب قبل أن يوحى إليه - قول لا يعتد به أبداً، ومن الخطأ أن نشير إليه، وأن التعرض لتفنيـده على هذه الصورة من صور المنطق، يدفع بنا إلى محاولة جديدة من محاولات تحقيق قول أو ادعاء آخر، جاء به بعض الرواة في أحاديثهم وأقحموا فيه اسم فاختة بنت أبي طالب.

والادعـاء الجديد، وتفنيده، لا يخرج بنا في شـيء عن الخط الأصلي الذي تابعناه، وسرنا معه حتى وصلنا إلى خروج سيدنا رسول الله بدعوة الحـق، وجهره بها،وتصدي مجتمع قريش الضال له،وتربصهم به في كل طريق.

لقد ظل محمد حيث أراد له الله أن يكون، داعية الحق، والجهاد، يهدم بيقينه الباطل، ويقيم صروح الحقائق في أعمق قلوب آمنت به، ولم يحول أصحابها عن معتقدهم تربص ولا تخويف ولا إمعان في الإيذاء.

ومرت الأحداث والحوادث مع مسـير ركـب الزمن وأبو طالب الطيب السـمح حيث هو بعيـداً عن الحلبة، نائيا عن الميـدان، يرقب ابن أخيه

ويراقب تطور مدارج دعوته وآماد تأثيرها في مجتمع قريش، ثم في أعماق قلوب من تابعوها وآمنوا بها - وهو من هذه الدعوة الكبرى بعيد بفمه وقوله، قريب منها بخوفه على محمد، وإشفاقه عليه، وتصديه لحمايته من سفهاء قريش وإصراره على منع ابن أخيه من أن يصل إليه أذى، أو أن يلحقه شر.

وتزوجت فاختة أم هانئ بنت أبي طالب، أو هند كما يصر على تسميتها البعض، تزوجت قبل خروج ابن عمها بدعوته بسنين عديدة، ودخلت بيت زوجها «هبيرة بن أبي وهب»، وعاشت فيه بعيدة عن أحداث مجتمع قومها، حتى علا صوت محمد ذات يوم يدعو إلى عبادة الله الخالق، الرحمن، الرحيم، باسط الأرض، ورافع السماء، الذي لا إله إلا هو يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

وأصغت فاختة مع المصغين إلى صوت محمد ودعوته، فلم تستجب لها، ولم تسر في طريق الهدى الذي سبقها إليه أخوها علي بن أبي طالب، وبقيت مع قومها من القرشيين، تأتيها أنباء محمد يوماً بعد يوم فتشفق عليه مرة، وتأسى لما كان يتعرض له أخرى، ولكن في حدود البعد التام عن دينه ودائرة دعوته، إذ بقيت فاختة حيث أراد لها زوجها هبيرة أن تكون معه ومع قومه الذين أبى عليهم الكبرياء أن يتابعوا محمدا على طريق الحق، ويشهدوا بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وظل ركب الحوادث في مسيره، وصوت محمد يعلو ويعلو بدعوة الحق، يهدم بها الباطل ويحطم دولة الصنم، واشتد إيذاء قريش للداعية القوي الأعظم، فما وهن ولا تراجع، ولا انصرف حتى لقد بدوا يخافون الدعوة التي كانت تنتشر وتمتد جذورها العميقة في أنحاء القلوب، حتى فرقت العشيرة، وسفهت الأحلام، وهددت المجتمع نفسه بالهلاك والتفرقة.

وطرق رءوس قريش باب أبي طالب يسألونه صرف ابن أخيه عن دعوته، واستعداد القوم لتسويده عليهم إن هو كان يريد السيادة، أو إغراقه بالمال إن كان يريد الثراء.. وأرسل أبوطالب يستدعي ابن أخيه ويعرض عليه الأمر، وإذا بمحمد يقول إنهم لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره على أن يترك هذا الأمر الذي قام يدعو إليه، ويناضل من أجل انتشاره، والإيمان به، ما فعل حتى يظهره الله ويرفع رايته عالية

خفاقة، أو يهلك محمد دونه وهو راض سعيد.

واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق جهاده الذي أراده الله له، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة القوم بالتي هي أحسن، والقلة المستضعفة التي تابعته يشتد عودها، ويكثر عديدها، ويتعاظم خطرها في الوقت الذي كان يتضاءل فيه شأن الكثرة المؤذنة شمسها إلى غروب قريب.

ومرت مواكب الحوادث.. ووافى أبا طالب بن عبدالمطلب أجله المحتوم، ومات شيخ بني هاشم، ففقد محمد بموته العضد والساعد الذي طالما ذاد عنه، وحماه.

وقبل أن يفيق محمد من وقع مصابه في عمه، لحقت أم المؤمنين خديجة بالرفيق الأعلى، وانتقلت إلى دار الخلد، وجنات الرضوان، لتعيش في بيت من قصب، كما بشّرها الروح الأمين.

يا لها كانت من صدمة، فاقت الصدمة الأولى، وخسارة أحس محمد هولها بأضعاف ما أحس خسارته في عمه، فقد كان موت خديجة خسارة لا تعوض، إذ طالما كانت حامية محمد الروحية، وطالما كانت مشجعته ومعينته على أوصاب الجهاد.

وبدأ محمد يلقى الأمرّين من سفهاء مكة بأضعاف ما لقي من قبل، وهو صابر، ماض في سبيله ليبلغ أمر الله...

لقد ظلت أم هانئ بعيدة عن الحلبة الدائرة، حتى وجدنا أنفسنا أمام اسمها فجأة في عام الفتح، وقريش مائجة مضطربة، وقد دخلها رسول الله، وأعلى كلمة الحق، وحطم الأصنام التي طالما سجدوا أمامها وسألوها الخير لهم وتوسلوا إليها أن تمنع الشر عنهم، ووطأها صلى الله عليه وسلم بقدميه ولم يجد كفار مكة وسفاؤها غير أن يثوبوا إلى رشادهم، ويذعنوا للحق الصراح ويؤمنوا بالله.

أقول في هذه الفترة الدقيقة التي كانت نهاية عهد أدبر، وبداية عهد أقبل في عنفوان وقوة وحق وصدق، في هذه الفترة، قفز اسم فاختة أم هانئ وقد أعلنت إسلامها هي الأخرى في الوقت الذي أبى فيه هبيرة زوجها إلا أن يبقى على كفره وضلاله، وقد روعه وأفزعه، وحز في نفسه، وأمضه أن تتخلى عنه فاختة زوجته الحبيبة في تلك الفترة

الدقيقة بالذات، وهو الذي تمنى أن تواسيه وتشجعه وتقف إلى جانبه، لا أن تقف في صف غير الذي أصر هو على الوقوف فيه، فآمنت حيث شاء لنفسه أن يظل على كفره، وأسلمت حيث أصر هو على ضلاله وموقفه العدائي من دين الله وكبر في نفسه أن تلقاه أم هانئ على صورة ما أحبها، وأن تجرؤ فتدعوه إلى الإسلام، وتطلب منه أن يؤمن بأن لا إله إلا الله عن حق وصدق، وأن محمدا رسول الله المبعوث فيهم بدين الهدى والحق، وأن الدين عند الله الإسلام.

عزّ هذا كله على هبيرة بن أبي وهب، وثار وهدد، ولكنه لم يستطع أن يحول فاختة عن رأيها أو يردها عن دين الله الذي دخلته عن عقيدة صادقة، وإيمان راسخ، وهانت لديه الدنيا، وضاقت سبيل الحياة، وعلا صوته المزمجر ينشد قائلا في عتاب زوجته:

وعادلة هبّتْ بليلٍ تلومني
وتعذلني بالليل، ضلَّ ضلالُها
وتزعم أني إن أطعت عشيرتي
سأردى وهلْ يُرْدين إلا زيالُها
فإنت كنتِ قد تابعت دين محمد
وقطّعت الأرحامَ منك حبالُها
فكوني على أعلى سحيقٍ بهضبة
ململمة غبراءَ يَبْسٍ بلالُها.

وعز على هبيرة بعد هذا أن يبقى بمكة، وهرب إلى نجران وهو متمسك بكفره وضلاله وقد راح يقول في تبرير هذا الفرار، وهو رجل الحرب المشهور له بطول الباع:

لعمرك ما وليت ظهري محمداً
وأصحابه جُبنا، ولا خيفةَ القتلِ
ولكنني قلّبتُ أمري فلم أجد
لسيفي غناء إن ضربتُ ولا نبلى
وقفت، فلما خفت ضيعة موقفي
رجعت لعود كالهزبْر إلى الشِّبْل

وفر هبيرة، وبقيت فاختة في مكة، وقد أضاء الله قلبها بنور الإسلام،

وشـــهدت زوال دولـــة الصنـــم، ورأت بعيني يقينها كيف يعلـــي الله حقه النورانـــي، على باطل المبطلين الضالين، وكيف دارت الدائرة على قريش العابثـــة العاصية، فلم تبق على شـــيء من ضلالات أهليها: ولا من تراث معبوداتها التي تحطمت، وسويت بالتراب ووطأتها الأقدام.

وجـــاء نصر الله، وتم بإذنه ســـبحانه وتعالى فتح اللـــه الأكبر، ودخل النـــاس في دين الله أفواجاً، ولـــم يبق غير نفر قليل من أهل الضلالات، وهم أولئك الذين أهدر رســـول الله صلى الله عليه وسلم دماءهم، وأمر بقتلهـــم حيثما كانوا، حتى لو تعلقـــوا بأذيال الكعبة، لأن الكعبة لا تعصم عاصياً، ولا تجير كافراً.

وكان الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية ممن أهدر رسول الله صلى الله عليه وســـلم دماءهما، فلما ضاقت بهما المسالك: وبدا شبح الهلاك، عز عليهما أن تكون هذه هي نهايتهما وأسرعا إلى بيت أم هانئ فدخلاه مستجيرين بها.

وقبلـــت فاختة أم هانئ هذه الإجـــارة، وأصرت عليها، ووقفت دون من احتميا بحماها في عناد وإصرار فلم تســـمح لأخيها علي بن أبي طالب أن يصل إلى الحارث بن هشام أو صاحبه زهير.

ويتمادى الرواة في مغالاتهم بعد هذا فيدعون أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بيت أم هانئ في هذه اللحظة وعلي بين يديها فسألها الخبر، فشكت إليه أن أخاها أبى عليها أن تجير الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية، فابتسم صلى الله عليه وسلم، وأقر إجارتها لهما.

إن الحادث صحيح فـــي بعض مواضعه، مبالغ فيه في مواضع أخرى، فأم هانئ قد أجارت القرشـــيين المهدري الدم: فلما جاء أخوها علي في أثرهما منعته عنهما وأغلقت الباب دونه، ولما كان رســـول الله صلى الله عليه وســـلم قد أمّن كل من يغلق عليه بابه، فلم يكن من حق علي بن أبي طالب أن يقتحم الباب على المســـتجيرين بأخته التي أسرعت إلى رسول الله صلى الله عليه وســـلم تشكو علياً وتطلب إقرار إجارتها لمن أجارت، فأقره رسول الله وهو يقول لها:

- قد أجرنا من أجرت.

ويأبـــى الرواة بعد هـــذا إلا أن يتابعوا مواكـــب تخيلاتهم خاصة وقد

أعلنت أم هانئ بنت أبي طالب إسلامها، فادعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبها إلى نفسه وقد فرق الإسلام بينها وبين زوجها هبيرة، فقالت له:

«والله إن كنت لأحبك في الجاهلية، فكيف في الإسلام: ولكني امرأة مصبية وأكره أن يؤذوك».

وأم هانئ هنا تعتذر بأنها ذات أولاد، وتخشى أن يؤذي وجودهم رسول الله إن هي قبلت الزواج به، فتقصر في حقه كزوج لتلتفت إلى رعاية بنيها... كما قالت بعد ذلك:

«يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من سمعي وبصري، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق الزوج.

فقالت رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن خيرنساء ركبن الإبل نساء قريش: احناه على ولد في صغره وأرعاه على بعد في ذات يده».

وإنها بعد لروايات لا يعتد بها، فبعد عام الفتح، ودخول أم هانئ الإسلام، كان حق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الزواج بمن شاء قد تحدد، ولم يعد يحل أن يطلق أو يتزوج غير من طلق وتزوج، ولا أن يستبدل بإحدى زوجاته زوجة أخرى، وحكم الله في هذا قاطع لأقوال الرواة ولا جدال.

ولنسرع بعد هذا إلى أم هانئ نفسها، إلى حقيقة دورها الذي قامت به بعد إسلامها.

لقد كانت فاختة صحابية جليلة ذات مقام، وذات صلة ورحم. وقد روت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من أحاديثه، ثم روى عنها الرواة بعد ذلك بعض هذه الأحاديث عن ابنها جعدة وحفيدها يحيى بن جعدة وابنه هارون ثم روى عن هؤلاء من بعدهم كثيرون.

تلكم كانت أم هانئ «فاختة بنت أبي طالب» المسلمة الخالدة التي آمنت فتقبل الله إيمانها وأسلمت فحسن إسلامها، وكانت قدوة صالحة في التعبد واتباع أوامر الدين.

ذات النطاقين
أسماء بنت أبي بكر*

في تاريخ البطولات العربية الخالدة، يذكر ولا جدال اسم السيدة الجليلة «أسماء بنت أبي بكر» على رأس القائمة.

فالبطولة في صورتها المثالية، وأسماء بنت أبي بكر صنوان درجا في مهد واحد. ولم يفترقا لحظة واحدة من لحظات السنين الطوال التي عاشتها البطلة المجاهدة الصابرة أسماء.

ولدت «أسماء» في بيت رجل حر شجاع من الأعلام، كان أول قرشي حرر أفكاره من ظلمات الجهالة، وسخر من رهبوت الصنم، وتحدى الكهانات. وتمرّد على الحجر المنحوت وأصغى في تمعن وفهم عميق إلى صوت محمد وهو يدعو العشيرة إلى التطهير، ويفتح لها باب النور لتخرج من ظلمة الجاهلية والضلالات.

وجد الصوت العظيم صداه ومستقره في نفس أبي بكر، فكان أول رجل جاهر بإسلامه، ونطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، غير عابئ بثورة العشيرة ولا ضجة السفهاء.

وهكذا نشقت أسماء أول ما نشقت عبير بطولة أبيها العظيم، فامتلأت نفسها بالشذى الخالد، فوهبها حيوية وحياة، بعيدين في كل شيء عن المجتمع الهازل المقيت، الذي كانت تقاليده المظلمة تسيطر على قريش وأهليها.

وتفتحت عينا أسماء بعد ذلك على عديد من الصور البطولية

* العربي - العدد ٥١ - فبراير ١٩٦٣م.

العظمى، وقد راحت تتتابع في سرد متلاحق مترابط الحلقات قصة الصراع الرهيب في سبيل العقيدة، فكان لها خير زاد، اكتنزت مثله العليا في أعماق قلبها، وراحت تجتره على كر الأيام.

ولمست أسماء بنت أبي بكر في أعمال السابقين الأوائل إلى الإسلام - التضحية الكاملة، والبطولة في أروع صورها، رأت كيف صبروا وصابروا ورابطوا، وكيف سخروا بالعذاب، واستهانوا بطغيان العشيرة وشديد إيذائها، فكان لها فيهم النبراس الهادي، والمنوال الذي راحت تنسج عليه حياتها بعد ذلك في وعي وبصيرة.

ومع مسير ركب الزمن وخلال سني البعثة المحمدية في قريش - عاشت أسماء في قلب الحوادث الجسام، واستشعرت رهبة الصراع العقيدي حتى شاء لها حظها أن تعيش بعد ذلك في أخطر أحداث التاريخ، وأجلها روعة، وأعظمها قداسة.

عاشت أسماء في حادث الهجرة الكبرى الذي غيّر وجه التاريخ، وكان لها فيه دور بطولي اتسم بشجاعة فذة، وفدائية منقطعة النظير استهانت فيها بالروح في سبيل العقيدة، فلم يكد رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج مأموراً إلى الهجرة مع أبيها الصديق، حتى تقدمت أسماء الصبية الصغيرة لتقوم بدور إيجابي خطير.

كان على أسماء الصغيرة أن تتنطس أخبار قريش الغاضبة، التي بثت العيون في كل اتجاه تترصد المؤمنين المهاجرين بدينهما من طغيان العشيرة، التي أجازت الجوائز لمن يأتي بهما ميتين أو على قيد الحياة!!

ثم تحمل هذه الأشياء الخطيرة في حذر إلى المهاجرين العظيمين في مخبئهما بغار «ثور» مع ما يلزمهما من طعام وشراب.

حتى حدث ذات يوم أن ثقل عليها ما تحمله، فشقت نطاقها إلى قسمين ليسهل عليها حمله، وتتمكن من إخفائه.

فلما رأى رسول الله ما فعلت أسماء بنطاقها، وهي بعد صبية صغيرة، بشرها بأن الله سيعوضها عن نطاقها بنطاقين في الجنة!! فسميت من ساعتها «ذات النطاقين»!!

وحدث خلال هذه الفترة - ومحمد وصاحبه في الغار، ينتظران

اللحظة - الحاسمة للانطلاق عبر الصحراء إلى يثرب، أن اشتمت قريش في تكرار خروج بنت أبي بكر، ما يقطع بأن وراءها شيئاً تبالغ في إخفائه.

ودهمها أبو جهل رأس الشرك ذات يوم وهي على مقربة من الغار، وراح والأشرار الذين معه يحاولون انتزاع سرها، ولا جدوى، حتى لقد فقد الشرير العاتي غريزة الحنان، ولطم الصبية لطمة قاسية مزقت قرطها وسقطت على الأرض باكية!! فتركها وهو يتميز غيظا من شجاعتها وعنادها وقد أبت أن تشفي غلته وتبوح له بالسر الذي كان يبتغيه!!

وهاجرت أسماء بعد ذلك إلى يثرب، وتزوجت من حواري الرسول وابن عمته «الزبير بن العوام» وأنجبت له ولدها البكر «عبدالله» هناك، فكان أول مولود للمهاجرين ولد في يثرب.

وشهدت أسماء في مدينة رسول الله انتشار الإسلام، وتعاظم شأنه، ورأت نصر الله والفتح، وكيف راح الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فتعلمت في هذا درساً خالداً في الثبات على المبدأ، والاستهانة بالكثرة الظالمة صاحبة الباطل، التي انتصرت عليها القلة المؤمنة التي تنادي بالحق وتجاهد في سبيله.

وتولى أبو بكر أمر المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار خليفة للمسلمين، ولم تتغير أسماء ولم تتبدل، بل راحت في ثبات ترقب الأب الحاني الرقيق الصوت، الهامس النبرة، الكثير البكاء، وقد زمجر وثار وأقسم واستمسك بالحق، وأبى أن يفرط في هنة منه حين حدثت فتنة «الردة».

وجاء عمر.. ومن بعده عثمان.

ثم كانت الفتنة الكبرى التي تمت من بعدها البيعة لرابع الراشدين علي بن أبي طالب.

وخرج الزبير بن العوام على البيعة، وشق عصا الطاعة على ابن خاله «علي» هو و«طلحة» ومن تبعهما من المسلمين، ورأت أسماء كيف أفلح زوجها الزبير بن العوام، في إخراج أختها الشقيقة أم المؤمنين عائشة من خدرها، لتتقدم صفوف الخارجين على أمير المؤمنين علي

بـــن أبي طالب وتدعو إلى قتاله، فلم يرقهـــا ذلك الحادث ذاته، وعز عليها أن يتفرق أمر المسلمين.

وآثرت البعد عن النضال السياســـي وكرهت الخروج، وبقيت حيث هي في مدينة رســـول الله، حتى تمخضت الأحداث الدامية عن قتل «علي» وأخذ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان.

وأحست أســـماء بتغير الجو، وشـــعرت بالتطور الحكمي الجديد، وراحـــت تتأمل حديث مـــن بقي من الصحابة علـــى قيد الحياة وهم يصفون سياســـة معاوية بأنها عودة إلى الأرستقراطية الوثنية، وخلق نظام جديد لا عهد للمســـلمين به، إذ جعل الله أمرهم شورى بينهم، وجعلها معاوية وراثة في أهله!!

وكان بعد معاوية عن المدينة واستقراره في الشام، واتخاذها عاصمة الخلافة، سبباً من الأسباب التي عجلت بخلق معارضة فكرية للحكم الأموي، وإن لم تظهر بصورة عملية حاســـمة في عهد معاوية، ولكنها ظهرت في عهد من تولوا الحكم بعده.

وكان الإمام الحسين أول الخارجين على حكم يزيد بن معاوية، كان أعظم شهيد ســـقط في حومة الشرف والفداء وهو يدافع عن حرية أشقائه في دين الله من هول البطش الأموي، وفساد أمير المؤمنين.

وتولى عهد يزيد، ثم معاوية الثاني، ثم انقرض الفرع الأموي الحاكم من أبناء سفيان بن حرب.

وقفـــز إلى مكان الصدارة الأمويون من فرع الحكم، وعلى رأســـهم «مروان» طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ودارت عجلـــة الأحداث دورات عاصفة، راحت أســـماء ترقبها في حذر، ثـــم إذا بها تفاجأ بولدهـــا البكر «عبدالله» يقـــود الثورة ضد الحكـــم الأموي، ويجمع حواليه الســـادة الغطاريف من أبناء الأنصار والمهاجرين، ويؤلف منهم جيشـــا حامياً، ســـاعده على قطع الخطبة عن الأمويين، ثم أعلن نفســـه خليفة على العالم الإســـلامي كله دون بلاد الشام.

كانت «ذات النطاقين» فـــي تلك الفترة الدقيقة من فترات الصراع الرهيب على الخلافة بين ولدها عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم

تسير نحو الشيخوخة التي بعدت بها عن الحلبة، ولم تجد غير أن تدعو لولدها بالفلاح في جمع شمل المسلمين وتوحدهم والعودة بهم إلى عهد الراشدين.

وظل عبدالله بن الزبير يحكم العالم الإسلامي كله، زهاء تسع سنين، واستقرت له الأمور في شتى المناحي إلا الشام، الذي أحس مروان ابن الحكم وهو فيه، بأنه أضعف من أن يقاوم انتشار نفوذ ابن الزبير، فكاد يبايعه ويريح نفسه من قسوة النضال الطويل، لولا أن مروان بن الحكم مات قبل أن يخلع نفسه ويعترف بإمارة ابن الزبير على المسلمين.

وجاء بعده ولده عبدالملك بن مروان، وكان طموحاً، مستمسكاً بالسلطان، شديد المحافظة عليه، عاش في ظل أبيه فترة قاسية، استشعر خلالها العجز أمام عبدالله بن الزبير، مما جعله يصمم في قرارة نفسه على أن يقف في وجه هذا الغريم الخطير، ويحاول أن ينتزع منه السلطان ليرده إلى بني أمية من جديد!

وبدأت الظروف تمهد للصراع المرتقب في سبيل الخلافة، وهل تبقى في بيت ابن الزبير أو تعود إلى بني أمية.

وراحت شخوص النضال المرتقب تأخذ مكانها، وأسرع عبدالملك يعد العدة ويتخير الأعوان، ويرتب الجيوش.

وكان عبدالملك في قومته تلك قوياً مشبوباً، فاهتز عرش ابن الزبير لقومته، واضطرب أمام الإعصار الذي كان يتحرك من دمشق في طريقه إلى مكة مقر الخلافة!!

وكان عبدالملك بن مروان موفقاً في تخير «الحجاج بن يوسف الثقفي» ليقود الجيش الذاهب إلى مكة، للقضاء على الخلافة التي كادت تقضي على الملك الأموي!

وقامت الحرب...

ومال ميزانها في غير جانب ابن الزبير، وحاصر الأمويون مكة حصاراً شديداً.

وبانت لعبدالله نهايته ونهاية خلافته، فقد تخلى عنه الولد والصديق وراح بعض المقرّبين منه يزينون له سبيل الهرب، فلم يجد أمامه من

يشير عليه أصدق من أمه «أسماء».

واجتـــرت ذات النطاقـــين ذكريات الماضي، وراجعـــت تجاربه كلها، ووقفت تكلم ابنها وتحدثه حديث الصدق وتســـأله: فيم كان خروجه ولـــم كانت غضبته؟! فلما أجاب بأنه إنما خرج من أجل الحق، طلبت منه أن يبقى حيث وضع نفسه!!

وانهـــار الابن القائد المحارب أمام صراحة الأم، وأحب أن يســـتثير حنانهـــا، فصارحهـــا بأمر موقفـــه، وكيف تحول الحـــظ عنه وتركه الأقربون، وبالغ «الحجاج» في حصاره حتى ليخشـــى أن يقع في يده فيمثل بجثته!!

ومرة أخرى رفعت أسماء إلى ابنها وجهها الجامد الذي فقدت عيناه النور، وقالت له كلمتها تلك التي صارت مثلا في التمثيل بالجثة:

«وما يضير الشـــاة أن تســـلخ بعد ذبحها؟! إن كنت على الحق فكن حيث أنت!! ولك في السابقين أسوة»!!

وحرّضته على العود إلى القتال..

وضرب الحجاج مكة بالمناجق، ولم تسلم الكعبة المشرفة من قسوته، واســـتباح لنفسه حرمتها باسم الرغبة في تقويض ملك أحد الخوارج على الأمويين، وأثارها معركة فناء.

وخرج ابـــن الزبير بتحريض أمه إلى المعركة فـــي القلة التي ثبتت إلـــى جانبه، وثار النقع، ودارت الرحى، وانطلقت كلابها تنهش وتعوي وتطالب بالمزيد.

وصـــال ابن الزبير وجال يومها وهو بلا درع كما أمرته أمه، وحاور وداور، أبلى في القتال بلاء حســـناً، فتكسّـــرت أمامـــه الصفوف تلو الصفوف، حتى خانه حظه في النهاية فســـقط على رأســـه حجر من إحدى الشرفات التي تهاوت من بناء الكعبة، فسقط وسيفه في يده.

ووصل النبأ أســـماء، وتلقته ثابتة لم تجزع، صامتة لا تتكلم، قاسية الملامح، جافة العينين.

لقد مات ابنها أشـــرف ميتة، من أجل مبدأ آمن به، وسلطان أقامه ليقوض ســـلطان الطغاة، وأنها لتنصت بعد ذلك إلى من يخبرها: إن الحجاج قد أســـرف في عداوته لولدها الشـــهيد، فحز رأسه وصلب

الجسد على الثنية!! وجعل أجناد الشام تمر به شامتة لتلعنه!!

وأبت أسماء أن تخرج من بيتها، ورضيت للجسد الحبيب أن يظل في العراء مصلوباً، على أن ترجو فيه فاسقاً مثل الحجاج، أبى أن يحترم حتى حرمة الموت في جثمان البطل الذي مات في نضال شريف والسيف في يده.

وبقيت الجثة المصلوبة قائمة مكانها، وبقيت الأم الثاكل قعيدة بيتها، وبقي الحجاج في فسطاطه ينتظر أن تأتيه أسماء راجية متوسلة، حتى خاب فأله، فبعث إليها من يأمرها أن تأتيه، فسخرت من الرسول وأبت أن تخرج من بيتها، فلم يجد إلا أن يذهب هو إليها في قضه وقضيضه وهو يرجو أن يخيفها، وأن يجبرها على التقدم إليه بالرجاء!!

ووقفت ذات النطاقين مرفوعة الرأس أمام الحجاج، تسخر منه وتقول له:

- إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا!! جئتني في قضك وقضيضك وحرسك وأعوانك، ولترهب بهم عجوزاً عمياء!! لقد قتل الأسد، فلا ضير على الثعالب إن هي حومت حول العرين!!

فقال لها الحجاج وقد أذهلته جرأتها عليه:

- لقد شرفتك بحضوري إلى هنا!!

فأجابته بقوة:

- لقد شرفنا الله ورفع من قدرنا، قبل أن تأتي أنت إلى الدنيا!! وما كانت زيارة الحجاج لترفع من قدر أسماء بنت أبي بكر!!

وحاول الحجاج أن يخفف من ثورتها عليه فقال لها متلطفاً:

هل من حاجة أقضيها لك يا أم؟

فصاحت الأم الثكلى تقول له:

- لست لك بأم!! أنا أم المصلوب على الثنية، وإنك وجيشك لتعرفون قدره.

فقال الحجاج:

- إني لعاذرك يا ذات النطاقين، ومازلت أسألك إن كنت في حاجة إلى شيء أقضيه لك؟!

فقالت:

- يـــا حجاج!! هـــذا الراكب، الذي أبى له قـــدره إلا أن يرتفع فوق الرءوس حتى في موته، أما آن له أن ينزل؟!

فأجـــاب الحجـــاج: يا بنـــت الصديـــق!! إن إيمانك الشـــديد هذا ليروعنـــي، وإن ما حدث كان قـــدراً مقدورًا، ولقد أراد ابنك الخلافة لنفسه، وأرادها الله لعبدالملك!!

قالت: ظل عبدالله أميراً للمؤمنين تســـع ســـنوات طوالاً، رفع فيها راية الإسلام، وكان خير قدوة للحاكم الصالح، الذي بايعه الناس على الطاعة، لا الذي فرضه طاغية، أو أخذوا له البيعة بحد السيف!!

قـــال: ولكن إرادة الله تمت على هذه الصورة، والله ما حقدت على ولدك، ولكني أحسست بالزهو عندما تخلصت منه.

وهتفت أســـماء ووجهها للسماء: **﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾**.

وهتف الحجاج في خجل:

- هزمتني والله بنت أبي بكر!!

لقـــد رأى الحجاج أســـماء على حقيقتها، لا كمـــا تصورها قبل أن يراها.

ونكس الطاغية رأســـه أمام ثبات الأم وقوة شـــخصيتها، ورأى أنه كان أضعـــف من أن يهـــز بالخوف قلبها، فلم يجد غير أن ينســـحب مهزومـــاً، بعد أن أجبرته على الاعتذار لهـــا، ووعدها بأن يعيد إليها جثة ولدها لتقوم لها بمراسيم الدفن.

وذهـــب الحجاج، وبقيت أســـماء، بقيت كما هـــي، صامتة، هادئة، راضية النفس.

لقد شهدت كر أعوام في إثر أعوام، وشخوص بعد شخوص، ووقفت موقـــف المجالدة أمام جبابرة بعد جبابرة، فلم تتحول أو تضعف حتى وهي أمام روعة التجربة، التي شـــاء لها الحظ أن تدخلها، وكان ابنها الحبيب هو الضحية والفداء.

إن أســـماء في ســـيرتها لتكاد تكون بطلة أســـطورية ضربت أروع الأمثال في شتى مراحل عمرها الطويل.

لقد كانت شـــجاعة بكل معنى الكلمة، جريئـــة، مؤمنة بقضاء الله، فلم تهزمها الأحداث على جســـامتها، ولم تزعزعها فاجعة كتلك التي صادفتها يوم مقتل ولدها، وتجالدت وقلبها يقطر دما.

هذه صورة مشرفة للأم العربية الباسلة، التي ضربت أروع الأمثال في التضحية بفلذة كبدها في سبيل المبدأ، لتكون قدوة حسنة لأمهات اليوم، وأمهات المســـتقبل، فيحذون حذوها فـــي إعداد الجيل المؤمن بالتضحية والفدائية، ليعيد أمجاد العرب الميامين، أيام سلطان العرب وســـيادتهم ووحدتهم الكبرى في وطنهم الكبير الذي أقاموا أســـســـه على دعائم من الشجاعة والبطولة والفدائية ووحدة الصفوف.

الشيماء أخت محمد*

كانت القافلة الصغيرة القليلة العدد توشك أن تتحرك، وقد ملأت ضجة من كانوا فيها الصحراء بجلجلة صاخبة اختلطت فيها الأصوات هنا وهناك، هذا ينادي، وهذه تتعجل صاحبة لها، وتلك تصيح أو تذكّر رابعة أو خامسة بأن لا تهمل قضاء حاجة كانت ترجوها، وهي تبالغ في توصيتها بعدم التقصير أو الإهمال ليكمل لديها ما كانت ترجو أن يكون لها من متاع أو حليّ النساء.

وارتفع صوت الحارث بن عبدالعزيز وسط الضجيج الشامل ينادي زوجته حليمة بنت ذؤيب السعدية لتخرج من الخباء، فالركب يكاد يتحرك في طريقه إلى مكة، ولم تعد هناك فسحة من الوقت تستوجب التباطؤ أو تدعو إلى مزيد من الانتظار.

ووصل إلى أذني الحارث صوت زوجته حليمة تخبره أنها إنما كانت تكمّل إرضاع وليدها الصغير قبل أن ترحل لتتركه في رعاية إحدى جاراتها، وهو شبع بعض الشيء، فعاد الحارث في ضيق يتعجلها. ولم تمض سوى لحظات خاطفة حتى كانت حليمة تسرع إلى الخارج، وقد تركت وراءها الرضيع وطفلة أخرى، هي «الشيماء» ابنتها، وهي تلاحقها صائحة في لهفة، وهي توصيها ألا تبطئ هناك في مكة، وأن تعود إليها وإلى شقيقها الرضيع، ومعها الطفل المنتظر الذي ستتولى إرضاعه لأهله، فتصبح أختا لاثنين بدلاً من واحد، فيملأ

* العربي - عدد ١٥٠ - مايو ١٩٧١م.

عليها وحدتها ويبعدا عنها ما تحسه من رهبة الصمت وكآبة السكينة ووحشة هذه الصحراء.

ولم تنس شيماء أن توصي أمها مرة ومرات بأن تجتهد ما أمكن أن يكون الرضيع من أبناء أشراف مكة الموسرين، ليغدقوا عليها وعلى أمها ما تطمع أن يكون لها من الهدايا والهبات التي تفرّج الضائقة وتجعل الصغار من ساكنات البيد أمثالها يتخيلن أنهن بدورهن هانئات قريرات العين سعيدات.

ونظرت حليمة السعدية إلى ابنتها الشيماء نظرة حنان وعطف، ورفعت رأسها مبتهلة إلى الأرباب أن تحقق رجاء الطفلة، ثم التفتت إليها تعدها خيراً، وأسرعت إلى زوجها المنتظر مع الركب لتأخذ مكانها فيه.

وتحرّكت القافلة الصغيرة القليلة العدد، ومرة أخرى ساد الضجيج الصحراء، ثم تعالى رنين الأجراس الصغيرة المدلاة من أعناق الإبل، وأخذ يطن طنينه مألوف النغمات، وتجاوب معه ترنيم الحداة، وارتفعت وسط الصخب همسات النساء بالتوسل والرجاء والابتهال لتجد كل منهن الطفل الذي ترجوه من أبناء أشراف العرب وسادات قريش الذين كان من أدق تقاليهم الموروثة من قديم الأجيال أن يدفعوا بمواليدهم إلى مراضع بني سعد بن بكر ليشبوا هناك في قلب البادية، فتمتلئ صدورهم بهوائها النقي ويدرجوا في جو جاف صحي، ويشبّوا على الشجاعة والفروسية والإقدام، والجرأة، ويتخلقوا بطابع سكان الصحراء من كرم وإيثار وحب للنجدة، وفوق هذا كله تستقيم ألسنتهم، ويخلص نطقهم بالعربية السليمة المنقاة من كل الشوائب.

ووصل ركب مراضع بني سعد إلى مكة في النهاية، وانتهى به المطاف عند السادات من أشراف قريش، وأسرعت المراضع يعرضن أنفسهن، ويتسلمن فلذات الأكباد، وظفرت كل واحدة منهن بما كانت تبغي وتريد إلا حليمة السعدية، لقد وقفت حليمة أمام وليد قرشي، أهله في السنام الأعلى من العرب جميعاً، شريف ابن شريف، وسيد ابن سادات، وحسب لا يتطاول قرشي مهما سما وتعالى إلى حسبه،

ولكنه يتيم، وليته كان يتيماً موسراً أو على شيء من الثراء، بل هو يتيم يكفله جده، سيد مكة، ورأس قريش، عبدالمطلك بن هاشم بن عبد مناف.

ولم يكن من عادة مراضع بني سعد أن يتقربن من يتيم معدم أو يقبلن إرضاعه، فلا غناء فيه ولا تعويض، ولهذا انصرفت المراضع جميعاً عن اليتيم الهاشمي، وقد تحقق لكل منهن أملها، وفازت بالطفل الذي كانت تتمناه، إلا حليمة فلم يعرض عليها غير الهاشمي اليتيم الذي تولت «ثويبة» جارية عمه أبي طالب إرضاعه منذ مولده حتى مقدم حليمة.

وردت حليمة الطفل إلى أمه آمنة بنت وهب، ردته مرة بعد مرة، وكلما ردته ورفضت قبول العودة به إلى مضارب بني سعد في الصحراء، لإرضاعه هناك كالعادة، أسرعت تمد يديها فتحمله مرة بعد مرة، ثم تعيده إلى أمه.

إنها تريد طفلاً موسراً غير يتيم يحقق أمانيها، وتجد فيه ابنتها الشيماء الصغيرة الأخ الذي ترجوه، ويشرف قدرها به في قادم السنين، حين تأتيه زائرة، فيغدق عليها الأعطيات، ويكون لها الأخ المعوان الكريم السخي لا يبخل ولا يتردد في البذل.

ردت حليمة الطفل مرة بعد مرة، بالرغم من أنه لم يعد باقياً غيرها من مراضع بني سعد دون طفل تعود به، ثم عادت تسترجعه وتعيده بعد المرة مرات وهي تعجب لأمرها وأمره، ولشعورها الغامض بالحنان نحوه. ولم تجد في النهاية غير أن تغالب عاطفتها فتسرع مبتعدة، وليكن ما يكون حتى لو عادت دون ما كانت تبغيه، وما خرجت من ديارها من أجله، ولتنتظر مرة قادمة تجرب فيها حظها عساها أن تجد الطفل الذي تتمناه.

ابتعدت حليمة السعدية، وتركت الطفل الوليد إلى آمنة أمه وإلى مرضعته «ثويبة» ثم أسرعت إلى حيث كان ينتظرها زوجها الحارث بن عبدالعزى، فقصت عليه كل ما حدث ولم تكتمه شيئاً على الإطلاق مما يجول في سريرتها.

ومرت اللحظات بطيئة ثقيلة، وساد السكوت بين الزوجين، ولم يكن

يعنيها أو يعني زوجها شـــيء بقدر ما يعنيهما ألا يعودا صفر اليدين، بلا رضيع، وقد يكـــون في هذا موضع للتندر أو الخوض في حديث، وأحاديث قد تخلقها مناسبة الفشل الذي منيت به حليمة.

وهمـــس الحارث في أذن زوجته، يســـألها لماذا لا تقبل الهاشـــمي الوليد بالرغم من أنه يتيم؟ فعادت في ضيق تقول إنه يعرف الســـبب وليس في حاجة إلى شـــرح أو بيان. فيعود يسألها: وإذا كانت النساء من بني سعد يرفضن كل يتيم شبه معدم، فمن يرضع الوليد؟

وهـــو لن يكون عالة على حليمة أو على زوجها مادام هناك أهلوه، وهؤلاء سوف يتولون الإنفاق عليه، ويعملون على إرضاء مرضعته!!

وتعود حليمة مرة أخرى وتقول إن الشـــيماء الصغيرة ترجو أن تعود إليها برضيع من الموسرين لعلها تنال عن طريقه بر أهله وما يقدمونه لهـــا من منح وعطاء. وأمـــام ذلك لم يجد الحارث ما يقوله وإن أبدى ضيقه البالغ من أن تعود زوجته دون رضيع.

والواقع أن حليمة بنت ذؤيب نفسها كانت في حيرة من أمر الرفض الذي أصرّت عليه، بل من أمر إصرار القدر على أن يعرض عليها هذا الرضيع اليتيم بالذات، حتى لقد جعلت تســـأل نفسها مرة بعد أخرى وهـــي في كل مرة تتهرّب من الجواب: لماذا عادت إلى الرضيع بعد أن ردتـــه ورفضت إرضاعه، ثم لماذا عادت تحرّكه وتحدّق فيه النظر في حـــدب وعطف وحنان، تتفرس ملامحه الدقيقة، ووجهه الملائكي و.. هدوءه الغريب وصمته العميق، وما اتسم به من ابتسامة رضية وضاءة زادته سماحة وإشراقاً.

لماذا اهتمت به؟ لماذا حدقت في وجهه عشرات بل مئات المرات؟

لقـــد وجدت فيه ما لم تجده في طفل رضيع من قبل. لقد أرضعت من قبل الكثيرين من أشراف العرب، ورأت، وسمعت، وعرفت، ولكن.. هذا الطفل الهاشمي .. إن فيه مالم يكن في غيره، وإنها لتحس ذلك، ومـــن أجل هذا، وبالرغـــم من انصرافها عنه تقـــاوم عاطفة الرجوع إليه.

واســـتطاعت عينا الحارث بن عبد العزى أن تصلا إلى أعماق قلب حليمة بنت ذؤيب زوجته، إنها حائرة، لا تريد اليتيم مرة، وتريده مرات،

تهرب منه مرة، وتشعر بالحنين إلى العودة إليه وحمله بين يديها مرات ومرات،. إنها ولاشك تحس نحوه بعاطفة حنان وإشفاق.

ومال الحـــارث على أذن زوجته يقول لها إن العـــودة بيتيم من بني هاشم وإن لم يكن موسراً خير من العودة من دون أحد.

ولقد أنس الحارث في حليمة زوجته الرغبة في الإنصات إليه كمن ارتاحت إلـــى ما كان يقول، ثم الرغبة بعد ذلك في النزول على رأيه، فعـــاد يصل في ســـرعة ما انقطع من الحديث وهـــو لا يفتأ يقول إن العودة بطفل خير من العودة صفر اليدين.

وأسرع الرجل يلمس ماتحس به من عاطفة تجاه هذا الوليد، فأخذ يؤكد لها أن الأحداث نفسها قد تخلف الظنون، وأن ما انعقدت الآمال على ثرائـــه وندى أهليه وعريض غناه قد يبدله القدر ويغيره الدهر، فينقلب به من حال إلى حال، في الوقت الذي يقبل فيه الحظ بوجهه الضاحك علـــى المعدم اليتيم، وأنه هو نفســـه بعد هذا كله يحس أن حليمة تغالب رغبتها في قبول إرضاع الهاشمي اليتيم، لكنه يستبشر به وينصحها أن تستجيب لدواعي الحنان والعطف وتقبله.

وهكذا، عادت حليمة بنت ذؤيب إلى مضارب بني سعد بأسعد الأيتام وأذكى مواليد الله فـــي أرض الله، وأكثرهم يمنا على العالمين، عادت حليمـــة إلى مضارب قومها تحمل محمد بـــن عبدالله بن عبدالمطلب وقد ضمتـــه إلى صدرها في حدب ورعاية، وكأنهـــا تضم إليها كنزاً مليئاً بالسعادة والحظ والثراء.

هللت الشـــيماء فرحاً بمحمـــد، وأقبلت عليه إقبالاً جعلها تنســـى رعاية أخيها الشـــقيق، فلم تحمل غير محمد، ولم تلاعب إلا محمداً، ولم تكف طوال ساعات اليوم عن نداء محمد باسم الحبيب الذي هدأ له قلبها وارتاحت إليه نفسها.

ويعم الأسرة فرح عريض، ويعود الحارث ليرقب ما حواليه وما كان يحوطه ويملكه، لقد درت النعاج اللبن بأضعاف ما كانت تعطي، وزكت النوق واخضر الكلأ القليل.

وســـأل الحارث نفسه، أهي ابتسامة الحظ، أم بركات المعدم اليتيم تعم بني ســـعد جميعاً وتغمرهم بالخيرات؟! وأقبل على حليمة يهمس

لها بما دار، فإذا بأفكارها هي الأخرى تدور في ذات المدار الرحيب، وتحوم حول الشـــيء نفســـه، وترى في محمد ما كشفت عنه بصيرة الحارث، وتلمح آيات بركته ويمنه وحظه الوفير.

ومرت الأيام، وتخلفت حليمة بمحمد إلى مكة مرة أو مرتين، كانت تعود به بعدها ســـريعاً إلى مضارب بني ســـعد فتتلقفه الشيماء في لهفة وتسارع به إلى المراعي، تلاعبه وترفّه عنه.

كان محمد نســـيج وحده بين الأطفال، أبدا ما سمعته حليمة باكياً، أو معولاً أو متبرما بنفســـه عن أمثاله ومن في سنه من المواليد، كان هادئاً دائماً، باسم الوجه، مشرق القسمات.

واعتادت الشـــيماء أن تصحبه معها دائماً في الغدو والرواح ومعها شقيقها الذي يقربه سنا، فكان ثلاثتهم يختلفون إلى المراعي والمروج، ومحمد يومها ابن ثلاث أو أربع ســـنوات، ليرعى مع الشيماء وأخيها الشقيق أغنام الحارث وحليمة، ولتتم بذلك السنة التقليدية التي تميز الرســـل الكرام من بدئهم الحياة في الرعاية والحراسة ليتدربوا على رعاية العالمين وحراستهم فيما بعد.

لقد عاش اليتيم في الصحراء في كنف حليمة، ورعايتها، ودرج مع ابنها الذي في مثل ســـنه وابنتها الشـــيماء التي كانت تكبره بسنوات قلائل جداً.

وبقي في مضارب بني سعد بن بكر حتى بلغ الخامسة أو السادسة ثم عاد إلى أهله في مكة ليعيش في كنف جده ثم في رعاية عمه أبي طالب بعد ذلك.

جاء محمد إلى الدنيا يتيماً مات أبوه، ثم ماتت أمه آمنة بنت وهب، ثم شـــبّ في رعايـــة جده ومن بعد جده عمه. لـــم تذله الأحداث، لم يتعـــرض لهزات ضياع اليتامى بين الأهـــل، وذلك لأن الله كان يرعاه، وكان يريد له هذه النشأة الأولى لحكمة جلت على الأفهام.

﴿ألـم يجدك يتيماً فآوى * ووجـدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى﴾

وتزوج محمد خديجة بنت خويلد، وما نسي الصحراء ولا مضارب بني ســـعد، وإن حليمة نفســـها على إجماع الروايات لتأتيه ذات مرة

تطلب نداه، وتسأله جوده، وقد أجدبت الصحراء عامها ذلك، وكانت مجاعة أذلت القوم. واضطرت إلى استمطار ندى أهل النجدة والجود، وأسرع محمد يصل أمه حليمة ومن مال خديجة زوجته، حتى عادت إلى قومها، وقد برها اليتيم الذي خشيت يتمه ذات يوم، وأغناها الله به عن الناس في ذلك العام.

ثم مرت بعد ذلك أعوام، وجدت أحداث بعد أحداث، وبعث محمد بدين الحق، وخرج على العالم برسالة الله، ثم هاجر وترك مكة، واستقر وعاش في المدينة، ثم هاهو ذا يعود إلى مكة فيحل له الله البلد الحرام دون حرب أو قتال، ويفتحها فتحاً مبيناً، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ولقد طرق اسم محمد أسماع بني سعد وبقية أهليهم وعشائرهم من هوازن وثقيف، وتحدث به من ظلوا على كفرهم، وعبادة أصنامهم التي حطمها محمد يوم أتم الله عليه نعمة الفتح الأعظم، تحدثت عنه هوازن وثقيف والطائف كلها، ولابد أن أخته الشيماء قد تحدثت هي الأخرى عنه، وتخيلته في أمجاد فتوحه وانتصاراته الدينية.

ثم وقف بها الفكر عند هذا الحد، فبقيت حيث هي على دين قومها، وملتهم، وإن حدّثت الناس هناك عن أخيها الذي عظم أمره وانتشر بإذن الله دينه، ومن يدري، لعلها لولا ثقل السنين على منكبيها لسارت إليه إن لم تكن لتؤمن أو تعلن دخولها في دينه، فعلى الأقل لتراه وتعود ببعض آيات بره وعطاياه، وقد نبه ذكره كما تصوّرت وعظم أمره، ولابد أصبح في تصوّرها من ذوي المال.

ربما فكرت الشيماء في هذا كله، وربما طوّفت بخيالها هذه الصور والأمنيات جمعاء، ولكنها بقيت حيث هي في هوازن لتسمع ذات يوم أن محمداً، أخاها القرشي، قد اتجه إلى هوازن بجيش لم تشهد الصحراء ولا الجزيرة كلها له مثيلاً أو شبيهاً قبل ذلك اليوم، وأنه ورجاله يتقدمون لمباغتة هوازن وثقيف، وقد أجمع من فيهما على حربه ثم خرجت جموعهم اللجبة الزاخرة لقتاله.

وكان مالك بن عوف النصري هو صاحب فكرة الخروج، واتخذ مالك بن عوف النصري والخارجون معه أماكنهم، وانحازوا إلى حنين،

وتحصّنوا بمضيق عند الوادي، واستعدوا لتوجيه الضربة للمسلمين الذين كانوا يتقدمون، تملأ الخيلاء نفوسهم، ويملؤها الإعجاب بالكثرة العظيمة، حتى لقد استيقنوا أن النصر ملك أيمانهم وأن الهزيمة لابد واقعة بمالك بن عوف ومن تبعوه.

ووصل المسلمون في عتمة الليل إلى مشارف حنين وانتظروا حتى الصباح ثم تنادوا بالهجوم ودوت صيحة الحرب، وصاح مالك بن عوف في رجاله وقد رأى المسلمين يهبطون الوادي ليمطروهم من حيث هم بالنبال.

يالها من لحظات قاسية رهيبة، وموقف بالغ الحرج والضيق، نبال وسهام تترى ولا ملاذ ولا حمى ولا دروع تقي من الهلاك.

واضطرب المسلمون، واهتزت تحتهم الأرض، وشعروا بحرج مواقفهم وضعف مراكزهم الدفاعية، ووجدوا أنفسهم وبرغمهم قد وقعوا في كمين لم يحسبوا حسابه أبداً، فولى أغلبهم منهزمين.

يالجلال الإيمان، وعظمة القائد، تفر الجموع اللجبة وهو ثابت كالطود، لا يتحرك ولا يميل، بل زاد إيمانه بنصر الله وتأييده في أحلك ساعات الموقعة..!!

رسول الله مكانه في الميدان، وحوله قلة لا تغني، ولكنها قوة مؤمنة ثابتة القلوب، عظيمة الثقة في الله وفي قدرته!!

وصاح صائح أن عودوا يا أنصار الله والرسول، عودوا أيها المهاجرون الأوائل، عودوا يا أصحاب بيعة العقبة والرضوان، عودوا جميعاً يا من بعتم أنفسكم في سبيل مرضاة الله واشتريتم جنات عرضها السموات والأرض، عودوا فهذا أوان الشد، وقت التضحية والبطولة والاستشهاد، ولقد تفتحت أبواب الجنة التي كنتم بها توعدون!!

وتقدمت جموع هوازن وثقيف المنتصرة وقد انتشت بفرحة الظفر، تقدم أعداء الله من حيث كان يقف محمد وحوله جند الله وهم ساعتها قلة استهانت بالكثرة المتقدمة وسخرت من خيلائها، وأصرّت على إحراز النصر بمضاء العزيمة وقوة الإيمان. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

واستردّ الفارون ثقتهم وتسارعوا في قوة إلى الصف ليأخذوا

أماكنهم فيه، وأخـذت القلة تتكاثر وتتجمع، ومسـت القلوب حرارة الإيمـان وحلاوة الاستشـهاد وانطلقت الحناجر تهتـف في عنفوان واعتـزاز، الله أكبـر، الله أكبر، الله أكبر، لا إلـه إلا الله وحده نصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله محمد رسـول الله.

ودوى التكبيـر، ورنت الأصداء وجعلـت ترددها في حرارة وغضب قمم الجبال.

وظـل القائد مكانه ثابتاً كجبل أشـم، واسـتطاع المسـلمون وقد عاودتهـم نفوسـهم، وتطهرت من الخيلاء وشـرور الإعجاب قلوبهم أن يتقدمـوا، وأن يلقوا العدو وجهاً لوجـه والله في جانبهم، وذعرت هوازن، وامتلأت بالمخاوف قلوب ثقيف، وأحس بالندم والحسـرة كل مـن خرجوا معهم من القبائل الأخرى، وقد بدأت الدائرة تدور عليهم واسـتيقنوا أنهم أمام قوة غلابة، لا تقيم وزناً للحياة، بل تسـعى إلى النصر ولا شيء غير النصر، وإعلاء كلمة الله الذي يقول ﴿**ولينصرنّ الله مَن ينصره**﴾.

وجد أعداء الله أن الإصرار علي مواجهة القوة الإسلامية العاصفة جنون واستهانة بالحياة الغالبة، وما أسرع ما بدأت هوازن تولي الدبر، وفـي أثرها ثقيف ومن معهم من الحلفاء، لقد هزمت هوازن وثقيف، وفرّ مالك بن عوف صاحب فكرة تجمعهم والخروج بهم للقضاء على محمد. فرّ مالك إلى أسـوار الطائف وهو يرجو أن يحتمي بها من فتح الله ونصره.

هزموا، وخلفوا وراءهم الولد والمال والنسـاء، وسـيقت النسـاء سبايا ينتظرن قضاء الله وكلمة محمد عليه الصلاة والسلام.

وعلا بين سـبايا هوازن وثقيف صوت عجوز تصخب وتزمجر وتصيح في غضب وضيق، طالبة من المسلمين أن يخلوا سبيلها ويطلقوا سراحها، ويتركوها وشأنها، فهي أخت صاحبهم، وما كان لهم أن يسوقوا إلى الأسر أخت محمد..!!

أخت محمد..

ياله من ادّعاء أبى أن يصدقه المسـلمون وكلهم يعرفون أن رسـول الله

صلى الله عليه وسلم ليست له أخت ولا أخ شقيق أو غير شقيق!!

وانصرف المسلون عن العجوز المدعية ساخرين، وتركوها تصخب ما شاء لها الصياح والغضب، وقد سدّوا جميعاً آذانهم دون الاستماع إليها، لكنها ما كفت أبداً عن الصياح ولا عن الادعاء الذي سرى بين المسلمين مسرى النار في الهشيم الجاف، وانتشر في سرعة حتى أصبح حديث الناس جميعاً.

وعادت العجوز تصيح وتصيح، حتى لقد ظن المسلمون أن بالعجوز لوثة، فأقبلوا عليها مواسين يهدئون من ثائرتها ويطلبون منها أن تنتظر حيث هي صامتة راضية حتى يعود محمد فيرى فيها رأيه وينظر في ادّعاها الغريب. وسكتت «الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى» فقد كانت تطمع أن يصل صوتها إلى أذني محمد، أما ومحمد بعيد اليوم عنها في شواغل حربه فليس لها إلا أن تنتظر حتى يعود.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى «الجعرانة» واستقر بها بين الظافرين المنتصرين من رجال الله وجنده الغلاب المنتصر، عاد يجني والمسلمون ثمار النصر المبين غنائم لا حصر لها، إنها اثنان وعشرون ألفا من الإبل، وأربعون ألفاً من الأغنام، وأربعة آلاف أوقية من الفضة وستة آلاف سبية وأسير!!

نظر محمد إلى كل هذا، ثم رفع رأسه بالشكر والحمد إلى الله.

وأخذ رسول الله يقسّم الغنائم ويوزع الفيء بين المسلمين، وفي هذه الأثناء حضرت وفود «هوازن» وقد أعلنوا إسلامهم وشهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، بعد أن تبين لهم جميعاً أنهم كانوا في ضلال، عادوا ليذكروا محمداً بصلاته القديمة بهم، وأنهم هم أهله، وهم خئولته وهم إخوته، وفيهم درج وعلى أرضهم نشأ.

عادوا ليطالبوا محمداً الابن والأخ وابن الأخت برد أموالهم وأولادهم ونسائهم عليهم، يقولون له إنه ليس في الأسر سبايا من هوازن، بل في الأسر أهله وعشيرته، في الأسر عماته وخالاته.

وأطرق عليه الصلاة والسلام طويلاً، في حين استمر قائل القوم في مقاله، وقد عرف أنه مس الوتر الحساس من قلب الرسول الوفي الكريم.

اليـــوم غير الأمس الذي تولى وذهب وقد تقارب الأبعدون، وتلاقى الأهل والأحبة، وتجمع الشـــمل كل الشمل، وقد لفته كله رباط الإخاء الإسلامي، ولا ضير بعد ذلك، فهوازن قد دخلوا في دين الله، وأقروا بوحدانيته، وبأن محمداً عبده ورســـوله، لا ضير عليهم اليوم - وهم فعلاً إخوة محمد، ونســـاؤهم عماته وخالاته وحاضناته اللاتي كفلنه - أن يطالبـــوا برد أموالهم، فأموالهـــم ودماؤهم من اليوم حرام على إخوانهم في الله.

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رضا ما طلبه منه أهل هوازن، ويالهـــا من لحظات كانت هي قمة النصر الأكبر الذي أحرزه دين الله وحققه محمد رسول الله.

وجاء رجال محمد يقولون إن بين السبايا عجوزاً تدّعي أنها أخته.

وتقدمت الشـــيماء في بطء وهدوء!! ياالله!! لقد غامت عينا محمد تحت قطرات من دموع خفيفة، وغلبه الحنين، وجه حليمة بنت ذؤيب السعدية يهل عليه من وراء الحجب مشرقاً بالأمل، بل يعود إليه الآن ويراه رأي العين، حليمة الطيبة، حليمة البرة العطوف الحانية، الوجه الذي طالما أطل عليه في مهده، وأشرف عليه بالحب والرعاية يتقدم منه في صورة الشيماء.

إنه صلى الله عليه وسلم لم يزل يذكرها، يذكر هذا الوجه، ويتناسى أمـــام حرارة الذكرى الســـنين والغضون وشـــتى التجاعيد، يتناســـى العجـــوز المهدمة التي كانت تتقدم ويرى الشـــيماء، الطفلة التي كانت تكبره بضع ســـنين، والتي طالما حملته وصحبته لما اشتد عوده قليلاً، وخرجت به إلى المراعي، وراحا معاً يرعيان الأغنام.

الشيماء أخته، أجل أخته وإنه أخوها.

وهتف محمد ينطق باســـم الشيماء، وتهلل الوجه المتغضن ونطقت ملامحه بالســـعادة، ووقفت صاحبته تقول في انفعال، أنا الشـــيماء يا أخي محمد الصغير، أيها القرشي الطيب الذي لم تستطع الأعوام أن تأتـــي على ذاكرته، وأبت مكانته المتســـامية إلا أن تزيده قرباً من أهليه ولو تبدل بهم وجه الدنيا، وتغيرت الأحوال.

وقام رســـول الله الكريم صلى الله عليه وســـلم مـــن مكانه يرحب

بأخته الشـيماء، ويضرب أروع المثل في الحـدب والرعاية عند رؤية الأهل وذوي القربى، قام محمد يرحب بالشـيماء وأعد لها مجلساً إلى جانبه أجلسها فيه، وأقبل عليها يحبوها بالبر والحدب والحنان، وبالغ فـي إكرامها والترحيب بها، ثم خيرها بـين أن تبقى معه وفي رعايتـه، أو تعود فتلحق بأهلها مسـلمي هوازن الذين دخلوا في دين الله.

لم تكن الشـيماء تعدل بجوار محمد شـيئاً فـي الوجود، وما كان أسـعدها حين طلب إليها البقاء في جيرته وحماه، ولكن، كان لها في قومهـا الأهل والولد، وكان لها فـي أرض هوازن الحنين والذكريات، وإذا هـي بعد تفكير تقول إنه يسـعدها أن تكون فـي جوار محمد، ولكن لابأس أن تعود إلى أهلها، فهي في سن لا تسمح لها بالاغتراب والابتعاد.

وأكرم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وفدها، ووصلها بصلات عدة، وتمنى لها العافية وتركها تعود مع وفد هوازن وسائر مَن كن في الأسر من النساء والأولاد.

نسيبة بنت كعب*

كفرت قريش العاصية بدعوة محمد إلى الإسلام، وأبى سفهاؤها أن ينصرفوا عن عبادة الصنم إلى الوجدانية المطلقة والإيمان بإله واحد لا شريك له، ولا أم ولا ولد، ووقفوا صفاً واحداً عنيداً يعارض رسول الله ويحارب دعوته.

واستمر المجاهد العظيم في طريقه غير عابئ بالإيذاء والصعاب ليبلغ دعوته السامية العظمى، ويصل بها إلى حيث أراد لها أن تكون.

وآمنت بمحمد قلة من قريش، كان في تكاثرها المحدود النطاق بعد ذلك، ما شجّع رسول الله على الإعراض عن الجاهلين، والاستهانة بالمخاطر، وجعله يخرج بالدعوة من نطاق سريتها إلى حدود العلانية المطلقة التي تبدت في هجرتها الأولى إلى ثقيف، يدعو أهلها إلى الإسلام، وفي عرض نفسه ودينه على القبائل الوافدة على مكة في مواسم الحج.

وهكذا نجح محمد عليه الصلاة والسلام في إثارة اهتمام العرب جميعاً بأمر دينه ودعوته، ولم تعد قريش وحدها هي التي تذكر جرأة محمد على أصنامها، ومجاهرته ببطلان العبادات المتوارثة، بل شغل هذا الحديث قبائل الجزيرة العربية جمعاء، لأن الدعوة سفهت الأحلام كافة وجهرت ببطلان عبادة الأحجار، ونادت بالوحدانية، والإيمان بالله.

لقد كان للدعوة الجريئة صداها في كل قلب، وكانت قلوب الحجيج من أوس يثرب وخزرجها، أشد القلوب تأثراً بما سمعت، فركنت إلى صاحب

* العربي - العدد ٥٩ - أكتوبر - ١٩٦٣م.

الدعوة، وأصغت إليـــه، ونفذت إليها ومضات النور المقدس فآمنت بدعوة الحـــق، فدخلت دين اللـــه، وواعدت محمداً على اللقاء في موســـم الحج القادم، بعد أن بايعته على السمع والطاعة، وجعلت من نفسها، وهي القلة القليلة، طليعة التبشير في بلادها بدين الإسلام.

وتقاربت الرءوس في يثرب، واســـتمرت الطليعـــة المجاهدة في غزوها الفكـــري، ترتاد النفـــوس الظامئة إلى نهلة الوحدانيـــة، فتلقى فيها بذور الإيمان التي كانت لا تلبث أن تؤتي عظيم الثمار.

وتكاثرت القلـــة اليثربية، كثرة محدودة، حققـــت أول وحدة روحية بين الأوس والخزرج أعداء الأمس، الذين أصبحوا إخوة في الدين، وفي شهادة أنه لا إله إلا الله وأن الصادق محمداً رسول الله.

والتقـــى مســـلمو يثرب مرة ثانية برســـول الله في موســـم الحج، وكان عددهـــم قد تضاعف وروابط الإخاء بينهم قد اشـــتدت، وكان بينهم هذه المرة امرأتان، إحداهما لم يذكر الرواة اســـمها، وكانت الثانية نسيبة بنت كعب.

وشـــهدت نســـيبة بيعة العقبة الثانية مع قومها من أهـــل يثرب، طليعة الزحف الإسلامي هناك، ولقيت سيدنا رسول الله وقد وافاهم في الموعد مـــع عمه العباس بـــن عبدالمطلب، وأعطته ببيعتها على الســـمع والطاعة والجهـــاد، وأن يمنعـــوه ويقفوا دونـــه ودون دعوته، ويناصـــروه على حرب الأحمر والأسود بالنفس والمال.

ولقد كان انتصاراً للدعوة الإســـلامية، أن تدخلهـــا المرأة، وأن تقف مع الرجل في ميدان الجهاد في صف واحد، وتبايع وتقسم على التضحية في سبيل العقيدة، وفي هذا القسم العظيم ما فيه من تضحيات جسام أهونها الوقوف في وجه العشيرة، والنضال المستمر حتى يتم نصر الله.

وكانت نســـيبة بنت كعب صادقة الإيمان، قويـــة العقيدة، قدرت إيمانها حق قدرة، وعرفت ما يعنيه إسلامها من طاعات، وما يفرضه من فضائل، وما يقضي به من تضحيات.

ولما كانت نســـيبة قد تفهّمـــت الدعوة، وعرفت ما يعنيـــه اتباعها، فقد استطاعت في ثبات وجلد أن تحمل الأمانة، وتعد نفسها وما ملكت لأعباء ما ســـوف تفرضه تلك الأمانة من جهاد شـــاق مرير، يعطيها القدرة على

أن تقف دون المعتقـــد، تذود عنه، وتدعو إلى نصرته، لأنها إنما قد أقبلت بقلب ســـليم على تفهّم مرامي الإســـلام، لتبشر به في نطاق المحيط الذي كانـــت تعيش فيه إذا ما عادت إلى يثـــرب، واجتمعت بأهليها، وصاحباتها من اليثربيات.

ونســـيبة بنت كعب يوم أصغت إلـــى داعية الدين وآمنت به قبل أن تلقى رســـول الله في مكة، كانت تعلم أنها مقدمة على تجربة خطيرة، ومغامرة سوف تغضب لها العشائر، وأنها يوم تكفر بعبادات أهلها ومعتقدات العرب جميعاً، فإنما تعرض نفسها للمخاطر والأهوال وتقحم نفسها فيما لا دخل للنساء فيه.

كانت نســـيبة تعرف ذلـــك كله، وبالرغم من هذا لم تقم وزناً لما ســـوف يحدث، واتبعت الطليعة اليثربيـــة المؤمنة وخرجت من ديارها بقلب مفعم بحب التضحية لتلقي رسول الله وتنصت وتستمع إليه، وتستمع إلى قومها من المســـلمين الذين زادهم الله إيماناً بدينه، وهم يقولون للرسول الكريم إنهم أهل البذل والعطاء، وأنهم رجاله وأنصاره، الذين يعرفون معنى الوفاء بالعهد، وأنهم ينتظرون أوامره كي يوجههم حيث شاء، وأنه يكفي أن يشير صلى الله عليه وسلم إليهم فيميلوا لفداه بأسيافهم على كفار قريش الذين يعارضون محمداً ويؤذونه ويرفضون الإيمان بدينه، واتباع دعوته!!

سمعت نسيبة بنت كعب هذه الكلمات المتوقدة، وحذرت ما تعنيه، وقدرت موقف قومها وموقفها إذا ما أقدم أهلوها على تنفيذ وعدهم وهم في دار غربة وموسم حج، فلم تهن، ولم تتزعزع، بل امتلأت بالقوة نفسها، وتوثبت روحها إلى النضال في ســـبيل العقيدة، وعرفت مقدما دورها في الصراع الرهيب الذي تمنى اليثربيون إثارة نقعه ليبرهنوا على ولائهم لرسول الله، وتمسكهم بالدين القويم، ودعوة الحق، ووقوفهم دونها، ودون صاحبها كما واعدوه!!

ولمـــا كانت دعوة محمد دعوة ســـلام وإقناع بالحســـنى، فقد شـــاء الله ألا يحـــدث بين وفد مـــن وفود الحجيج حدث تتأذى لـــه القبائل العديدة، ويســـيء إلى الصلات الخالدة، ويعكر الصفاء المفروض في مواسم الحج، وأبت قدرته جل وعلا ألا يميل مســـلمو يثرب على القريشـــيين بأسيافهم، وأن يتركوهم إلى يوم قريب يشـــرع فيه الجهـــاد، ويصبح فريضة على كل

المسلمين لإقرار الحق، وإعلاء كلمة الله.

وهكذا، تبدت العاصفة قبل أن تثور، وأمام سماحة رسول الله وتسامحه، هدأت ثورة مسلمي يثرب، وامتلأت قلوبهم باليقين والتسامح، حتى أنهم بعد ذلك، وبالرغم من اعتداء سفهاء قريش عليهم وقد علموا بأمر اجتماع العقبة، واحتجازهم لسعد بن معاذ بوصفه سيد القوم المسئول عن اجتماعهم بمحمد ومبايعتهم له، لم يلجأوا إلى تحكيم السيوف لرد العدوان، بل إلى الإجارة، حيث أجارهم سيد من سادات مكة، أرغم القريشيين على فك إسار سعد، وتركه وحجيج يثرب ليعودوا إلى وطنهم في سلام.

وعادت نسيبة مع القوم بقلب غير قلبها الذي خرجت به من قبل، عادت بقلب ملأه الدين القيم، فتجسد لها صورة جديدة من صوره لم تفكر فيها من قبل، صورة التضحية والثبات وتحمل الشدائد في صبر وإيمان وأن لها في رسول الله الذي تحمل ما تحمل من إيذاء سفهاء قريش وعدوانهم - لقدوة حسنة.

وعرفت نسيبة بنت كعب، كما عرف المسلمون العائدون معها إلى ديارهم - أن دورهم بعد بيعة العقبة الثانية، إنما هو دور إعداد ودراسة وتفقه في الدين والعمل على نشره.

أما التفقه في الدين، فقد تبدى في الإقبال على سماع مصعب بن عمير الذي أرسله محمد عليه الصلاة والسلام إلى يثرب ليعلم المسلمين فيها أصول دينهم.

أما العمل على نشره، فكانت الدعوة إليه في السر وفي العلن.

وبدأت يثرب التي طالما مزقتها الحزبية المقيتة والخلافات المستمرة بين أوسها وخزرجها تجني أول ثمار دخول أهليها في الدين الجديد، فتوحدت صفا وهدفا، وتجمعت حول راية تكاثر المؤمنين حولها، فغسلت قلوبهم من الأحقاد، وطهرتها من عصبية الجاهلية اللعينة، فأحسّ الجميع أنهم قد صاروا قوة قادرة، على أن يكونوا رجال الله، أنصار رسوله، وأن دورهم الجديد بعد الإعداد، هو الخروج من حدود الإيمان السلبي إلى الإيجابية ذات التأثير، وأن عليهم أن يتقدموا في ذلك خطوات جريئة، تكون بدايتها نقل مركز الدعوة إلى ديارهم التي انتشر فيها الإسلام، ومخاطبة رسول الله في أمر الهجرة إليهم، ليبدأ بينهم مرحلة جديدة من مراحل الدعوة

والجهاد.

هجرة الرسول

وجاء أمر الله إلى رسوله بالهجرة من مكة إلى يثرب، وتبعته قريش الحاقدة، فرد الله كيد كفارها إلى نحورهم، وعادوا حيارى ينقمون، واستمر محمد وصاحبه الصديق في طريقهم إلى يثرب.

وخرج الأنصار يستقبلون المهاجر العظيم القادم إليهم بدين الهدى، ودعوة التحرر من الأوهام والثورة على الضلال، ولاشك أن نسيبة بنت كعب، كانت أشد اليثربيات فرحاً بهذه الهجرة، وأنها خرجت وحواليها من اهتدين إلى الإسلام من صاحباتها والجارات ليكنّ في استقبال المهاجر الحبيب وقد رحن يستقبلنه بالرياحين والزهور والأهازيج وهن ينشدن في حماسة وفرحة:

طلع البدر علينا
من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا
ما سعى لله ساع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرّفت المدينة
مرحبا يا خير داع
فلبسنا ثوب عز
بعد تلفيق الرقاع
فعليك الله صلى
ما دعا لله داع..

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، مدينته المنورة، ومنار دعوته الجديد، وسط أنصاره ومحبيه والمؤمنين بدينه، ووقفت نسيبة بنت كعب تغالب دموع الفرح، وهي ترى المختار وصاحبه الصديق يتقدمان نحو وطنهما الجديد، ومعقل الدعوة الإسلامية، وركيزة الانطلاق نحو الجهاد، وهي تتصور الغد المشرق بالأماني وعظيم الآمال، وقد استقر محمد بين

أنصاره، ودعوته تخرج من طور إلى طور جديد، تحمل طابع العزة المدعمة بالقوة التي تستهين بالصعاب، وشهدت يثرب المرحلة الثانية من مراحل إتمام وحدتها الشاملة، فلم يعد هناك أوس ولا خزرج، بل أنصار مسلمون، عزز الله بهم دعوة الإسلام، وآخى الرسول بينهم جميعاً، وبين إخوتهم المهاجرين الذين تبعوا محمدا إلى يثرب، وأبوا البقاء بين القريشيين.

وأخذت الدعوة طابعها الجديد، طابع الإيجابية والعمل.

وخرجت السرايا من مدينة رسول الله تجوب الصحراء، وتثبت للشانئين وكارهي محمد ودعوته أن الإسلام يفتح صفحة جديدة من صفحات النضال العملي الذي فرضه الله على جميع المسلمين.

وحرصت نسيبة على شهود مجلس رسول الله، وعلى السماع منه، والأخذ عنه صلى الله عليه وسلم، فكانت ترى في الدين كل يوم جديداً، وفي كل جديد طفرة بالبشرية المشوقة إلى التحرر، وإقرار الحقوق الإنسانية التي ثبتها التشريع السماوي الكامل، وأمر الله بها من فوق سبع طباق، وضمنها كتابه العزيز، وأظهر بالنسبة لها ولبنات جنسها حقوق المرأة، التي أحاطها سبحانه وتعالى بضمانات أنكرتها الجاهلية إنكار التحريم، كالميراث والزواج والطلاق والتعامل.

لقد كانت الجاهلية تعتبر المرأة متاعاً للرجل، وليس لها أن تطالب بتبديل هذا الوضع الذي ارتضته التقاليد الرجعية، وحرصت على الإبقاء عليه دون تغيير - فبدل الإسلام، وغير، وصار للمرأة المسلمة كيان معترف به في الوجود الجديد، زاد من تشبث النساء بدينهن، وشجع الكثيرات على الإيمان به لينتقلن من حال إلى حال.

وبالقدر الذي رحّبت به نسيبة بتقرير حقوق المرأة في كتاب الله، هللت وكبرت عندما نزل أمره تعالى بفرض الجهاد، فعرفت أنه لا تخصيص فيه ولا تمييز، وأنه كما فرض على الرجل، فهو فريضة ثابتة على المرأة، ومن واجبها أن تسهم فيه بنصيب يخفف بعض العبء عن الرجال.

وبدأت الظروف تهيء لواقعة قريبة بين المسلمين والكفار، وخرجت قريش بخيلها وخيلائها إلى ماء «بدر» لترهب المسلمين كما تصورت، وتعزز مكانتها بين العرب أجمعين.

وخرجت القلة المؤمنة من فرسان الله إلى الجهاد في سبيل الدين

والعقيـدة، وخرجت أم عمارة نسـيبة في مؤخرة الجيش تحمل السـقاء لعطاشى المجاهدين.

ودارت رحـى الحرب عند ماء «بدر»، وزلزل اللـه يقين قريش الباغية، وحطـم أحلامها وأذل كبرياء سـفهائها أعـداء الله، ومكّـن من رقابهم للمسلمين، وشهدت نسيبة آية النصر الكبرى، أيد الله بها عباده الصابرين المؤمنين.

ودار الزمن دورته، واسـتعدت قريـش للثأر لهزيمة بدر، وخرجت تحت راية أبي سفيان بن حرب لترد الإهانة، وتستعيد مكانتها وتسترد اعتبارها، وكان الموعد عند أحد.

وخرجت أم عمارة نسـيبة بنت كعب، لتقوم بدورها في الجهاد، وحملت سقاءها وسارت في مؤخرة الجيش الذي حقق نصراً على الكفار في بداية اليوم، وضربهـم ضربة مذهلة، جعلتهم يفرون تاركـين في ميدان «أحد» متاعهم، وما كانوا يحملون من عروض، أغرت كثرتها رمّاحة المسلمين على ترك مواقعهم التي أمرهم رسـول الله بالثبات فيهـا، ففتحوا بذلك ثغرة لفرسـان قريش، وعلى مقدمتهم خالد بن الوليد، فهجموا هجمة أشاعت الفوضى، وغيرت مجرى الحرب، وجعلت ريح النصر في صف الكفار.

وعـادت قريش الهاربة لتعزز هجوم فرسـانها، ولقيت فلول المسـلمين الذين تفككت وحدة صفوفهم - في موقعة رهيبة أشاعت الفوضى وبلبلت الخواطر، وجعلت المسلمين يفرون طلباً للنجاة.

وكما ترس الفدائي البطل، أبودجانة، رسـول الله بجسـده، ووقف دونه سـهام قريش، كذلك وقفت نسـيبة الموقف نفسـه، فلم تترس الرسـول بالجسد، بل راحت تحاول حمايته والذود عنه بحد السيف.

وأشـاع الكفار وقتها أن محمدا قد قتل، وهانت الحياة في عيون القلة التي ثبتت من المسـلمين، وصاحت أم عمارة نسـيبة: ما طعم الحياة، بعد رسـول الله، وما قيمة الحرص عليها، ووقفـت وزوجها وولداها بين يديه صلى الله عليه وسلم يذودون عنه، والناس يمرون منهزمين.

ورآها عليه الصلاة والسلام..

رأى المسلمة الأولى التي بايعته في العقبة على السمع والطاعة، وأقسمت أن تفديه وتقف دونه، مستهينة بالروح والمال، رآها محمد في موضع الوفاء

بالعهد، وقد تصدت للدفاع عنه في حين فر الرجال.

رآها صلى الله عليه وسلم ولاترس معها يحميها من وقع السيوف وتكاثر السهام وهي ثابتة صامدة مستهينة بالحياة.

ورأى عليه الصلاة والسلام في المكان ذاته رجلا موليا وفي يده ترسه فناداه أن الق ترسك لمن يقاتل.

ورمى الرجل الهارب ترسه، وأسرعت نسيبة إليه، فالتقطته في سرعة، وعادت إلى مكانها لتدافع وتذود عن رسول الله إلى آخر النهار، حتى هذا النقع الثائر، وخيّمت الظلمة على الميدان، وبدأ المسلمون يستردون روعهم، ويندمون على ما فات من أمر عصيان رماحتهم لتوجيه الرسول الكريم، فكانت هزيمة أحد.

وأن نسيبة بعد ذلك لتروي القصة المثيرة بنفسها، ويسمعها عنها ابن هشام فيسجلها في سيرته قائلاً:

«دخلت على أم عمارة، وقلت يا خالة أخبريني، فقالت: خرجت يوم أحد ومعي سقاء وفيه ماء، فانتهينا إلى رسول الله وهو في أصحابه والدولة لهم والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون اتجهت إلى رسول الله، فكنت أباشر القتال وأذود عنه بالسيف وأرمي عنه القوم.

وتستمر نسيبة بعد ذلك في روايتها المثيرة وهي تقص أنباء واقعة أحد، وموقفها منها، وحواليها ولداها وزوجها وهم يدافعون عن رسول الله، ويصدون المهاجمين عن الاقتراب من مكانه الذي لجأ إليه صلى الله عليه وسلم حتى تقول:

«وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رجّالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله فأقبل رجل على فرس فضربني، وتترسّت له، فلم يصنع سيفه شيئاً، وولّى. وضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصيح: يا ابن أم عمارة، أمك.. أمك فعاونني حتى أوردته شعوب».

ويمضى الراوية في حديثه عنها فيقول:

«فظلت أم عمارة تقاتل، وتداوي الجرحى وتسقيهم الماء، حتى جرح ابنها عبيد بن زيد وجعل دمه يسيل وهي لاهية عنه بقتال الأعداء، حتى نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنها، فقال: اعصب جرحك.

فتنبهت إلى ابنها وأقبلت عليه ومعها عصائب حقويها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحه والنبي صلى الله عليه وسلم واقف ينظر إليها. ثم قالت لابنها: «يا بني انهض فضارب القوم».

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من يطيق ما تطيق أم عمارة؟! «ثم أقبل الرجل الذي ضرب ابنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا ضارب ابنك!

فقالت: فاعترضته فضربت ساقه فبرك.

فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم حتى رأيت نواجذه.

وقال: استقدت يا أم عمارة.

ثم أقبلوا يعلونه بالسلاح حتى أتوا على نفسه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم، الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينيك.

وهكذا، حاربت نسيبة حيث فر الفوارس الصناديد، وثبتت، حيث عز عليهم الثبات، وبذلت الروح في رضى وسخاء لتحمي رسول الله من غارات الكافرين، وانتصرت في يوم كان النصر فيه، شيئاً عزيز المنال.

ووفت نسيبة بالعهد كاملاً لله ورسوله، وعادت بعد «أحد» مع العائدين إلى يثرب وهي تحمل وسام المعركة، جرحاً على عاتقها، أجوف له غور، لم يعقها عن استئناف الجهاد يوم نادى مناديه، بل كان حافزاً لها ومشجعاً لتغامر في جولة جديدة وجهاد مستمر، في سبيل إعلاء كلمة الله.

هذه كانت أم عمارة، نسيبة بنت كعب، في حياة الرسول، فترى ماذا فعلت بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الملأ الأعلى.

هل ركنت إلى الراحة، وحياة الدعة، وخبت في نفسها جذوة النضال في سبيل نصرة الحق، فماتت حماستها، وتركت أمر القتال إلى فوارس الحق وحدهم، ودونها هي، وهي صاحبة الماضي العريق في التضحية والاستبسال!!

لا.. أبداً ما قصرت نسيبة عن اللحاق بركب النضال الإسلامي، ولا فاتها فرصة القتال. وإنا لنراها في نفس مكانها العتيد يوم حروب الردّة، أيام خليفة رسول الله أبي بكر الصديق، وقد خرجت وفي الجيش ابنها: «حبيب» الذي لقي الشهادة في وقعة للمسلمين مع جيوش مسيلمة

الكذاب، فلم تهن المسلمة المجاهدة، ولم تضعف، ولم تؤثر فيها الصدمة، بل زادتها تصميماً على القتال، وجعلتها تعاهد الله أن تقاتل في صفوف المسلمين تحت لواء خالد حتى تقر عينها بموت مسيلمة، أو تنال الشهادة وتلحق بابنها وتلقى الله.

ودارت موقعة اليمامة، ونسيبة في صفوف المقاتلين إلى جانب ابنها الثاني عبدالله، وحملت مع جيش الله المنتصر حملة صادقة على الكذاب مسيلمة وأتباعه حتى تم النصر وقتل الكذاب اللعين، وماتت فتنته.

وانتصر المسلمون، وخرجت نسيبة تحمل من آثار المعركة الثانية وساماً آخر، وساماً أرفع من وسامها الأول. لقد فقدت إحدى ذراعيها، وكسبت للإسلام نصراً، وللمسلمين عزة وكرامة: ولم يكن فقد الذراع هو الوسام الوحيد الذي نالته نسيبة يوم «اليمامة» لأن جراحها التي أصيبت بها: فعلا في الموقعة، كانت اثنى عشر جرحاً، بين طعنة سيف وضربة خنجر وشكة رمح.

وعادت الجيوش الظافرة، إلى ديارها بعد أن قضت على عدو الله، وعززت مركز الإسلام ومكانة المسلمين، وعادت معها أم عمارة إلى بيتها.

وجاءها خالد بن الوليد زائراً، ورأى جراحها العديدة، فأمر الرجال بمداواتها بالزيت المغلي، فكان ذلك أشد عليها من البتر!!

رحم الله أم عمارة

وعاشت نسيبة بعد ذلك حياة دعة وهدوء برغمها، وسجلت لنفسها في أسفار التاريخ الإسلامي والجهاد المحمدي، ذكرا نابها، ويكفي أن قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم «أحد»: ما التفت يميناً أو شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني.

رحم الله أم عمارة وجزاها عن المسلمات والإسلام خير جزاء، فقد رفعت من شأن المرأة العربية وأثبتت أنها لا تقل شجاعة ولا فدائية عن أقوى الرجال.

أُم الشهداء *

سوامر مجون تنطلق من جنباتها أصداء المرح، وضحكات النشاوى، وشدو القيان، وهن يتمايلن مع دقات المزاهر والدفوف، فيتعالى الصخب، وتدوي الجلبة، حتى لتصم آذان القوم عن الإصغاء إلى كلمة حق، أو دعوة صدق، أو همسة نصح.

بل من كان يصغي، ومن ينصت وسط مجتمع قام على الصخب، وكانت الفوضى دعامة وجوده القلق المهتز، الذي بلغ ذروة التردي والانحلال.

مجتمع ماجن فاسد، سادته الجاهلية العمياء، وتحكمت في أهله النزوة، وتملكتهم الرغبة.

في ذلك المجتمع الفاسد، المتهاوي الموشك على الانهيار، عاشت هي، قوية متعالية، تصر على البقاء، وتكره أن تنحني لريح الأحداث، أو زعازع التقاليد.

ندية حلوة، كزهرة تفتحت لأنداء الفجر، نضرة كأقاحي الربى.

وسعى الخاطبون إلى حماها، ولكنها صدت وأبت، وكأن قلبها لم يكن بعد قد عثر على بغيته، أو تحققت أمانيه، في فارس الأحلام الذي كانت ترجوه، ويطيب لها أن تعيش في ظله، وتحيا في حماه.

كان اسمها «تماضر».. وبقدر ما كان في اسمها غرابة كان له وقع في الأفئدة والقلوب.

كان أبوها «عمرو بن الحارث بن الرشيد» سيد قومه وعظيم أهله،

* العربي - العدد ١٨٠ - نوفمبر ١٩٧٣م

وكان لهـا أخوان هما «صخر» و«معاوية» وكانا من أجرأ الشـباب العرب وأكثرهم شجاعة وإقداما.

وتعود أهلها، بل وكل من تمناها شريكة عمره أن يكنيها باسم «أم عمرو» فغلبت عليها هذه الكنية، وإن اشتهرت وعلا صيتها باسم «الخنساء» بعد ذلك، إذ كانت من شـواعر العرب المتفوقات اللاتي كانت لهن في مجالي الشعر أمجاد عرفها الداني والقاصي.

خرجت ذات صباح مبكر تسـتروح عبق الربى، وترى أشـعة الشمس تسـبق موكبها، متهافتة على الصحراء الوسـنانة، كمـن توقظها لتهب فتحيا يوماً جديـداً في عمر الوجود، ووقفت «تماضر» سـعيدة مزهوة هانئة، فكل ما حولها كان يحفه الصمت ويجلوه الوقار، وتسـمه الطبيعة السـخية بميسم الشـاعرية الجمال، حتى لقد حلا لها أن تترنم بأبيات في قصيد، أو تشدو بنغم في شعر تصوغه وترويه، ولكنها آثرت الصمت على الشـدو، والتطلع في فتنة الطبيعة على التغنـي بجمالها الفياض، فراحت مزهوة سـعيدة تنصت وتتسـمع، وكأن عرائس أفق ذلك الصبح البهيج كانت تحف بها في مواكب الأحلام تزفها إلى عالم الخيال بنشيد عذب رقيق، وتنقلت بين نياق لأبيها، لتطلي التي أصابها الجرب بالطلاء المسمى «الهِنَاء» ليزول الجرب وهو ما يسمى أيضا «النقب».

ومر الوقت ولم يدر بخيال تماضر أن عينين كانتا ترقبانها في شـغف المأخوذ.

وبدأت الشمس تلقي من شعاعها ومضات خفيفة ضجرت لها الحسناء الفاتنـة، فلوت وجهها لتعود إلى الدار هانئة قريرة العين، فقد سـعدت بوحدة حبيبة ذات صبح مشرق جميل.

ووقف العاشـق مكانه يرقب مسيرها، وقلبه يخفق في لوعة من تمنى لو طال أمد الحلم السعيد.

كان «دريد بـن الصّمة» مغامـراً جريئاً، ومهاجمـا مرهوب الجانب، ومحارباً لا يشق له غبار.

وكان دريـد بن الصمة سـيد بني جشـم من هـوازن، عرفته الطائف وثقيف، وشهدت ببطولاته البطاح والربا، وشهدت بحبه للنجدة وبفضائله الركبـان، كان كبير القلب خصب الخيال وقد جعله إقباله على الشـعر

يشعر بالحب فكان يتلمس الجمال حيثما كان ليهيم به، ويعيش في اسار سحره، فلا عجب أن جذبه إليه في ذلك الصباح جمال تماضر وسد عليه حسنها مسالك تفكيره.

وذهبت تماضر تاركة في قلب سيد بني جشم حسرة وأسى.

فأسلم إلى الصمت نفسه، ثم سبقته عرائس شعره إليها فإذا هو يقول:

حيّوا تماضر واربعوا صحبي
وقفوا فإن وقوفكم حسبي
ما إن رأيت ولا سمعت به
كاليوم طالي أينق جربِ
متبذلا تبدو محاسنه
يضع الهناء مواضع النقبِ
أخناس قد هام الفؤاد بكم
وأصابه مس من الحبِ

لو أن من سلبت لب الفارس الشاعر لم تكن بنت عمر بن الحارث سيد القوم، ورجل المروءة والنجدة، وأخت معاوية وصخر لأقدم على سبيها والإغارة على أهليها، ولكنها كانت من نزواته في حمى جعلته يتبعها إلى دارها.

وأسرع عمرو بن الحارث يرحب بالضيف القادم، فقد عرف دريدا، وعرف قومه، وعرف مكانته.

وران الصمت على الضيف والمضيف، ولم يجسر أحدهما على قطع حباله، وتجاوز نطاقه، فقد رحب المضيف بالضيف القادم، ورد القادم التحية وحيّا، ثم.. حار الاثنان، فماذا كان يستطيع الشيخ أن يقول وهو يحس في نفسه أن دريدا قد جاء لحاجة، وأنه من الواجب أن يبدأ بها.

وطال الصمت بين الرجلين، ثم لم يلبث دريدا أن استمد من تردده قوة وجرأة، فتكلم وتقدم من الشيخ يسأله ابنته زوجة له.

خاطب له مكانته، ورجل له قدره العظيم في أهله وقومه، بل في شتى القبائل جميعا فهل يرده، ولكن، هل يقبله زوجا لتماضر المعتدة برأيها المعتزة بنفسها!!

لو أن بنت عمرو بن الحارث فتاة غير تماضر ابنته لأسرع وأعلن قبوله للخطبة ورحب بالمصاهرة ولكنها كانت أم عمرو، وأم عمرو يعرفها أبوها ويقدرها ويجلها أعظم إجلال ويؤمن بأنها صاحبة حقوق من الواجب أن تمارسها في حدود مقدرتها وفهمها، فلم يجد - وقد جاءها دريد بن الصمة خاطبا لتكون شريكة حياته - إلا أن يستأذن ضيفه لمدى لحظة واحدة يحمل خلالها الأمر إلى وحيدته الغالية، ويتعرف رأيها وهو يحدثها عن الفارس العالي المكانة، العظيم المقدار الذي طرق بابها خاطبا وجاء يرجو ودّه.

وأصغت تماضر إلى أبيها طويلا، وقد راح يحدثها عن دريد فارس الهيجاء والنجدات.

وبقي دريد ينتظر على لهفة وشوق، وأصداء كلمات ترحيب أبيها به ساعة فاتحه في أمر الزواج بها تدوي في أذنيه وقد قال له:

- مرحبا بك، لنعم الرجل أنت، وإنك لكريم لا يطعن في حسبه ولكن.. لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها من النساء، وأنا لا أملك أكثر من أن أذكرك لها.

وبقي دريد بن الصمة نهبا للهواجس والأفكار، في الوقت الذي أقبل فيه الأب على وحيدته فقال لها: إن فارس هوازن وسيد بني جشم قد أتاها طالبا يدها، وإنه من تعلم من سمو النفس وعلو الهمة، وعراقة المحتد، وكرم الأصل.

وراح الأب يطنب ويقول، والخنساء تستمع، حتى فرغ من حديثه وتولاه الصمت، وابنته صامتة هي الأخرى تفكر وتعرض الأمر على عديد من الوجوه التي عنّت لها، ثم رفعت رأسها في النهاية وقالت في صراحة عهدها فيها أبوها:

- أي أَبَتِ.. أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح، وأتزوج شيخاً؟ وكان قولها هو الفصل، وهو الجواب الذي لا يحتمل جدلاً ولا مناقشة، فأطرق الأب رأسه وقد تولته حيرة من لم يجد ما يقول لوحيدته التي كبر لديها أن تفارق أهلها وتتزوج غريباً عنها، بالغاً ما بلغ من الرفعة والمكانة والسمو، وأطرق لحظة أسرعت تماضر تقول له خلالها منشدة:

أتخطبني هُبِلت على دريد

وتطرد سيّداً من آل بدر

معاذ الله ينكحني حبركي
يقال أبوه من جشم بن بكرِ
ولوأمسيت في جشم هديًا
لقد أمسيت في دنس وفقر

(الحبركي: الضعيف الرجلين. والهدي: التي تهدى إلى زوجها).

وسكتت تماضر، ولم يحر أبوها جوابا، وإذا به يخرج من عندها إلى من كان ينتظره ووجهه تنطق ملامحه بكل ما كان.

لقد كبر لدى الأب الشيخ فعلا أن يردّ يد دريد بن الصمة، وعز عليه أن يصدمه بالحقيقة، فأحب أن يهون الأمر عليه، ويخفف من وقعه، وأقبل عليه متعثرا يقول: إن تماضر قد امتنعت عن الاستجابة له هذه المرة، وإنه يرى أن يحاول مرة ثانية، عساها توافق وترضى بدريد شريكا لحياتها، ولكن دريداً كره العذر، وأبى أن يتعلق بالوهم، وقد سمع بنفسه، وإذا به يقول للأب الشيخ في صراحة: إنه قد سمع ما كان بينه وبين ابنته من حديث.

ثم انصرف لتوه يتحرق غضبا، وقد كبر لديه أن يرد على هذه الصورة، وأن يكون هذا هو رأي تماضر فيه، وهو الشريف الكريم الحسيب، الكرار المغامر الشجاع الذرب اللسان، وقال من أبيات:

وقاك الله يا ابنة آل عمرو
من الفتيان أمثالي ونفسي
وقالت إنه شيخ كبير
وهل خبرتها أني ابن أمسي

وأقدم دريد بن الصمة الشاعر الفارس على هجاء تماضر الشاعرة التي رفضته، لكن عروس حلم الشاعر التي تخلت عنه كانت من الكرم بحيث أبت أن تستجيب لمن كانوا يتمنون أن يسعدوا بسماع معركة هجائية بين شاعر فحل، وشاعرة لها مكانتها، وإذا بها تقول لمن أرادوا جرها إلى حلبة التشاحن إنها ليست من القسوة بحيث تضرب دريداً ضربتين موجعتين.

وانتهى إلى هنا عهد تماضر بالفارس المغامر دريد بن الصمة، وعادت الحسناء تقبل من جديد على الحياة بوجه مستبشر سعيد، ولم يخطر

ببالها زواج، حتى تقدم رواحة بن عبدالعُزّى السلمي إليها، فقبلته زوجا وبدأت معه حياة ناعمة راضية.

ورواة السيرة هنا يقفون بنا موقف المستريب، الذي عجز عن تحديد مدى هذا الزواج، وهل طال أمده أم قصر؟ وهل نَعِم «رواحة» بالحياة السعيدة إلى جوار تماضر، أم حرمه منها الموت فتخطفه وتركها وراءه أرملة، لم يطل أمد ترملها إذ تقدم لها مرداس بن عامر يخطبها، فارتضته زوجا، وقبلته شريكا لحياته، وعوضا عن زوجها الأول، ودخلت بيته وعاشت ما شاء لها الله أن تعيش هانئة سعيدة، ترفل في بحبوحة النعمة.

ولما كانت حياة الصحراء في الجاهلية حياة غارات وتوثب وقلق، وعدم استقرار فقد عاشت تماضر هذه الحياة، ونعمت بخيرها، ولم تضق يوماً بمرها، حتى حدث أن قتل أخوها لأبيها صخر، أجرأ شباب العرب وأعلاهم في الفروسية كعبا، فثارت نوازعها، وبرح بها الحزن، حتى بلغ منها مداه، فانطلقت شاعريتها، ولم تكن تماضر قبل فجيعتها في صخر تهتم بالقصيد، ولكنها وبعد أن مات صخر، قالت فيه المراثي الباكية الطويلة، التي جعلتها على رأس شواعر العرب أجمعين. يكفي أن نستعرض أبياتا لبعض رثائها في صخر لنعرف بأي إحساس أقدمت على الرثاء، وبأي شعور جارف بكته.

قذى بعينك أم بالعين عُوَّارُ
أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدارُ
كأن عيني لذكراه إذا خطرت
فيض يسيل على الخدّين مدرارُ
تبكي لصرهي العبرى وقد ولهت
ودونه من جديد التُّرْب أستارُ
تبكي خناس على صخر وحقّ لها
إذْ رابها الدهرُ إن الدهرُ ضرارُ

ومن قولها في هذه القصيدة:

وإن صخراً لمولانا وسيدنا
وإن صخراً إذا نشتو لنحارُ

وإن صخراً لتأتم الهداة به
كـأنـه عـلـمٌ فـي رأســه نـارُ

ومن قولها:

أعـيـنـيّ جـودا ولا تجـمـدا
ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل
ألا تبكيان الفتى السيّدا
طويل النّجاد رفيع العماد
وســـاد عـشـيـرتـه أمـــردا

وذاع حديث تماضر، وشاع أمرها بين الشعراء، فكانت الوحيدة المرثية، وقد عرف لها فحول الشعراء تقدمها على الرجال في هذا الميدان.

وأخــذت مواكب الأيام تمر تباعاً، رتيبة، منظمة، لا يكاد يذهب موكب حتى يقبل آخر فيه مافيه من أحداث وحوادث تعودها الجاهليون فصاروا قطعة منها، أو صارت هي لهم كلاّ، و بعضا من كل، ثم...

ثــم توقفت المواكب كلها أمام حــادث جلل، ما كان للعرب به من عهد قبل ذلــك اليــوم، وهم الذين تعــودوا أن يصغوا إلى أنباء الثــارات المتعددة، أو التعرض بالقدح أو المدح، ولكن أن تعاب الأرباب، ويرتفع صوت بشــير نذير يسـفّه العبادات، ويقول للجميع: لا إله إلا الله الواحد الأحد، وإنه على كل شــيء قدير - فذلك أمر لم يتعودوه، وكانت مفاجأتهم به جدّ رهيبة، فكان أن تجمع من عاشــوا في فراق واختلاف ليقفوا أمام ذلك الداعية الجريء محمد بن عبدالله.

وظلت تماضر بعيدة عن الإســلام حيــث أراد قومها أن يكونوا، حتى أيد الله رســوله بالنصر الأعظم، والفتح الأكبــر، ففتح عليه مكة البلد الحرام، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا.

وخرجت ثقيف على الإجماع العام، وتصدوا للرسول الكريم، وكانت موقعة «حنــين» التي انتهت بفتح الطائف، وتحطيم آخر معاقل الأصنام وكان دريد بن الصمة فارس الهيجاء ممن لقوا حتفهم، وقد بلغ من الكبر عتيا، ولم يكن قد خرج للحرب التي لم يعد يصلح لها، ولكنه خرج للمشــورة والرأي، فكان في خروجه منيته ونهايته ومات جاهلياً أبى أن يعتنق الإسلام.

وبقيت تماضر، وكانت سنون العمر قد تقدمت بها، وإذا بالشاعرة البعيدة النظر تراجع نفسها، وتفكر في أمرها وأمر ذلك الدين الذي تعاظم وانتشر، فوجدت أنه من الضلال ألا تؤمن به، وأنه من الإجرام في حق نفسها أن تبقى في طريق الغواية والناس جميعاً يتبعون طريق الرشاد، فكان أن شدت الرحال، وهاجرت لتلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، في المدينة، حيث بايعت وأعلنت إسلامها، وشهدت أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم تماضر إليه، واستنشدها بعض شعره، وكان يطرب لها ويطالبها بمزيد مما كانت تقول، حتى لقد تعود صلى الله عليه وسلم أن يقول لها أكثر من مرة: «هيه يا خناس»!!

وبالرغم من أن تماضر كانت نعم المسلمة المخلصة لمبادئ دينها، المستمسكة بعقيدتها، لم تمتنع - وهي الأخت التي فجعت في شقيقها معاوية وأخيها لأبيها صخر - عن بكائها والعويل عليهما بصورة كان يأباها الإسلام، حتى لقد قيل في كثير من الروايات إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سمع بعويلها، فأقبل عليها في موسم من مواسم الحج، ونهاها عن البكاء والعويل، والتغني بمآثر صخر بصفة خاصة، ولم ينس أن يقول لها: إن البكاء لن يرد عليها ما فات.

والخنساء التي ضربت في مجال الشعر والرثاء والتصدي بأكثر من سهم، قال فيها جرير ذات مرة: «والله إني لأشعر الشعراء لولا هذه الخبيثة.. يقصد بها الخنساء».

أما بشار بن برد فقال إنه لم تقل امرأة قط شعراً إلا تبين الضعف في شعرها. فسألوه وهل الخنساء كذلك؟ فإذابه يقول: إن الخنساء فوق الرجال!!

ومن الغريب بعد هذا الإجماع على صدق شاعرية الخنساء وتفوقها أن الأصمعي كان يقدم عليها ليلى الأخيلية، ولكن المبرد كان أكثر منه إنصافاً، فأحقّ الحق، ولم يقدم ليلى على الخنساء، ولا الخنساء على ليلى، بل قال في الاثنتين: إنهما كانتا فائقتين في أشعارهما متقدمتين على أكثر الفحول.

إن الخنساء التي استطاعت أن تخلّد لنفسها ذكرا بين الشعراء، لم

تقصر في الجهاد في سبيل دينها، بل كانت مجاهدة صادقة،لم يقف كبر سنها دونها والخروج مع المقاتلة في سبيل الله، عساها تستطيع بما وسعها من مقدرة أن تعين من كان في حاجة إلى العون، أو تمد يداً إلى من كان في حاجة إلى تلك اليد.

وقد خرجت تماضر في كثير من غزوات المسلمين، وصحبت الجيوش الظافرة في مسيرها.

وكان للخنساء أربعة أبناء، ماكادوا يبلغون مبالغ الشباب، ويسايرون الحياة الإسلامية ويتعرفون عليها، حتى أسرعت توجههم إلى الجهاد في سبيل إعزاز دين الله، وتحرضهم على الخروج مع الجيش الذاهب إلى الفتح.

ورواة السير، وإن لم يهتموا من أخبار الخنساء بغير أشعارها ومراثيها وفخرها وهجائها، وتناسوا ذكر جهادها، وعدد مرات خروجها إلى ميدان هذا الجهاد المقدس في سبيل الله، فإن التاريخ الحق قد حدد هذه الفترة من حياة الشاعرة الكبيرة وعينها فذكر هذا التاريخ أنه لم يكد أبناؤها الأربعة يبلغون مبالغ الرجال،ويندمجون في الحياة الإسلامية، حتى خرجوا للجهاد والنضال، مستجيبين لنداء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، عندما ندب الناس للخروج مع المثنى بن حارثة الشيباني لقتال الفرس في قلب بلادهم، والإغارة عليهم في معاقلهم، لهدم صروح الضلالات، والقضاء على عبادة النار.

خرج أبناء الخنساء الأربعة للجهاد في بلاد فارس، وخرجت أمهم يومئذ هي الأخرى لتجاهد بما وسعها الجهاد في سبيل الله، فشهدت المواقع المجيدة والبلاء العظيم في سبيل إحراز النصر، وظلت وأولادها مع الغزاة الظافرين، يتقدمون نحو الهدف، وينتصرون في الموقعة بعد الأخرى، حتى حققوا من النصر ما لم يكن يتصوره من قبل أحد في هذا الوجود.

لقد عاشت الخنساء تلك الحقبة العظيمة من حقب عمرها، فأحسّت بعبير المجد ينعش كيانها، ويهزم أمامه شيخوختها، فعادت وكأنها شابة، ترنو إلى مستقبل مرموق، وترقب شباب العرب جميعاً وهم يناضلون تحت راية الإسلام، وكأنهم من خالص بنيها، حتى لقد تسامت أمومتها هذه إلى

حـد ذابت فيه الأمومة الخاصة بأولادها الأربعة، وأصبحت أمومة لجند الله الظافرين، فراحت تتمنى لهم التوفيق، وتدعو لهم بالنصر، وتسـأل اللـه أن يكون معهم، وأن يعينهم على أعدائهم، حتى يحققوا البشـارات العظمى التي بشر بها سيدنا رسول الله جموع المسلمين في أول عهدهم بالإسلام، وبدأت الأحداث تمهد لموقعة القادسية.

وفي ليلة القادسية اجتمعت الخنساء بأولادها الأربعة وأبت وهي أمام غد كانت ترجوه مشـرقاً إلا أن تهيئ بنيها للزحف الأعظم في ذلك الغد المرموق، فأقبلت عليهم تقول لهم:

«يا بنيّ، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو ما هجنت حسـبكم، ولا غبرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطـوا واتقـوا اللـه لعلكم تفلحون**﴾، فإذا أصبحتم غداً إن شـاء الله سـالمين، فأعدوا إلى قتال عدوكم مسـتبصرين، فـإذا رأيتم الحرب قد شـمّرت عن ساقها وجللت نارا على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسـها، عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

وطلع الصبح بنـور جديد ، وأمل جديد، وعزم جديد... وتصايح جند الله مكبرين:

وتقدم جند الله وتقدموا.. وتكسر الصف الفارسي أمامهم بعد الصف، وظلـوا في تقدمهم يتصايحون ويتدافعون نحو الموت، لأنهم كانوا يؤمنون أن الجنة الوارفة الظلال إنما هي تحت ظلال السيوف.

وتمـت هزيمة جيوش كسـرى وكانت (القادسـية) الفيصل بين الحق والباطـل، فدالـت دولة كسـرى، وتهاوى عرشـه، وأعز الله الإسـلام والمسـلمين، واستطاعت القادسية موقعة الشـرف والفخار والكرامة أن تغير وجه التاريخ.

وحمـل النعاة إلى الأم العجوز أنباء استشـهاد بنيها الأربعة. فتملكتها هزة المفاجأة، ورفعت رأسـها بعد ذلك إلى السماء في إيمان بالغ، تسأل الله أن يعجل بها لتلحق بالأحبة في جواره وتظفر بما ظفروا به.

وهي تقول في نبرة هادئة مؤمنة: «الحمد لله الذي شرّفني باستشهادهم

جميعـاً، في ميدان الشـرف، وتحت راية الجهاد في سـبيل الله، وأعز شرفي هذا بأن أتم نعمة النصر الأكبر على المسلمين..».

وهكذا ودعت أم الشهداء شهداءها الأبرار، فضربت بذلك أعظم مثل في البطولة، وأثبتت أن المـرأة العربية المؤمنة تفهم واجبها المقدس نحو دينها، وما يوجبه هذا الدين من تضحيات وجهاد، وآمنت بأن الشرف كل الشرف ليس في حياة منعّمة مترفة، بل في حياة يجللها الفخار، وتتوجها الشهادة في سبيل إعزاز دين الله.

عاشت أم الشهداء خلافة الصديق أبي بكر، وخلافة عمر بن الخطاب، ثم عاشـت من بعده خلافة عثمان بن عفان وشـهدت أيامها، ثم عاشت بعد ذلك خلافة الإمام علي بن أبي طالب، فكان لها بذلك شرف الحياة في عهد الرسول وخلفائه الأربعة من بعده.

وامتد العمر بالخنساء حتى شهدت خلافة «معاوية بن أبي سفيان».

إن اللـه مد فـي حياتها، لتقـر عيناها برؤية أمجاد المسـلمين، وهم يتقدمون عبر الصحارى إلى المدن، ثم إلى البحار، ومنها إلى بلاد بعيدة. ما كان يتصورها عقل.

وماتت الخنسـاء في الباديـة، عزيزة مكرمة، وانتهـت بذلك صفحة حياة نضرة مشـرفة، بدأت مع الجاهلية، وانتهت في أزهى عصور الفتح الإسلامي.

خولة بنت الأزور*

دوت صيحتهم الظافرة وهم يرددون في حماسة مشبوبة وإيمان بالله عميق:

الله أكبر... الله أكبر!!

واهتزت جوانب الأرض خاشعة لسماع صوت الحق، وأنصتت الدنيا في ذهول إلى هذه الفئة القليلة التي خرجت من البقعة الجرداء، التي عاشوا فيها معزولين زماناً، ليسودوا، ويتملكوا، وينشروا دينا لله جديدا في الأرض.

والتف المخلصون حول راية أبي بكر الصديق، فسدد بهم الضربات إلى أهل الردة، ثم أنفذ الجيوش إلى فارس، وإلى الروم.

وسار أبوعبيدة من نصر إلى نصر. وحالف التوفيق سعد بن أبي وقاص، وسار النصر في ركاب خالد بن الوليد، في الوقت الذي كان فيه عمرو بن العاص يدوخ الأمم ويحير الجيوش!

واتجهت الأنظار آخر الأمر إلى الشام والأرض التي بارك الله حولها، وسرعان ما ارتدت أمام الإعصار فلول جيوش «هرقل» تتلمس النجاة من الموت.

ودوى نفير الجهاد، وتعالى دويه، وخرج الرجال إثر الرجال من شتى القبائل والبطون، وراحت البقية الباقية تستعد لتلبية الدعوة لتحمل العبء من العائدين، وتقوم بنصيبها في الجهاد.

* العربي - العدد ٣٨ - يناير ١٩٦٢م

وكان ضـــرار بـــن الأزور في جملة المنتظرين، بل إنه كان من أشـــدهم شوقاً إلى معاودة الكفاح إذ طابت له حياة الميدان، وهو من خيرة فرسان المســـلمين الذين عرفتهم ميادين فارس، وكانت لـــه مع الدارعين، هناك مواقع ومواقف تناقلتها الألسن في إعجاب، وسارت بها الركبان.

وإنه ليســـتعد للخروج في حملة جديدة كان أبوبكر يعدها لتكون مدداً للفاتحين الظافرين، ولتضع أســـس حياة جديـــدة تعلو فيها منارة الدين الحنيف.

وفي حماســـة قدسية راح الفارس ضرار يحدّث أخته خولة عن أمانيه وعن خططه التي أعدّها لتحطيم الروم والقضاء على فوارســـهم، أولئك الذين ســـمع عنهم وعن مغامراتهـــم ومقدرتهم في الحرب الشيء الكثير.

وأنصتت خولة إلى شـــقيقها ذاهلة مأخوذة إذ كانت بدورها تحلق في هذا الأفق، وتتمنى أن يكون لها فيه نصيب.

ولقد كانت «خولة» فتاة فتّانة حلوة، تزخر بالجمال والشباب والحيوية، وفي دمائها العربية حب النجدة والاســـتهانة بالمخاطر والأهوال، وكانت بارعة في ركوب الخيل وحمل السلاح.

وإنها لتنصت إلى أخيها وهو يحدثها أجمل حديث وأشـــهاه، وتحمست نفســـها للجهاد وكرهت أن تكون قعيدة الـــدار لا عمل لها إلا الثرثرة مع العجائـــز في تافه الأمور، في حـــين يعمل أخوها لغـــده، فيخرج للقتال دونها.

وأســـرّت إليـــه برغبتها، فرحب بها في صمت ولكـــن صارحها بخوفه الشـــديد عليها مما تجره الحرب على مغاوير الرجال، فكيف بالنســـاء، ولكن «خولة» لم تنصت إلى أخيها، قالت له في إيمان قويّ:

– لئن كانت الحرب قد كتبت عليكم معاشـــر الرجال، فإن الله لم يكره لنا الجهاد، بل فرضه علينا كما فرضه عليكم ســـواء بســـواء، اخرج أنت إلـــى كرّك وفرّك، ولأخرج معك لأقوم في الحرب بنصيبي، نصيب المرأة، سأحمل لكم الزاد والماء، سأضمّد الجرحى، وأواسي المصابين وسأشعرك بأني إلى جانبك أحفزك إلى المغامرة، وأدفع بك إلى النصر دفعا.

وأطـــال ضرار النظر إلـــى وجه أخته الذي تهلّل بنـــور عجيب!! فمال

على جبينها ليطبع عليه قبلة إعجابه وحنانه، ثم يقول في صوت كهمس النسيم في براعم الزهر:

– أنـت غضة الإهاب رقيقـة العود يا خولة!! والحياة هناك قاسـية شديدة، وإن كيانك لأضعف من أن يحتمل هزات الحرب ومفاجآتها! لقد بعنا أرواحنا نحن الرجال، ولكن..

فقاطعته بقولها:

– ونحن!! أليس من حقنا أن نشارككم ونتعاون معكم؟ أليس لنا حق في شراء الحمد؟! خذني أو فإني سأخرج وحدي!!

وضم ضرار أخته إلى صدره في حنان وهو يتمتم في نبرة عميقة:

– أعدّي نفسك يا خولة!! وكوني جديرة بحمل مشعل الجهاد في سبيل الله، والله معنا.

ومرت بالأخوين فترة صمت طويلة نسيا خلالها الدنيا وما فيها.

وبعـث الخليفة بمدد جديد إلى جيوش المسـلمين وكان فيهم «ضرار» تصحبه أخته «خولة».

وما إن وطئت قدماها الأرض المقدسة حتى أحسّت بروحها تطفر نحو السماء. فجعلت تتمتم في مناجاة حلوة:

– اللهـم إن هذه أرضك، فلا تمكّـن الذين ينكرون أنك الواحد من أن يطأوها وفيها رسـولك الكريم، اللهم فاجعلها لنا، وأقر بفتحها أعيننا.. اللهم، إن كنت كتبت عليّ الشهادة فاجعل هذه التربة الطاهرة مثواي.

وأخذت خولة مكانها في الصفوف.. وأسعدها أن كان لها شرف القيام بخدمـة المجاهدين، بـين كثيرات من بنات جنسـها اللائي خرجن وراء الجيش، ليرين آية النصر، وينعمن بحياة الكفاح في سبيل الله.

تعودت خولـة أن ترقب المعارك في هدوء الخبيرة المجربة فلم يرهبها تراجـع، ولا ذهب بلبهـا تقدم. كانـت ثابتة الجنان قويـة القلب، تقدر الهزيمة، قبل أن تقدر النصر، وإنها لكثيرة الحركة دائبة التنقل، تسـرع إلى الظامئ، وتعرف مكان من يحتضر، وتحمل المئونة والسـلاح إلى من هو في حاجة إليهما.

وشـهدت خولة موقعة «صحـورا»، واكتوت بلظاها، وشـاء لها الحظ السـيئ أن تقع مـع كثيرات مـن زميلاتها المجاهدات في أسـر الروم،

ووضعن تحت الحراسة حتى تنجلي الموقعة، فيلتفت الأعداء إلى السبايا والأسيرات ويكون لهم معهن شأن الظافرين!!

ونظرت خولة حواليها في ثورة مكبوتة، وقد ضاقت بها الدنيا، وكرهت أن يكون الوقوع في أسر الروم بداية جهادها!!

وتمردت روحها التي ما ألفت غير الحرية ولا أحبت إلا الانطلاق حيث تشاء.. وكرهت الاستسلام إلى أوهام الوحدة وخيالاتها البغيضة، ولم تحتمل تصور تلك الساعات القادمة حيث يهدأ النقع الثائر ويعود إليهن هؤلاء العلوج!!

وجرى بخولة تفكيرها إلى غير الاستسلام والخنوع، كانت تعرف أنها ليست إلا أنثى عاجزة، مع صاحبات لها عاجزات، لا حول لهن ولا قوة.. وكانت تعرف أيضاً أن التسليم بالأمر الواقع معناه أنه، ومن معها من العربيات المسلمات سيكن سبايا للروم يحملن العار حيثما حللن!! ويصمن جبين المجاهدين بوصمة أبدية تعجز عن محوها الدماء!!

واستعرضت «خولة» الأمر من شتى وجوهه، فهان لديها الموت، وآثرته على أن تكون لعلج من هؤلاء!!

وجمعت خولة حواليها صويحباتها الأسيرات، وصارحتهن بما دار بخاطرها، فأسعدها أن وجدت لديهن جميعاً أصداء، ما دار في خلدها، وإذا بصوتها يرتفع محموماً لتقول لهن:

يا بنات حمير وبقية تبع!! أترضين لأنفسكن علوج الروم؟! ويكون أولادكن عبيدا لهم؟! ووجدت خولة سندها ومشجعها في صاحبتها «عفراء الحميرية» التي راحت بدورها تثير الخواطر وتمهد للمغامرة التي أرادتها خولة.

وكانت الموقعة الحاسمة مازالت دائرة الرحى بمبعدة منهن، وكانت صرخات الرجال تصل إلى مسامعهن فتلهب قلوبهن.

وسنحت الفرصة لتنفيذ الخطة... فقد ذهب أكثر المحاربين من الروم إلى ميدان المعركة.

وضعفت الحراسة المفروضة عليهن، وأوحى إليها الجو المحيط بها ضرورة القيام بعمل حاسم وسريع، وإذا بصوتها الهادئ يجلجل في صويحباتها:

- يا بنات العم!! إن الريح لمواتية، وإن فرصة الخلاص لتبدو لنا، فهيّا فقد حان وقت العمل. إن الموت أشرف من فضيحة تلحق بنا إلى آخر الزمن، علينا أن نحملها حملة صادقة تذهل العدو، فننجو، أو نموت في سبيل الله. خذن أعمدة الخيام والأوتاد في أيديكن.. ولنحمل على هؤلاء الحراس، ولا ينفك بعضنا عن بعض ولنتماسك فلا تكون بيننا ثلمة، فهيّا يا حرائر العرب اشددن معي!! والله معنا.

وألهبت خولة قلوب النسوة، فاقتلعن الأعمدة والأوتاد، واندفعن في قوة وعنف نحو حرّاسهن فراعهم هجوم الأسيرات، وأسقط في أيديهم، وكانوا قلة، ففروا أمام بسالة النساء المندفعات وراء خولة بنت الأزور، تشق بهن طريق الخلاص.

وعادت الفتاة الباسلة ورفيقاتها إلى معسكر رجالهن وقد تخلصن جميعاً من الأسر، ومحون عن أنفسهن عاره!!

وهزّ خلاصهن الرجال، فارتفعت الحناجر مرددة في إيمان:

الله أكبر!! الله أكبر!!

وتخاذل الروم واضطربت صفوفهم، وفروا إلى حصن جديد من حصونهم العديدة، وجرى في أثرهم الفرسان المغاوير.

وجمعت بين ضرار وأخته خولة لحظة هدنة وسلام، وأنصت إليها سعيداً وهي تحدثه عما كان من أمرها، وتؤكد له أن المرأة العربية تستطيع أن تصنع الخوارق وتفعل ما يذهل!

وآمن ضرار بأخته، وأمّن على قولها.

وعاد ضرار إلى مكانه في الصفوف الأولى وبقيت خولة في مكانها بين النساء.

ودارت الرحى من جديد، وسمعت خولة وهي في مكانها أن ضراراً في المقدمة، وأنه استطاع أن يطيح من الروم بفوارس لا عدد لهم، وأنه أفلح في توجيه ضربة رهيبة إلى ابن قائد الحامية وأرداه قتيلا.

وهتفت سعيدة مزهوة، وعلا صوتها الصادح بأهزوجة تحيي بها شقيقها ضرارا الباسل، وبقيت مكانها تنتظر مزيداً من الأخبار.

وجاءها النبأ بأن ضرارا قد وقع في أسر الروم!!

ومادت الأرض تحت قدميها.. واسودت الدنيا في عينيها، وهانت

عليها الحياة، ووجدت الفتاة الجريئة نفسها تتسلل من صفوف النساء في خفة وحذر!!

ورأى المسلمون عجبا وهم يصاولون الروم، رأوا فارسا لم يروه من قبل في صفوفهم. وقد اندفع كالصاعقة يمزق في صفوف العدو فتتمزق وترتدالرجال أمام ضرباته!!

ونظر خالد بن الوليد إلى الميدان، وقد راعه أمر ذلك الفارس الغريب الحديد الكيان، الذي لا يبين من وجهه إلا حدقتاه، وقد بدا في ثيابه السود وحزامه الأخضر، وكأنه القضاء الذي حمّ.

وهتف خالد:

- ليت شعري، من يكون هذا الفارس؟!

وشد المسلمون وراء ذي الثياب السود الذي حمل على عساكر الروم فزعزعهم!!

قال رافع بن عميرة لبعض من سألوه عن ذلك الشهم الجريء:

- لا بد أنه خالد بن الوليد!!

ولكن خالدا ما لبث أن أشرف عليهم، فثارت دهشة رافع وأقبل على قائده يسأله عمن يكون ذلك الفارس الذي أنزل الرعب في قلوب الأعداء؟

فإذا خالد بدوره يقول:

- وأنا والله لأشد منكم عجبا!!

وصاح رافع في دهشة:

- انظر أيها الأمير لقد نفذ في عسكر الروم يطعن يميناً وشمالاً، ولا يبالي موتاً.

وأطال القائد الظافر النظر إلى الميدان، وتبدت له بوارق النصر، فإذا هو يصيح:

- «معاشر الرجال!! احملوا بأجمعكم وراء هذا الفارس»!!:

وأطلق الرجال الأعنّة وخالد أمامهم، فإذا الفارس وكأنه قطعة من نار والخيل في إثره.

وكلما أدركته جيوش الروم ألوى عليهم وردهم على أعقابهم خاسرين. ووصل الفارس الغامض أخيرا حيث كان خالد وقد تخضب بالدم

رداؤه، وصاح فيه خالد:

- لله درّك من فارس، أبليت أحسن البلاء في سبيل الله، اكشف عن لثامك، لنعرف من تكون!

ولم يحسر الفارس لثامه، وانصرف دون أن يقول كلمة، وسار في تؤدة أثار به فضول خالد، فسأله في لهفة:

- ويحك!! لقد شغلت قلوب الناس، فقل لنا من أنت..؟!

ووقف الفارس في مكانه بثوبه الأسود، وظل على صمته، ولثامه على وجهه، وإذا بخالد يهيب به أن يتكلم.

وتكلم الفارس أخيراً وتراجع خالد أمام نبرة الصوت الناعمة!! واستمع إلى صاحبته وهي تقول:

- لقد أعرضت عنك يا أمير حياء منك!! فاغفر لي صمتي وإصراري على السكوت!!

وسأل خالد محدثته في دهشة:

- من أنت إذن!

- أنا خولة بنت الأزور!! وقد كنت مع النساء فسمعت بأسر أخي ضرار، فركبت! وتأمل خالد محدثته ملياً وأكبر فيها جرأتها وحبها لأخيها، وإذا به يقول لها:

- سنحمل والله عليهم مرة ثانية، وسنصل إلى حيث ضرار.

ودارت رحى المعركة من جديد، وخاضتها خولة بالجرأة نفسها التي أذهلت الجميع، حتى تخاذلت قوى العدو، ففر من فر، وألقى السلاح من آثر التسليم، وتجلّت راية النصر سامقة عالية، ولكن دون أن يتحقق أملهم في العثور على ضرار!!

وانقضى اليوم، وأقبل الليل، وهدأت الجلبة ورجع كل من الفريقين إلى خيامه، إلا خولة فقد راحت تجوس خلال الميدان باحثة منقبة، سائلة كل من تراه عن أخيها دون أن تظفر بجواب!!

وأوت إلى مخدعها باكية حزينة وهي تتمتم في تحسر ولوعة:

- يا ابن أمي، ليت شعري في أي بيداء طرحوك، وبأي سنان طعنوك، أختك لك الفداء.

وعلا نشيجها حتى سمعها المحاربون، فبكوا لها، وهز نشيجها قلب

خالـد بـن الوليد، حتى لقد فكّر في معاودة القتـال من جديد ليرد إلى خولة أخاها الأمير!!

ووقعت في أسـر المسـلمين فرقة من الروم، ألقت السـلاح وطالبت بالأمان عجزاً عن الاسـتمرار في الحـرب، فأحضرهم الجند إلى خالد فسألهم عن ضرار، ووصفه لهم.

وقال ضابط من الأسرى:

- لعل الأمير يقصد ذلك الشاب عاري الجسد، الذي قتل منا من قتل، ثم فجع قائدنا في ولده، لئن كان هو فإنه حي لم يمت، إنه أسير قائدنا، وقد أصدر أمره بأن يذهبوا به إلى حمص، وجعل حراسته مائة فارس!! فأفلتت من فم خولة «صرخة» صرخة فرحة، وأرادت أن تتكلم، فأسكتها خالد، وارتفع صوته منادياً:

- يا رافع بن عميرة!!

وجاء الرجل على عجل تلبية لنداء أميره، فقال له:

- إنك لخبير بمسـالك هذه البلاد ودروبها، وإنك ولاشـك تعرف أي طريق سـلكه القوم بضرار، كما أنك قادر على أن تسـبقهم، فخذ معك مائة فارس والحقوا بالروم حيث وصلوا، ثم عد ومعك ضرار بن الأزور!! وارتمت خولة على قدمي قائدها متوسلة وجعلت تقول:

- واسـمح لي أن أذهب معهم!! إنك رجل يا خالد!! وإنك لمستطيع أن تتصور مدى لهفتي على ضرار!! فمر بذهابي مع القوم، إني أستطيع أن أخوض غمارها.

وأطرق خالد طويلاً، ثم أذن لخولة أن تخرج مع رافع ورجاله، على أن تسـير بمبعدة منهم، اتقاء للمخاطر، ومبالغة في تجنبها ويلات الطريق، وخرج رافع بـن عميرة مع رجاله المائة، ووراءهم كانت تسـير خولة في كامل سلاحها.

ووصل المسلمون إلى «سـلمية» مجتازين دروبا مجهولة، وسألوا القوم عن مائة جندي من الروم في صحبتهم أسير عربي، فأكدوا لهم أنهم لم يمروا بعد بهذا المكان.

وفرح رافع، وأكد لخولة أن الأسـير العزيز سـيأتي بعد ساعات، وأن عليها أن تصبر وعلى رجاله أن يراقبوا الطريق.

وأشـــرف الروم أخيراً على «ســـلمية».. كانوا مائة في كامل الســـلاح، وبينهم ضرار!!

وحمل الرجال علـــى الأعداء.. وبرز الفـــارس الغامض من جديد في ثيابه السود ومنطقته الخضراء، وراح سيفه يطيح بالرءوس ويلقي الرعب في القلب، حتى انجلت الموقعة أخيراً عن فرار من بقي حيا من الروم.

ووقف ضرار ينظر حواليه في دهشة وإعجاب بالفارس الذي استطاع أن يفعل ما لا يكاد أن يقوى عليه الفرسان من الرجال!! وقبل أن يفيق من دهشته كان الفارس المجهول يقفز عن جواده ويرمي بنفسه بين ذراعيه.

وصاح ضرار في ذهول:

- خولة!! هذه أنت؟!

- أجل.. يا ضرار!

- ويل لي كدت أقضي عليك بالموت!

- وهـــل للحياة بعدك قيمة يا ضـــرار؟ لكأني بالقدر قد أراد خروجي لحكمة أرادها، من يدري!! قد تكون هي هذه!!

- لا.. بل لتجعل من خولة بنت الأزور، فارسة لا يشق لها غبار، ورمزاً خالداً للبطولة بين العربيات المسلمات الخالدات.

أم الملوك هند بنت عتبة *

كان يوماً شـــاقاً مكدوداً، حارة أهويته نارية شمسه، فلم تكد تلوح فـــي الأفق رايات ليله الداكنة حتى زفـــرت الصحراء، كأنها تبعد عن صدرها كابوس النهار، لتتشـــق في شغف ولذة عطر نسائم الغروب الحالمة الرطبة.

وظلت القافلة في مسيرها تقطع البيد وتطوى الفلاة لتصل إلى دمشق عاصمة الأمويين ومعقل عزهم ومناط سلطانهم التليد، غير عابئة بطول الطريق أو حر النهار.

ولعل ســـيدة الهودج قد أحست بعد هذا اليوم الشاق برقة نسائم الليل القادم، فأحبت أن تســـتروح عبقها فأطلت برأســـها في فضول وراحت تستنشق وترقب القافلة ومن فيها.

لـــم يكن هنـــاك غيرها، هي وجاريـــة تجلس بمبعدة منهـــا، ثم حرس أمير المؤمنين معاوية بن أبي ســـفيان، يحيطون بالركب يتقدمه فرسانهم المغاوير.

ووجدت سيدة الهودج نفسها تقول لقائد الركب:

- لم لا تريح عيرك بعض الوقت أيها الفارس؟

وأومأ قائد الحرس برأسه وصاح بملء صوته الجهوري:

- أيها القوم.. بأمر أم أمير المؤمنين أريحوا عيركم!

* العربي - العدد ٥٣ - أبريل ١٩٦٣م.

ودوت الأجـراس وتصايح الجند، وتوقفت القافلة ليسـتريح من فيها بعض الوقت.

وبانت الفرحة على وجه سـيدة الهودج، وهزت رأسها في هدوء ورضا مـن أفعمتها السـعادة ووافاها الحـظ ووقفت الحـوادث ببابها تنتظر الأمر!

ودوت في خيال العجوز السـعيدة أصداء صوت قائد الركب الخاشـع المطيع وهو يقول:

«بأمر أم أمير المؤمنين..»، فانتشـت من فيوض الفرح وأسكرتها نشوة السرور، فغابت عن حسـها وراحت تنصت في شغف إلى أرانين ساحرة كانت تـدوي في خيالها السـعيد وتعيد عليها قصة الماضـي، بل نبوءة عرّاف اليمن وقد بشّرها بأنها ستكون «أم الملوك»!!

ونظرت هند بنت عتبـة إلى الصحراء طويلاً وكأنها تنصت إلى قصة جعلت ترويها على مسامعها نسائم الليل وأهويته الحالمة.

كان ذلك منذ بضع عشرات السنين، كانت هند عند ذاك زوجة للفاكه بن المغيرة، ثري قريش وأحد سادتها الكبار.

كانت شـابة، فاتنة، فيها جمال وأنوثة وسحر، وكان الفاكه يحبها حباً مـا بعده حب، حتى لم يكن يجد السـعادة إلا فـي قربها وقضاء الوقت إلى جانبها في منزلها الهادئ، ينعمان معا بسـمر طويل وحديث شـهي ونجوات حبيبة.

كان بيتهـا كهفاً من كهوف الأحـلام، وآية من آيات العز، ودليلاً ناطقاً بالثراء الذي قل أن يكون له شـبيه في بيوت قريش، وعلى أريكة غرقت فـي المخمل والديباج تناومت هند في فتنة وإغراء وقد راحت تنصت في دلال إلـى حديث زوجها، وهو يـروي لها أقاصيص عن رحلاته التجارية وما لقيه في أسفاره العديدة إلى اليمن والشام وبلاد الأحباش.

وذات يـوم، وفجأة، ومن بعيد، وعند مشـارف مكـة، وبالرغم من حر الهجير القاسي، سرى إلى الأسماع صدى نغم حنون، عرف فيه الزوجان أصوات الحداة.

لقد عادت إحدى قوافل قريش من رحلتها الصيفية، ورفع الفاكه رأسه ينصت في شـغف، فقد كانت له في القافلة العائدة تجارة غالية، وكانت

هند، وهي قرشـــية أصيلة، تعلم أن حياة الرجل في تجارته، فانفلتت من بين يديه كظبي نافر وهي تهيب بزوجها أن يخف للقاء القافلة.

وما إن خرج حتى عادت فاضطجعت وهي تهيم في وديان الخيال، حالمة بما سيقدمه لها زوجها من أطايب تجارته من حرير وجواهر وعطور.

وارتعشت هند وهي تذكر كيف دخل عليها زوجها مغبر الوجه مرتعش الشـــفتين مـــن الغضب، تكاد عينـــاه تقطران دما، وذعـــرت لمرآه، فلابد أن تجارته قد أصابها ســـوء! وقبل أن تســـأله عن ســـر جزعه صرخ في وجهها:

- هند!! من كان هنا؟!

وفي دهشة قالت: من كان هنا... لا أحد... لم أر أحداً.

وصاح في ثورة: مَن الرجل الذي كان هنا؟!

ماذا تقول؟! أجننت يا فاكه؟!

ورد عليها وثورته تشتد:

- بل رأيته بعيني يخرج من داري عدوا!!

وتحرّج الأمر بين الزوجة وزوجها.

وخرجـــت هند غاضبة إلـــى بيت أهلها، وثار أهلها علـــى الفاكه، وثار الفاكه عليهم، واحتدم الخلاف حتى كاد يعصف بالرباط المقدس، لولا أن اقترح بعضهم الذهاب إلى عرّاف اليمن، ليكشف له حقيقة الأمر!!

وخرجـــت هنـــد وزوجها مع أخيها وأبيها في قافلـــة كبيرة إلى عرافي اليمن، وظلوا في مســـيرهم حتى قاربوا مواطن العرافين، فخطرت لهند خاطرة غريبة ووجدت نفسها تقول لمن معها:

- أأضع ســـمعتي ومصيري بين يدي قوم أجهل مقدرتهم؟ وقد ينطقك أحدهـــم عـــن جهل بكلمة طائشـــة تجللني بعار لا يمحـــى!! لم لا أختبر قدرتهم وأرى وترون معي إن كانوا حقا يستطيعون كشف المجهول؟!!

ووافقها الجميع على رأيها، واستحســـنوه إلى حد بعيد وشجعوها على تنفيذه، فعمدت إلى بعض بعرات أخفتها في أماكن من أجساد الإبل، ثم سارت القافلة من جديد.

وأهـــلّ العرافون من مكانهم على القادمين إليهـــم، وتقدم كبيرهم من القافلة ليقول:

- ألديك شك في مقدرتنا يا هند ابنة عتبة؟!!

فلم أخفيت «البعرات» في مؤخرات الإبل؟!

وسكت العراف الأكبر لحظة، ليتأمل آثار الدهشة والعجب على وجوه القادمين، ثم عاد ثانية ليقول مواصلاً حديثه:

- يا هند.. لقد اتهمك زوجك ظلما! وإنك لبريئة!!

وضمت هند شفتيها في اعتداد الواثق بنفسه، وجرى الدم في وجه أبيها وأخيها، بينما تمتم الفاكه في دهشة واستغراب.

- بريئة! والرجل؟! لقد رأيته بعيني!!

وابتسم كبير العرافين وقال في صوت هادئ يقطر منه الجلال:

- عابر سبيل رأى الباب مفتوحاً فدخل، ولما رأى سيدة الدار مستلقية ارتج عليه وخرج يعدو دون تفكير، كل هذا وزوجتك لم تره.

وأقبل الفاكه على زوجته معتذراً نادماً، ولكنها أشاحت بوجهها في كبرياء!!

وأقبل أخوها وأبوها على شيخ العرافين يشكرانه، وكأنما كانت الأقدار في خدمة هند ذلك اليوم، فقد ارتفع صوت العرّاف يقول:

- يا هند! ستكونين أم الملوك!!

أم الملوك!! وزاد الفاكه من اعتذاره لها.. وارتفعت في عينيه، وداعبت قلبه الآمال، فما دامت زوجته ستكون أم الملوك، فهو بكل تأكيد سيكون أبا لهؤلاء الملوك!!

ولكن هند ردته عنها وهي تقول:

- لئن صح ما قاله العراف.. وتحققت نبوءته الغريبة، فإن أبعد ما ترجوه «أم الملوك» أن تكون أنت يا فاكه أبا لهؤلاء الملوك!!

وأصرت هند على الطلاق. وسرّحها الفاكه بن المغيرة النادم الحزين برغمه، وقد ذهبت سدى كل محاولاته في استرضائها!

وانسحب الفاكه كسير القلب، محطم النفس، لقد خسر حبه وهواه! وخسر زوجته الغالية!

وخسر الخسارة الكبرى.. أبوته للملوك!

وعادت هند إلى قريش عزيزة مكرمة، عالية الرأس، وتقدم سادات قومها إلى أبيها يطلبون يدها، وكان أبو سفيان بن حرب ثالث ثلاثة

امتدحهم أبوها فتخيرته زوجا لها.

وسعدت هند بزواجها ذاك وأحبت في زوجها صلفه وكبرياءه، واعتزازه بجاهليته وشـــرائعها الغريبة وتقاليدها الرعنـــاء، وكانت كلما خلت إلى نفســـها ودوت في خيالها أصداء نبوءة «عـــراف اليمن» أغمضت عينيها في غبطة وتمتمت تقول:

– إن «أم الملـــوك» مازالت تأمل، وأنها لترجو أن يكون أبو ســـفيان «أبا الملوك»!!

ثم تعود إلى نفسها مرة ثانية لتواجه الأمر الواقع فتعود لتحدث نفسها في صمت:

– ملوك في قريش!! هيهات أن يرقى بنو عبد شمس إلى مراتب الملوك وبنو هاشم في عزهم وجاههم التليد!

وتغمض هنـــد عينيها في هدوء وتزفر زفرة حارة، لا تجد معها إلا أن ترجـــو لنبوءة عـــراف اليمن أن تتحقق وأن تصبـــح حقيقة واقعة يخضع لبرهانها الجميع، وفيهم «بنو هاشم»!

ويدور الفلك دوراته الرتيبـــة وقريش ومن فيها على حالهم دون تغيير أو تبديل:

وذات يوم، ومن شـــعب الهاشـــميين يعلو صوت حلو النبرات قدســـي الرنـــين، يدعو إلى الحق والفضائل، وعبادة إلـــه واحد قادر، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد!!

وتذعر هند، ويرجف أبو سفيان، ويقبل الناس على سماع داعية الهدى ورسول الرحمن!!

وتثور ثائرة الســـادة ويعز عليهم أن تجتمع المكارم كلها في بني هاشم! وأن يكون فيهم في النهاية «نبي آخر الزمان»!!

ومما زاد في ضيق السادة أن هذا الدين الجديد دين مساواة وتعاطف، لا تحكم فيه ولا جبروت.

وهذا يعني – ولاشك – أنه إذا علت رايته ودخل فيه الناس من قريش وغيرها، فلن يكون هناك ملوك!

وتأبى هند أن تعترف بالحق ففيه قضاء على أحلامها!

ويأبى أبو سفيان أن يتابع محمداً، فيعترف لبني هاشم بسيادة ما كان

أشوقه هو أو أحد صاحبيه عظيمي القريتين إليها!!

ويعظم الصراع بين أهل الشرك ومن اتبعوا دين محمد.

وتشعر قريش في النهاية أنه من اللازم أن تضع لهذا الأمر الجلل حدا، وهو.. قتل محمد!!

ويهاجر رسول الله إلى المدينة ويكثر أتباعه.

ويدور الفلك دورات معـدودة ليقف أمام قريش، وقد دعا داعيها إلى الخروج لحماية قافلة أبي سـفيان القادمة من الشـام وإلا وقعت في يد المسلمين المتربصين بهم!!

وإذ تتجمع الجموع ويخرج فرسـان الشـرك وعسكر الضلال ليحموا قافلة شيخهم قبل أن تقع في أيدي المسلمين، يأتي من ينادي بأن القافلة نجت، وأن أبا سـفيان ماض في طريقه سـالماً إلى مكة!! وتعتزم قريش العودة، ولكن... يعلو صوت أبي جهل صاخباً لاعناً مقسماً بأصنام قومه أن لابـد للقوم من الخروج في عصبيتهـم تلك لإرهاب محمد ومن معه، فينزلون بماء «بدر» ثلاث ليال، يسمرون فيها ويشربون وينحرون الذبائح، ثم يعودون وقد بان منهم للمسـلمين ما يخيفهـم، حتى لا يتعرضوا بعد ذلك لقافلة أو تجارة لقريش!

وخرجت قريش في خيلها وخيلائها ليلقوا المسلمين.

وكانت واقعة «بدر» الكبرى!!

وعادت قريش كسـيرة ذليلة محطمة وقد ذاقـت من الهزيمة أمرّها! ومات ساداتها أهل الشرك وزعماء الضلال.

وتمر بخيال هند ذكريات ذلك اليوم البشع، وقد لبست قريش السواد، وخيّم عليها الأسى والحزن! ولكن أحداً من بنيها أو بناتها ما كان يجسر أن يبكي ميتاً أو ينوح على قتيل!

وكانت فجيعة هند في «بدر» جسـيمة ومصيبتها فادحة!! وبالرغم من هذا لم يسـمع أحد صوتاً: لقد قتل أبوها «عتبة» وعمها «شيبة» وأخوها «الوليد»!

قتل المسـلمون أباها وعمها وأخاها، ووقع ولدها «حنظلة» أسـيراً في أيديهـم! فما فكرت أن تفتديه! بـل أوحت إلى زوجها أن يتركه حيث هو وألا يبعث في فدائه!

وكيف كان لهند أن تبعث في فداء الأسـير، وقد كانت تتمنى أن يكون ملكاً!

وأنصتـت هند الحزينة الثاكل إلى دوي انهيار قصور أحلامها البراقة، وعز عليها أن يسـخر الزمن منها فـلا تتحقق نبوءة عراف اليمن! وبدلاً من أن تكون «أم الملوك» تصبح «أم الأسير» وابنة القتيل!!

وعادت تردد في غيظ وحنق:

- ملـوك فـي قريش!! هيهـات أن يرقى بنو عبد شـمس إلى مراتب الملوك، وبنو هاشم في عزهم ومجدهم التليد!!

وهكذا ازدادت كراهية هند لبني هاشـم، بل لمحمد بن عبدالله، الذي علا نجمه وذاع صيته وانتشـر دينه حتى هانت في سـبيل رفعته ونصرة الأرواح!!

واسـتحالت المرأة الفاتنة الجميلة المليئة بالأنوثة إلى شـيطانة، تمثل الانتقام البشع وتنفث روحه في صدور الناس وتجعلهم يرقون إلى سدته الناريـة، ليتغذى بدمائهم وهـم يقدمون حياتهم قرابـين رخيصة على مذابحه السوداء!!

وتعتزل هنـد الثائرة زوجها والناس جميعاً، فيحلو لبعض نسـاء مكة زيارتها ليخففن عنها وقع المصاب، وتقول لها إحداهن، مهوّنة، وقد ظنت أن في بكاء هند الممتنعة عن البكاء «ما يهون من مصابها الأليم:

- ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟

وترمقها هند الثائرة بنظرة قاسية وتقول:

- أنا أبكيهم، فيبلغ محمدا وأصحابه، فيشـمتون بنا ويشمت بنا نساء الخـزرج؟! لا والله حتى أثأر من محمـد وأصحابه!! والدُهن علي حرام حتى نغـزو محمداً!! والله لو أعلم أن الحزن يذهـب ما بقلبي لبكيت!! ولكنه لا يذهب إلا بعد أن أرى بعيني مصرع من قتل الأحبة!!

ونعود إلـى هند في هودجها، بعد أن توقفـت القافلة وأراحت العير. وتسـكت هند طويلاً وقد وصل بها التفكير إلى ما وصل إليه، وصوّر لها حقبة من زمانها ماضية، كانت خلالها تلعب دوراً من أخطر الأدوار.

وأطالـت هند النظر في الظـلام، وكأنما حلا لهـا أن تعاود مطالعة القصـة المثيـرة على صفحته السـوداء اللامعة، وأن تسـتعيد صورتها

الحبيبة وتنصت إلى تراجيعها المشجية الحلوة الإيقاع.

وحـــلا لهند بنت عتبة أن تتـــرك هودجها لبعـــض الوقت، وتجول في الصحراء الصامتة التي شـــملها الظلام بوحشـــته وكساها فوق جلالها جلالا.

ووصل بها المســـير إلى كثيب مرتفع ووقفت عنده ترقب ذلكم الخضم الشاســـع الذي يحتفظ ســـطحه وجنباته بأعمق الأســـرار وأروعها: ثم ابتســـمت في هـــدوء وقد خطرت لهـــا فكرة غريبة تصـــورت معها تلك الأماكن، وقد بعثت فيها السنة صدق، تروي للعالمين تاريخاً عجباً!

وخيّل إلى هند بنت عتبة وهي في مكانها البعيد ذاك وسط الصحراء، أنها تشهد ميدان «أحد» وترى أبطاله المغاوير!

واربدّ وجه أم أمير المؤمنين وتلبد بالأسى وزفرت زفرة عميقة وأغمضت عينيها لتبعد عنها صورة ظل، طالما ارتعدت كلما راودت خيالا ذكراه!

وعادت منكسة الرأس إلى هودجها، وإذا بصوت قائد الركب يسألها:

- ألدى أم أمير المؤمنين ما تأمر به..؟!

وجدت هند نفسها دون تفكير تقول:

- شـــدوا الرحال إلى دمشـــق، فإن بي إلى سيدها أمير المؤمنين ولدى الحبيب معاوية لشوقا عظيما!!

وانتظم الركب مرة أخرى وســـارت القافلـــة.. ودوت في جوانب الليل الســـاكن والبيد الهاجعة تراجيع الحداة وأصـــداء أجراس الإبل وتمتمة الجند وأحاديثهم الهامسة الطويلة.

ورفعت هند من جديد سُـــجُف الهودج الحريرية وراحت ترقب الظلمة مـــن جديد، وقد أحبت ذلك الســـواد الضارب الـــذي حجب عن عينيها الرؤية وجعلها تستسلم من جديد إلى لذيذ الذكريات.

وتبدت لخيالها ســـاحة «أحد» مرة أخرى، ورأت «الجبل الأشم» ماثلاً في مكانه العتيد، فعادت بالفكر لاهثة إلى مكة الثائرة، لتشـــهد لنفسها صورة كاد الزمن ينسيها إياها.

وابتســـمت هند «أم الملوك» وهي ترى صورة «هند المنتقمة» وقد راحت تطيـــل النظر إلى وجهها في مرآة الماضي فترى امرأة ثائرة، تربعت على عـــرش الانتقام الذي قـــدت قوائمه من حجارة جهنـــم، وهي تصرخ هنا

وتزأر هناك وتطوف بكل ناد ومجمع من مجامع قريش، ساخرة بالرجال ناسبة إليهم أبشع الاتهامات، لأنهم تقاعدوا عن محمد وتناسوا الثأر لقتلى وضحايا «بدر»!

وتجهزت قريش الغاضبة لحملة الانتقام والأخذ بالثأر، وكان أبو سفيان على رأس الجميع.

ورأت هند أن تخرج مع القوم وأن يكون لها ولغيرها من شريفات مكة أمر خطير في مسير الحوادث، وتشاور القوم في الأمر وإذا بقائلهم يقول:

- يا معشر قريش! هذا ليس برأي، أن تعرّضوا حرمكم لعدوكم! ولا آمن أن تكون الدبرة عليكم فتفتضحوا في نسائكم!

وكادت الرغبة تجد لها هوى في نفوس الرجال، وكادوا يشيرون بالإجماع بألا تخرج معهم إلى الحرب النساء، لولا أن علا صوت هند المزمجرة الغاضبة تقول لهذا المعترض:

- إنك والله سلمت يوم «بدر» فرجعت إلى نسائك!! نعم، نخرج فنشهد القتال! ولا يردنا سفرهم إلى بدر حين يلغوا الجحفة فقتلت الأحبة يومئذ!

وسكت المعترض، وتحركت الحملة وعلى رأسها أبو سفيان، وفيها هند وغيرها من النساء يسرن مرة في مقدمة الجيش وأخرى في مؤخرته، ممسكات بالدفوف يرتجزن الأغاني وينشدن الأناشيد الحماسية لتشجيع الرجال.

ويعلو صوت هند عالياً وسط ضاربات الدفوف وهي تنشد قائلة:

ويها ويها بني عبدالدار!

ويها ويها حماة الجار!

ضربا ضربا بكل بتار!

وتجيبها النساء مرتجزات:

نحن بنات طارق

نمشي على النمارق

مشي القطا البوارق

والدر في الخانق

إن تـقـبـلـوا نـعـانـق
ونـفـرش الـنـمـارق!
أو تـدبـروا نـفـارق
فـراق غـيـر وامـق

وارتجت الأرض بدوي الطبول والدفوف، وتصايح الأبطال وحمي وطيس المعركة!!

واستدعت هند أحد العبيد ومنّته بالمال والجاه والعز والسيادة إن هو قتل «الحمزة» بن عبدالمطلب!

وارتاح العبد «وحشيّ» إلى وعود سيدته، وكمن لأسد الله وهو في كره على جموع المشركين. وناوله طعنة نجلاء غادرة في جنبه!!

وسقط سيد الشهداء في ميدان الجهاد في سبيل الله!

وأسرعت هند تنتقم من قاتل الأحبة!!

وصرخت سيدة الهودج صرخة مدوية، وقد وصل بها تفكيرها إلى ذلك الحد!! وغطت عينيها بيديها وجعلت ترتجف فرقا، حتى لم تعد تسمع صوت قائد الركب وقد جاء ليرى ماذا أزعج أم أمير المؤمنين!

واستطاعت هند في غمرة فزعها أن ترفع وجهها أخيراً وتنظر إلى الرجل في دهشة تسأله:

- أين نحن...؟!

- في طريقنا إلى دمشق يا أم أمير المؤمنين!

ثم علا صوتها يقول:

- أيها الرجل.. حدثوا المطايا فقد طالت الرحلة بنا وأصابني ملل وإرهاق.

وعلا صوت قائد الركب يحث العير، وارتفع صوت الحداة يتغنّى بمجد أمية وجلال بني عبد شمس!

وأنصتت هند إلى تراجيع الحادي وراحت في شغف تتصور تلك الأمجاد التي يتحدث فيها عن المجد، وكيف جاء «أمية» طائعاً مختاراً.

وإذا بالفكر يعود بها ثانية ويرغمها إلى ميدان «أحد»، وإذا بها ترى صورتها الشابة وهي كنمرة جائعة، تنتقل بين قتلى المسلمين، فتجدع الأنوف والأذان، وتجعل منها أقراطاً وعقوداً تتحلى بها وتتيه بين جموع

النساء!!

ورأت نفسها أمام جسد الحمزة سيد الشهداء وسيف الله، فانحنت عليه وبقرت بطنه في جرأة وحشية!! واستخرجت «الكبد» وجعلت تلوكها بأسنانها كمن تريد أن تلتهمها التهاما!

وصرخت ثانية، وأسرعت الجارية إليها لتعيدها إلى صوابها مرة أخرى!!

وعادت هند من جديد ترقب الصحراء وتنشق عبير نسائمها الرطبة الشذية، وراحت تتطلع إلى الأمام محاولة أن تنسى الماضي الأليم.

ولكن الصور الدارسة عادت في قوة لتحتل تفكير هند من جديد!

ومرت العاصفة، وبدأت هند تنسى صور «أحد» وأحداثه وفظائعه، وراحت حوادث انتصارات المسلمين تترى أمام عينيها حتى صلح الحديبية، وغمرة القضاء، ثم تذكرت زوجها، وقد بعثته قريش إلى محمد، ليطيل أمد الهدنة بينه وبين قريش عشر سنوات أخرى، فرده الرسول الكريم وأبى أن يستمع إليه.

وراحت الحوادث تمر في سرعة أمام هند حتى وقفت أمام أنباء الفتح الإسلامي التي تسامعت بها قريش.

وتذكرت هند تلك الليلة الرهيبة وقد خرج زوجها مع بديل بن ورقاء، يستطلعان أنباء جيش محمد، فإذا ببديل يعود وحده، ثم، وأخيراً عاد أبو سفيان، ليقول لقريش إن محمداً قد جاءهم بما لا قبل لهم به! ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن!!

وصاحت هند الحانقة المغيظة في وجه زوجها تستعدي عليه القوم قائلة:

- اقتلوا الحميت الدسم، الأحمس! قبّح من طليعة قوم!!

وراحت هند الغاضبة تدعو إلى قتال محمد والسخرية من رأي زوجها ثم..

ثم جاء نصر الله والفتح، وعلا بلال ظهر الكعبة مؤذنا يكبّر الله ويثني عليه ويحمده!! وذهبت هند مع الذاهبات لمبايعة النبي.

ويعرف محمد زوجة ابن عمه أبي سفيان..

يعرف مَن بقرت بطن عمه الحمزة ولاكت كبده!!

فصرف وجهه عنها كي لا يرى المرأة التي حرمت عليها نار جهنم، لأن في جسدها بضعة من دم حرّمه الله على النار!!

وعاهدها النبي، فوفت وحسن إسلامها، و... نسيت «النبوءة» القديمة، لأن أولادها أصبحوا بعزة الإسلام وقرابتهم من الرسول أصحاب نفوذ وجاه وسلطان فوق سلطان الملوك.

وكرت الحوادث أمام هند، وهي في هودجها، في سرعة، وتخطت عهد الصديق، وأيام العادل عمر، ومن بعده الشهيد عثمان.

والتمع من جديد نجم أمية وعظم شأن ابنها معاوية، وقتل علي، وبايع ابنه الحسن معاوية بالخلافة، فأصبح ابن هند أميراً للمؤمنين، وزفرت هند زفرة الراحة والهدوء وتمتمت تقول:

- الحمد لله الذي أعلى بالإسلام أقدارنا وحقق لنا كل ما نصبو إليه، أصبحنا بعزته ملوكاً على العرب، بل على الفرس والرومان وسائر بقاع الدنيا!!

ونكست هند رأسها في استحياء وشكر.

وعلا صوت الحداة، واستمرت القافلة في مسيرها.. «وأم الملوك» مستسلمة إلى أطياف حلم جميل...!!

أم أنس بن مالك *

قريش السادرة في غيّها وضلالتها، مازالت تلهث، وقد انطلقت تعدو في جنون لتختار الطريق الشائك نفسه الذي تعودت سلوكه منذ أجيال.

كانت تشعر أنها في السنام من العرب أجمعين، وأنه أبيح لها بحكم هذا المركز المعنوي الضخم ما لم يبح لغيرها من العالمين، فعكفت على انطلاقها الجنوني في طريق التردي الذي تعشقته بالروح والوجدان.

وإذا كانت إرادة الحق تبارك وتعالى قد اقتضت أن ينطلق صوت الداعية من قلب قريش، فإنها أرادت في الوقت نفسه أن تكون بين ظهراني هذا المجتمع المتردي قلوب تعشق الخير وتهوى الفضيلة لتستجيب للداعية وتستشعر جلال دعوته في أحنائها تتسارع إليه وتلتف حوله وتكون عونه وساعده.

وحل اليوم الموعود، وأسفر الزمن عن مطلعه السعيد في موعده الذي أراده الحق.

وانطلق صوت محمد ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى الوحدانية والهدى.

واستجاب الرعيل الأول من المسلمين والمسلمات لدعوة محمد، ولم يأبهوا لغضب سفهاء مكة وأشرارها، ولم يقيموا وزناً لغضبة الأهل وثورة

* العربي - العدد ١٤٥ - ديسمبر ١٩٧٠م.

العشرة، لأنهم كانوا يطمعون في رضوان الله ويتمنون أن يكون لهم الجنة التي أعدت للمؤمنين الصادقين.

ومن هذا الرعيل الأول كانت «أم سليم» بنت ملحان بن خالد.

لقد وجدت أم سليم في دعوة الإسلام صدى لمشاعر كانت تحسها في أعماقها، فلاعجب أن استجابت لهذه المشاعر وهي التي طالما آمنت بأن إحساسها دائماً كان إحساس الصدق، وأن شعورها لم يكذبها طوال حياتها وأن قلبها ماهداها لغير الحق. فلاعجب أن أسرعت تدخل في دين الله دون أن تهتم بما كان يحدث في تلك الآونة من ثورة على المسلمين.

آمنت أم سليم بنت ملحان بدعوة الإسلام، وامتلأ بنورها ذلكم القلب الكبير فشعرت بالطمأنينة وأحست أنها اهتدت إلى ما قد ظلت تبحث عنه طويلاً وبلا جدوى. وكانت كلما طال بها البحث وتشعبت سبله، أحست أنها لم تصل إلى ما كانت ترجوه وتريده، أما اليوم، فقد أحست - والراحة تشملها والهدوء يغمر عواطفها - أن سفينة بحثها الضالة قد اهتدت أخيراً إلى مرساة الأمن وشاطئ الخلاص الذي طالما كانت تحلم بالوصول إليه لتشب منه إلى الأرض الصلبة، وعلى هذه الأرض تستطيع أن تبدأ حياتها المستقرة في ظل عقيدة ورعاية دين قويم:

لقد كان دخول أم سليم في حظيرة الإيمان بالله وحده، ضربة قاضية، لم تصدع أحلام عشيرتها وأهلها فحسب، بل كادت تفقد زوجها «مالك ابن النضر» صوابه، وهو يفكر في المركب الصعب الذي تخيرته زوجته! ويعجب كيف ارتضت هذا الأمر وبلته وحدها ولم تشاركه الرأي أو تستشيره فيه!

كان مالك بن النضر يكره دعوة الإسلام من صميم قلبه وكان مع الفئة الباغية التي تربصت بمحمد ومَن تابعوه، وإنه اليوم وبعد أن علم بدخول زوجته في دين محمد، يحار ويستشعر الثورة مرة والتخاذل مرات، ثم لا يلبث أن يثور على تخاذله وحيرته، ويزداد امتلاء قلبه بالحقد والضغينة ويصر على الانتقام، ويقسم على أن ينال من محمد ومَن تابعوه، لا لأنهم سفهوا دين العشيرة وعابوا أربابها وفرّقوا بين الولد وأبيه والابن وأهله، بل لأنهم عرفوا وبوسائلهم السحرية أن يصلوا إلى قلب زوجته فطعنوه

بهذا في صميم بيته وأوقفوه موقف الحائر الضعيف الذي إن حارب في الجبهة الخارجية ووقف مع السفهاء ضد المسلمين اتجهت إليه أنظار الشامتين الساخرين وكأنهم في صمتهم يقولون له ابدأ بنفسك يا مالك بن النضر وقوّم أهل بيتك وازجرهم زجراً شديداً.

وصمم مالك بن النضر في نفسه أن يترك التعرّض لمن تبعوا محمداً من المستضعفين والرقيق وبعض فقراء مكة. وأصر فعلاً على أن يبدأ بنفسه وأن يقوم ما تهدم من بيته بأن يعيد زوجته أم سليم إلى دين آبائها وأجدادها مرة أخرى. وأقبل عليها بالوعيد والتهديد، فسخرت منه ولم تهتم بكيده وردته عنها رداً غليظاً، ووقفت في وجهه وقوف الصخرة العاتية أمام الإعصار المدمر، الذي تكسّرت حدته عندها ولم يستطع أن ينال منها شيئاً على الإطلاق.

كان مالك بن النضر يؤمن أن زوجته الشريفة العالية النسب لن تكون أوهى عقيدة ولا أضعف إيماناً من سمية أم عمار ولا من عمار نفسه وأبي ياسر، هذه العائلة الصغيرة التي لم تستطع قريش برهبوتها وبطشها وجموعها أن تحول واحداً منها عن معتقده أو تصرفه عن دينه أو ترغمه على أن يعيب دين محمد!

كان مالك بن النضر يعرف في زوجته أم سليم أنها لا تؤمن بغير اقتناع، وأنها حين دخلت في دين محمد دخلته عن عقيدة ورغبة، وما كان لمثلها أن تتحول عما آمنت به وأحبت، فكيف يستطيع إرغامها؟ بل كيف كان له أن يقف أمام زوجته الغالية التي كان يحبها من كل قلبه، ويتمنى رضاها ويود لو يدفع حياته ثمناً لهذا الرضاء متمنياً أن تعود إليه مرة أخرى وقد نسيت الإسلام ودعوة الوحدانية.

حاول مالك بن النضر مع زوجته أم سليم بشتى الوسائل أن يردها فلم يستطع ولم يجد التهديد فتيلا فعاد إلى الملاينة والوعد الحلو والكلمة الطيبة وأم سليم تأبى أن تصغي إليه أو أن تستمع له.

وكما كان يؤمن مالك بن النضر بأن واجب الزوج يفرض عليه أن يحاول بشتى الطرق ليعيد زوجته إلى دين أهلها كذلك كانت أم سليم ترى أنه عليها أن تحاول إقناع زوجها بأن يدخل في دين الله ويؤمن مع جموع المؤمنين ويشتري الجنة وأن يسير في طريق الهدى.

وراح كل من الزوجين يحاول مع صاحبه بشتى الوسائل وهو يرجو أن ينتصر، حتى لقد طال الجدل والصراع بينهما وبلغ الذروة التي أرغمت مالك بن النضر على التراجع وقد أحس أنه أمام قمة لن يستطيع أن يصل إليها! وأن ينال منها، وأنه من الخير له أن يفر من الجدل فهو أضعف من أن يثبت أو أن يقاوم.

وانقلبت الآية وراحت أم سليم تحدث زوجها مالك بن النضر عن حلاوة الإيمان، وعن رضاء الله وعن حلاوة طاعته، وعن وعده الحق لمن دخلوا في دينه بأنه لن تكون لهم الجنات في الآخرة فحسب، بل ستكون لهم هذه الجنات في الدنيا حيث سيعظم أمرهم ويعلو رايتهم ويعز دينهم.

وكان مالك بن النضر يصغي في ذهول إلى حديث زوجته وهو يحس أن ما كان يسمعه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولكن كيف كان يستطيع أن يخرج على إجماع العشيرة فيعيب أرباب أهله ويتنكر للعزى ويسب اللات ويسخر من هُمل.

وهكذا وجد الرجل نفسه في موقف الحائر المرتبك الذي لا يدري ماذا يفعل أو كيف يتلمس لنفسه طريقاً للخلاص والخروج من هذا الموقف العصيب، وأنه ليصغي إلى أم سليم زوجته وهي تقول له ساخرة:

- ويلك يا مالك بن النضر، كيف تريد مني أن أترك جانب الحق وأن أكفر بدعوة الصدق وأتابعك على دين لا أساس له ولا وجود!

كان مالك بن النضر يطأطئ رأسه وقد استشعر العجز والضعة والهوان.. ولكن كيف كان يسلم وهو الذي يشعر في صميم نفسه أنه سيد البيت الذي يجب أن يأمر فيطاع؟ كيف كان يسلم ويتخاذل متنازلاً عن عالي مكانته مقراً لزوجته بما أقدمت عليه؟!

ولكن الرجل أحس ومع مرور الأيام أن محاولاته لن تجدي فتيلاً، فقرر بينه وبين نفسه أن يترك أم سليم وما آمنت به، وليبق كل منهما في الجانب الذي أراده لنفسه لا يعتدي على الآخر ولا يحب من الآخر أن يعتدي عليه.

ولكن حدثاً جديداً فوجئ به الرجل ذات يوم فكاد يجن له، فقد سمع زوجته أم سليم المجاهدة المسلمة تهدهد ولده أنس بن مالك وهو بين

عدد أتباعهم وجدت أم سليم نفسها أمام شريف من أشراف مكة، لو أفلحت في ضمه إلى حظيرة الإسلام، لكان في هذا ربح أي ربح. فلماذا لا تحاول والرجل اليوم ببابها وقد جاء يطلبها وهو أمام إلحاحه في طلبها يفكر بعقله ويحتكم إلى قلبه. ويتمنى لو تسعده ظروفه فتكون أم سليم له.

إنها فرصة حرام أن تضيع وفي ظروف مواتية مثل هذه الظروف ولا بأس من أن تبدأ المجاهدة المسلمة جهادها من ناحية العاطفة وكيفية استغلالها لتجتذب عدداً من أعداء الإسلام إلى حظيرة الإسلام.

وعاد أبو طلحة وقد راعه صمت أم سليم، عاد يطلب يدها من جديد وقد كبر في نفسه أن تظل على صمتها لفترة طويلة دون أن تتنازل بالرد عليه، حتى لقد ظن أن في صمتها هذا ما يعني تصغيرها لشائه وعدم اهتمامها به، وإذا بالمجاهدة المسلمة أم سليم تسرع لتقول له:

- يا أبا طلحة! اصغ إلي جيداً لقد أتيت تطلب يدي، وإنه ليدهشني أن تتجاسر على التقدم بمثل هذا الطلب وأنت تعلم ما بيني وبينك، فأنا مسلمة وأنت تكفر بالإسلام، ودِيني يحرّم علي أن أتزوج رجلاً يعلم أن إلهه من حجر، لا يضره ولا ينفعه، أو خشبة يأتي بها النجار فيجرها له، هل يضرك هذا الحجر أو تنفعك تلك القطعة وهي من خشب، أيها الرجل العاقل ألا تشعر بالخزي والعار عندما تحتقر عقلك الواعي فتنزل به إلى هذه الدرجة، فتقبل على ممارسة مثل هذه العبادة! يا أبا طلحة إنني أرحب بالزواج بك في حالة واحدة هي قبولك الدخول في دين الله واعتناقك الإسلام وذلك هو الصداق الذي بيني وبينك.

وسكتت أم سليم وتولت أبا طلحة فترة صمت طويل، راح قلبه يدق خلالها، وراحت المرئيات تترى أمام عينيه، وجعل العرض السخي الذي عرضته المجاهدة المسلمة يفرض على نفسه تصورات جديدة، إن أم سليم لا ترفض الزواج به ولا تشيح بوجهها عنه، ولكنها تمد يدها إليه وهي لا تسأله غير أن يشهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وكان من الطبيعي بعد هذا أن لا تطول بأبي طلحة حيرته فقد خلص إلى الرأي الذي كان يؤمن به فعلاً والذي طالما كان يروعه أن يبوح به.

وكاد قلب أم سليم يقفز من بين ضلوعها فرحة، فقد وصل جهادها إلى

من عمر في ركن بعيد لا يشعر بأحد ولا يشعر به أحد؟!

وراح يناقش الأمرين، وإذا به يسخر من نفسه وقد أوحت إليه أن يعمل على تنمية ماله! فلمن ينمي هذا المال ولمن يكثره وولده الذي سيصبح من النابهين مع غده كما تحلم أمه لن يكون في حاجة إلى المال ولا إلى ميراث أبيه الذي سيبرأ منه ويباعده وينساه!

وإذن، فليصرف مالك بن النضر همه إلى الفكرة الثانية وهي أن يقضي العمر في ركن بعيد منعزل حتى يواتيه الأجل. ولكن كيف كان لرجل مثله عالي الهمة أن ينسى وجوده وينكر شخصيته وأن يرضى المهانة بأن يقبل العيش بعيداً عن الناس، مقهوراً، برضاه، مغلوباً على أمره بكامل رغبته وهو الذي يحس بأن عليه أن يستعيد بناء نفسه وينتقم لأمه ويعوض عليها ما فاتها، فهو وإن كان قد هزم في عقر داره فيجب عليه أن يحقق نصراً، وأي نصر يفيء إلى ظله ويعيش ما تبقى من عمره في ظلال ذكرياته.

وراح مالك بن النضر يغامر بسيفه في مهجره الجديد، وإذا بعدو يتربص به ذات مرة ويتمكن منه فيقتله ويخلصه من أوصاب الحياة.

وهكذا وبعد أن اختفى إلى الأبد مالك بن النضر، وجدت أم سليم بنت ملحان نفسها وقد خلصت لأمور دينها ثم شواغل بيتها والإشراف على تربية وحيدها أنس بن مالك، فأقبلت عليه تحدوه بالعطف وترعاه.

وذات يوم دق باب أم سليم وحين أسرعت تلبي نداء الطارق راعها أن وجدت نفسها أمام أبي طلحة وقد جاء يخطبها.

وابتسمت أم سليم ابتسامة هادئة لم يلبث الفكر أن تشعّب بعدها في أكثر من مسار، فهذا رجل من أشراف قومه جاء يطلبها لنفسه وهو من الكافرين المتربصين بدعوة محمد، وموقفها منه معروف ولاشك.

ولكن هل كان لمجاهدة مسلمة عاقلة مثل أم سليم أن تجعل مثل هذا الصيد الثمين يفلت من يدها دون أن تمسك به وتحاول معه محاولة قد تكون مجدية لمصلحته ومصلحة دينها القويم!

كانت أم سليم تعتبر نفسها مجاهدة في سبيل الله بكل سلاح، ولما كان الجهاد لإعلاء دين الله خاصة مع بداية الدعوة يتطلب من المسلمين أن يحاولوا جهدهم ضم من يثقون فيهم إلى دعوة الوحدانية ليكثر

يديها وهي تلقنه الشـــهادتين وتقول للصغير «قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

لقد جن جنون مالك بن النضر وثارت ثوائر نفســه ونوازع الشــر فيها أمام اجتــراء زوجته، كأنها كانــت تمعن في حربه وقتالــه وهي تروّض الصغير على النطق بالشهادتين وتلقنه شهادة الوحدانية لتتغلغل في دمه وتسري في عروقه مسرى الحياة.

كيف كان يرضى مالك لولده هذا الأمر وهو الذي كان يطمع أن يجعله يقف في صفه على أن تعود هي بعد ذلك إلى دين قومها مرة أخرى؟

ولكنه اليوم، وأمام هذه الطريقة الجديدة من طرق الدعوة التي اتبعتها زوجته مع صغيرها أنس، يشعر أنه أمام إصرار جديد وسلاح جديد من أسلحة القضاء عليه، فلا يجد غير أن يصيح في أم سليم أن تترك ولده الصغير وشــأنه وألا تحاول إرهاق مســامعه بكلمات لا يفهم عنها شيئاً، ولكنهــا كانت تصر على المضي في طريقها الذي ارتضته مؤكدة لزوجها أن الصغير ســيكون له شأن عظيم في غده، وسينبه ذكره ويعظم خطره، وأن علــى الأب أن يترك ولده فليســا في حاجة إليــه؟ وإنهما ليكرهان نصائحه ويبغضان وجوده معهما في هذا البيت الذي أصبحت الشــريعة الإســلامية تقضي بأنه لا عيش لواحد من الاثنين مع صاحبه بعد اليوم، فلا أم سليم أصبحت تحل لمالك ولا مالك أصبح يحل لأم سليم، وإنه لمن العار أن يضمهما سقف واحد!

ولما أعيــت الحيلة مالك بن النضر وأعجــزه أن يقف في وجه زوجته أو أن ينتــزع منهــا ولده لم يجد غير أن يفر هاربــاً، لا من البيت بل من هذه القرية بأســرها، وأن يبتعد ما أمكنــه الابتعاد وأن يحاول الاختفاء عن عيون الشــامتين الساخرين ليوفر على نفسه ما كانت تحسه من ألم وعــذاب، وليقضي العمر كما أرادت له نفســه الظالمة بعيداً عن زوجته التــي كان يحبهــا وولده الوحيد الــذي كان يتمنى أن ينشــأ على غراره ويسير سيرته، ولكن الأمر أفلت من يديه فلم يجد غير التسليم والإقرار بالهزيمة!

وهكذا خرج مالك بن النضر إلى الشام هائماً على وجهه لا يدري هل يغامر في تجارة يســري بها عن نفسه وينمي ماله أم يقضي ما تبقى له

ذروته، وأفلحت في جذب هذا الرجل، عدو الإسلام إلى حظيرة الإسلام الذي دخله بكامل رضاه فتزوجته وكان صداقها إعلان الرجل إسلامه!!

وبقيت أم سليم بنت ملحان على العهد بها دائماً: مسلمة مجاهدة، تتمنى أن تتاح لها الفرصة تلو الفرصة لتجاهد بكل وسيلة وأداة في سبيل نشر الدين وإعزاز كلمة الله.

وكان من الطبيعي وقد بدأت الدعوة الإسلامية تدخل من طور إلى طور وتنتقل من ميدان إلى ميدان، كان من الطبيعي أن تجد أم سليم أكثر من فرصة من فرص الجهاد التي كانت تتمناها وترجوها فقد هاجر النبي من مكة إلى يثرب مدينته المنورة التي بدأ الإسلام يدخل بها عهداً جديداً.

هاجر محمد ليبدأ جهاده، ثم كان يوم «بدر»، ثم يوم «أحد».

وشهدت أم أنس بن مالك يوم «أحد» ثم عادت مع جموع العائدين والعائدات وفي نفسها من النضال صورة، ومن الرغبة في الجهاد أكثر من صورة ورغبة، وقد عرفت ما لم تكن تعرف، عرفت أن الدين القويم أساسه التضحية وحصنه الثبات والطاعة.

عادت أم أنس بن مالك إلى المدينة لتتعلم أكثر مما علمت ولتتفقه في دينها أكثر مما تفقهت.

وبنفس إقبال أم أنس بن مالك على المعرفة للتزود منها كانت تقبل على رعاية شئون بيتها وزوجها إقبالاً كانت ترى فيه مرضاة لله، لأنها عرفت أن الدين طاعة وأن أساس الطاعة الخضوع وخاصة لرب البيت، فمرضاته مرضاة لله والقيام بفروضه وما يتطلبه من الفرائض الحتمية التي إن لم تتم كاملة اعتبرت المرأة مقصرة غير كاملة الإيمان، وقد كانت أم سليم تكره أن تكون ناقصة الإيمان، إذ حرصت على استكماله من شتى نواحيه لتلقى الله بقلب سليم حين يشاء لها سبحانه وتعالى أن تلقاه.

لقد بدأت هي البداية الموفقة، وإنها لتدفع «أنسا» إلى أن يسير في الطريق نفسه ليغترف من بحر المعرفة ويتزود من زاد الطاعة والعلم، وليغشى مجالسه وليجالس أهليه وليجعل إمامه ومعلمه محمداً رسول الله، حتى يكون له القدوة والنبراس في مستقبل حياته.

وكان أنس بن مالك عند حسن ظن أمه به فتبع رأيها وعمل بمشورتها ودأب على مرضاتها.

وبدأت الأيام تسير، أيام نصر وإشراقات عز للمسلمين وللإسلام، وجعلت السنون تتتابع ونصر الله يرفرف على عباده ويملأ قلوبهم بالتقوى ويدفعهم إلى مزيد من الجهاد في أكثر من ميدان.

وكانت أم سليم خلال هذه الفترة لا تكف عن الدأب والجهاد.

وكانت مع المسلمين في شتى مراحل جهادهم المعنوي والحربي، ثم إذا بها تقف في النهاية والمسلمون يتأهبون لغزوة الفتح الكبرى.

الله أكبر، هذا يوم سعيد كانت تتمناه، إنه لوعد الله الحق: ﴿**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**﴾.

واليوم يتحقق وعد الله ويستعد المسلمون لغزوة الفتح الكبرى، وإن أم سليم لتجد نفسها تندفع مع غيرها من المسلمات المجاهدات لتكون في خدمة المحاربين الواثقين من نصر الله. وكانت أكثر المسلمات شوقاً إلى شهود هذه المعركة التي ستعود بها إلى مواطن عزها الأولى ومراتع طفولتها وشبابها حيث سيقدر لها أن تعيش بالروح أياماً في ظلال الذكريات.

وراحت أم أنس بن مالك تتخيل وتتخيل ما شاء لها الخيال والفكر ثم إذا بخيالها الجامح يتوقف في النهاية أمام الحقيقة الناصعة، وقد أعز الله دينه وأيد بالنصر رسوله ودخل مكة دون حرب أو قتال، فحطم الأصنام وأمر «بلالا» أن يعلو سطح الكعبة داعياً إلى الصلاة.

وتم النصر، ولم يكد رسول الله يستريح في مكة حتى عاد يتأهب والمسلمون معه لنضال جديد في سبيل الله، ولم يلبث منادي الجهاد أن دعا المسلمين الأوائل ومن جاء بعدهم إلى جهاد جديد في ميدان جديد.

خرج المسلمون إلى الجهاد في يوم حنين، وخرجت أم سليم معهم، وهي يومها حامل في ولدها عبدالله بن طلحة، وكان من الواجب عليها أن تراعي جنينها وتلتزم بيتها لتنعم بالراحة التي من الواجب أن تنعم بها سيدة في مثل حالتها، ولكنها وهي المجاهدة المناضلة أبت إلا أن تخرج إلى الموقعة وقد تمنطقت بخنجر لتدافع به عن نفسها ضد أعداء الله.

وبـدأت موقعة حنين. بـدأت وقد اختل فيها ميـزان القوى الروحية، فالمسـلمون اليوم وهم مقبلون عليها غيرهم بالأمس. كانوا بالأمس على حال غير هذه الحال، كانوا يشعرون أنهم قلة يجب أن يعظم أمرها وتعلو رايتهـا على كثرة طاغية. أما اليوم فهم يشـعرون بأنهـم كثرة وأنهم لن يغلبهم غالب مع كثرتهم هذه، وإذا بالله القادر سـبحانه وتعالى يأبى إلا أن يعلمهم درساً لا ينسونه أبدا ليعرفوا بعدها أن الكثرة لا تغني أصحابها من الله شـيئاً، وأن ثبات العقيدة وقـوة المعنويات والمقدرة الروحية على القتال، هي العدة وهي أداة النصر الذي لم تكن الكثرة أداته ولا وسـيلته في يوم من الأيام.

وانقـض كفار ثقيف على المسـلمين وقد حصروهم فـي واد تحوطه الجبـال، فتزعـزع الصف، ووهنـت القـوى وفترت العزائـم وضعفت المعنويات، وأحسـت الروح بعجزها عن الكفاح المستميت وإذا بالمسلمين يفرون إلا قلة منهم.

ووقف رسول الله والقلة المؤمنة القوية والروح حواليه تدافع بحراً زاخراً من الكافرين واستمر الكفاح، وكانت أم أنس بن مالك بين الصفوف التي راحت تدافع عن النبي فأبلت وأحسـنت، وكانت عند حسن ظنها بنفسها وعند حسن ظن النبي بها وفي مكان أراد لها الله أن تكون فيه على الدوام مؤمنة مجاهدة تسـعى إلى الجهاد ما أمكن وتعمل على أن تجود بالروح لتنال شرف الاستشهاد في مواقع الكرامة والشرف والتضحيات.

وانتصر المسـلمون وأم أنس بن مالك في مكانهـا والخنجر في يدها وهـي تروح به وتجيء تدفع وتدافع حتى التأمت الصفوف وأتم الله على المسلمين نعمة النصر.

وجاء أبو طلحة إلى النبي وكأنه كان يشـكو أم سـليم إليه لأنها حملت نفسها أكثر مما يجب أن تحتمل، ووقفت في مواقف لم يكن لحامل مثلها أن تقفها، فشهرت الخنجر وخاضت الموقعة والتحمت مع الصفوف وراح يقول للنبي:

- يا رسول الله، هذه امرأتي أم سليم معها خنجر.

وإذا بأم سـليم تسـارع لتقول للرسول شـارحة موقفها، مبينة سبب إصرارها على الخروج والخنجر معها:

- يا رسول الله إنما خرجت والخنجر معي أدافع به فإذا دنا مني أحد الكافرين بقرت بطنه.

وابتسم رسول الله ابتسامة تهلل بها وجهه الكريم الذي شاع فيه البشر وشـــاع النور. وقال للمجاهدة المؤمنة التي كان يعرف مكانتها وحقها في الجهاد:

- يا أم سليم إن الله كفى وأحسن!

وقد عاشت أم سليم بعد هذا.

وبعـــد أن تمت الانتصارات والفتوح وأكمل الله على المســـلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته وارتضى لهم الإسلام دينا، عاشت أم أنس حياة الدأب على الكفاح المســـتميت، فكانت المؤمنة الصادقة المجاهدة وكانت المسلمة المعتزة بإسلامها. وكانت الصحابية الجليلة التي روت بعد ذلك عن رسول الله أربعة عشـــر حديثاً منها في الصحيحين أربعة أحاديث أحدها متفق عليه، كما انفرد البخاري بحديث ومسلم بحديث آخر.

وكما روت أم سليم بنت ملحان عن رسول الله، كذلك روى عنها ولدها الراويـــة الصادق أنس بن مالك وعبدالله بن عباس وهما من كبار الرواة الموثوق بصحة روايتهم، وروى عنها أيضاً عمرو بن عاصم الأنصاري وأبو سلمة عبدالرحمن بن عوف وزيد بن ثابت.

هذه كانت أم ســـليم بنت ملحان بن خالد، أم أنس بن مالك، مســـلمة كانت من الســـابقات، ومؤمنـــة كانت من الرعيـــل الأول من المجاهدات، وراوية حديث مشـــهود لها بالدقة والصدق، ويكفيها بعد هذا عزا وفخراً أن: أنـــس بن مالك قد رضع لبنها ونشـــأ في حجرها، فكانت هي معلمه الأول الذي أبان له أوضح السبل، ويسر له الطريق إلى الحقيقة والمعرفة، فاتبع الطريق الذي أرشدته إليه أمه فكان خير ابن لأعظم الأمهات، لأم كانت بحق من أعظم المسلمات الخالدات.

سكينة بنت الحسين *

عندما طرق الحسين بن علي، رضوان الله عليه، باب امرئ القيس بن علي الكلبي، طالبا يد ابنته الرباب، ملأت الفرحة قلبه، وكادت الدنيا تضيق به على سعتها، إذ ارتبط نسبه ببيت محمد عليه صلوات الله وسلامه، وما أسرع ما استجاب للقادم العزيز، ودخلت الرباب بيت الحسين.

وأنجبت الرباب فيمن أنجبت، فتاة جاءت آية من آيات الحسن والجمال، سمّوها آمنة، واعتادت أمها أن تناديها سكينة فغلب عليها الاسم وعرفت به، ومع شهرتها بهذا الاسم تلاشى اسمها الأول.

وفي مهاد الفضل نشأت سكينة، فكان أبوها خير الآباء، وكانت أمها فضلى النساء، وترعرعت في بيئة حديثة العهد بالإسلام، وثيقة الرابطة بالنبي، شديدة الاستمساك بدينه، فكانت عابدة قانتة محافظة على شعائر الملّة.

ولما شبت واكتمل نضجها واستوى حسنها، تقدم لخطبتها كثيرون، منهم ابن عمها الحسن ابن الحسن بن علي، ولكن عمه الحسين قال له:

اخترت لك فاطمة ابنتي الأخرى، فإنها أشبه النساء بأمي الزهراء، وهي تقوم الليل وتصوم النهار، ولها جمال الحور. أما سكينة فلا أراها

* العربي - العدد ٣٤ - سبتمبر ١٩٦١م

تصلح لرجل، إذ غلب عليها الاستغراق مع الله.

ولعل في وصف أبيها ما يلقي بعض الضوء على سر تسميتها بسكينة.

عاشت سكينة في الحجاز مع أبيها الحسين، بعد مقتل جدها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ونعمت بالترف في صدر العصر الأموي، وتأثرت إلى حد بعيد بالبيئة المحيطة بها بيئة الخيال والشعر الذي انصرف إليه الناس، وعمدت الدولة إلى جعله وسيلة من وسائل الدعاية لسياستها الغريبة على العرب، فاستمعت إلى مهاجاة جرير والفرزدق والأخطل، ووصلت إلى أسماعها أشعار مجنون بني عامر، وأنصتت إلى تشبيب جميل بثينة، وغزل كُثيِّر في عزة، وأقاصيص ابن أبي ربيعة الخيالية عن عاشقاته المفتونات به.

فكانت راوية للشعر ناقدة له، خبيرة بضروبه وأوزانه، عالمة ببحوره وقوافيه، ذوّاقة للأدب عارفة بأقدر رجاله.

ولقد عرف الشعراء للسيدة سكينة عظم مكانتها من الأدب فاعتاد فحولهم أن يقصدوها، ليسمعوها شوامخهم فيعرفوا رأيها فيها.. بل وفيهم هم أنفسهم، فإذا تكلمت استمعوا إليها صامتين دون جدال، اكباراً لقدرها، واقتناعاً بحجتها.

ولقد حدث ذات مرة، أنه بعد أن أتم الفرزدق حجّه، خطرت له زيارتها، فعدل عن زيارة المدينة وقصد بابها، فدخل عليها مسلّماً. فسألته عن أشعر الناس فادعى أنه هو،فقالت له:

- أشعر منك جرير إذ يقول:

بنفسي من تجنبه عزيز
عليّ ومن زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه
ويطرقني إذا هجع النيام

فأراد أن يجادل وأن يسمعها ما هو خير مما قالت، فلم تسمح له، فعاد إليها مع الغد، وإذا بها تسأله ثانية عن أشعر الناس فادعى أنه هو!! فعادت تقول له:

صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول:

لولا الحياء لهاجني استعبار
ولـزرتُ قبرك والحبيب يزار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا
ليل يكر عليهمو ونهار

فقال الفرزدق: والله لئن أذنت لي لأسمعتك ما هو خير منه، فلم تسمح له. فخرج.

وعاد إليها مع اليوم الثالث ليسمعها ما هو خير منه فسألته ثالثة من أشعر الناس؟ فعاد يدعي أنه هو، فكذّبته وقالت: جرير أشعر منك إذ يقول:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلننا، ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

فسألها أن تأمره بإسماعها ما ظنه خيراً من شعر جرير، فلم تأذن له، فاحتج وقال:

يا بنت رسول الله!! إن لي عليك حقاً عظيماً، ضربت آباط الإبل من مكة لأسلم عليك، فكذبتني وطردتني وفضلت جريراً عليّ، وأبيت أن تسمعي ما هو خير من شعره!! وإن بي ما قد عيل منه صبري، وهذه المنايا تغدو وتروح، ولعلي لا أفارق المدينة حتى أموت، فإذا أنا متّ فمُري أن أدرج في كفني وأدفن في حرّة هذه (الحرّة أرض ذات حجارة نخرة سود كأنما أحرقت بالنار) وأشار إلى جارية بارعة الحسن من جواريها.

فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية وقالت له:

- يا فرزدق!! احتفظ بها وأحسن صحبتها، فإني آثرتك بها على نفسي.

وبالرغم من تحيّز سكينة لجرير وتفضيلها إياه على الفرزدق، فإن جريراً نفسه لم يسلم من نقدها نقداً علمياً رمت من ورائه إلى تلقينه درساً في آداب اللياقة وحسن السلوك، خاصة إذا طرق طارق بابه في

غير موعد الزيارة، إذ حدث أن أنشد جرير قصيدة قال فيها:

طوقتك سيدة القلوب وليس ذا

حين الزيارة فارجعي بسلام

ومما لا شك فيه أن رده للطارقة أيا كانت فيها خروج على آداب السلوك، فكيف يكون الحال إذا كانت هذه الطارقة «سيدة القلوب»!!

ذلك ما عاتبته من أجله سكينة وردته عن بابها ولم تأذن بدخوله عليها، وبعثت إليه جارية تذكره بذلك الشعر وتقول له:

- أفلا أخذتَ بيدها فرحّبت بها وأدنيت مجلسها وقلت لها ما يقال لمثلها؟!! أنت عفيف وفيك ضعف!!

ومن بديع نقدها ما قالته، وقد سمعت البعض في مجلسها ينشد قول «الحارث بن خالد المخزومي»:

ففزعن من سَبُع وقد جهدت

أحشاؤهن موائل الخمر

فقالت للحاضرين:

- أحسن عندكم ما قال؟ ! فقالوا: نعم!

قالت:

- وما أحسنه؟ فوالله لو طالت الأبل سبعا لجهدت أحشاؤها.

ولم تكن سكينة ذواقة للشعر وناقدة له فحسب.. بل كانت لها أذن تعشق ضروب الموسيقى وتميز بين ألحانها، حتى لقد حدث أن حكّمها الغريض وابن سريج في نغم لكل منهما فقال لها ابن سريج:

- يا سيدتي!! إني كنت قد صنعت صوتاً وحسّنته، ونتوقف فيه،وخبأته لك في حريرة في درج مملوء مسكا، فنازعنيه الغريض، فأردنا أن نحتكم إليك.. فأينا قدمته فينا تقدم:

فقالت: هاته!! ففناها:

وعرّجي علينا ربّة الهودج

إنكِ لا تفعلي تحرجي.

فقالت: هاته أنت أيضا يا غريض.. ففناها إياه، فقالت لابن سريج، أعده فأعاده، وسألت الغريض أن يفعل ففعل، فسكتت لحظة قالت بعدها:

- ما أشـــبهكما باللؤلؤ والياقوت في أعناق الحسان: لا يُدرى أيهما أحسن!!

ولقد كانت ســـكينة - كما قال ابن خلكان - ســـيدة نســـاء عصرها وأحســـنهن أخلاقاً، وأكثرهن ظرفا ولعل مـــن دعابتها لكثير عزّة، ما يشـــف عن نفسها الصافية وحبها للممازحة البريئة، إذ حدث أن خرج كثير في الحج ليبيع جملاً له، فمر بسكينة، ومعها عزة، وهو لا يعرفها، وكان كثير شـــهيراً بالبخل، فأرادت أن تسخر منه، فأمرت أتباعها أن يســـاوموه جمله، فأسرعوا إليه وســـاوموه فطلب مائتي درهم، وعند ذاك ســـألته سكينة من وراء حجاب، أن يُنقص الثمن، فأبى فدعت له بتمر وزبد، فأكل حتى شـــبع، وعادت تسأله أن ينقص من الثمن الذي عينه شـــيئاً فأبى، فقال له أتباعها: ولكنك يا كثير قد أكلت بأكثر مما تســـألك إنقاصه!! فضع عنا شـــيئًا.. ولكنه أصر على ألا ينقص من الثمن الذي عيّنه دانقاً واحداً.

وإذ ذاك قالت سكينة:

ارفعوا الحجاب!! فانكشف عن ســـكينة وعزة إلى جانبها.. فما أن رآها، كثير حتى استحى وانصرف وهو يقول: هو لكم!! هو لكم!!

وأرادت ســـكينة ذات مرة أن تســـخر من الشـــاعر عمر بن بن أبي ربيعة، وقد سمعت كثيرات من صويحباتها يتحدثن عنه وعن مغامراته الوهمية مع عاشقاته العديدات، فأرسلت إليه، وضربت له موعد لقاء عيّنت زمانه ومكانه «الصورين».

وجاء عمر على راحلته في موعده، وظل يحدث سكينة وصويحباتها حتى طلع الفجر أو كاد.. ولم يبد من سكينة ما يوحي بجدية «اللقاء» الموعود!! وأحـــس ابن أبي ربيعـــة أن عذارى ليلته قد أردن بدعوته، الســـخرية منه!! فأراد أن ينصرف فقال يبرر انصرافه:

- لـــولا حاجتي لزيـــارة قبر النبي (صلى الله عليه وســـلم) ما كنت لأخلط بزيارتكن شيئاً.

ثم استأذن وانصرف.

وكان يحـــدث أن تتوافد على بيت ســـكينة شـــريفات المدينة وبنات أعرق بيوتها، وكن يتذاكرن أو يتدارســـن أو يروين أقاصيص في شتى

شـئون الحياة، ولقد حدث ذات مرة أن رحن يتفاخرن بالأنساب على غـرار ما كانت تفعل العرب، فقالت بنت عثمان بن عفان تفخر بأبيها رضي الله عنه:

أنا بنت الشهيد!!

وسـكتت النسوة جميعا ولم تجسر إحداهن أن ترقى بأبيها أوأخيها أو زوجها على صهر الرسـول وصاحبه، واتجهت أنظارهن إلى سكينة التي قالت بدورها صامتة حتى حان موعد الصلاة وعلا صوت المؤذن حتى وصل إلى قوله:

أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وعند ذاك نظرت سكينة إلى بنت عثمان وسألتها:

- أهذا أبي.. أم أبوك؟!

وسـكتت بنت عثمان ولم تجد ما تقول بعد أن قالت سكينة قولها.. وكان فصل الخطاب.

وتزوجت سـكينة أكثر من مرة، تزوجها عبدالله بن الحسـن، فقتل عنها قبل أن يدخل بهـا، ثم تزوجها مصعب بن الزبير، وأمهرها ألف درهـم، فولدت له ابنتـه الرباب وكانت كأمها آية من آيات الحسـن. واعتادت سكينة تدليلها وتزيينها باللؤلؤ قائلة:

«إنها ما ألبسـتها إيـاه، إلا ليفضح جمالها جمالـه، ويزيد بريقها ببريقه».

ولمـا قتل مصعب بـن الزبير خلال النزاع علـى الخلافة بين أخيه عبدالله ابن الزبير ومروان بن الحكم - تزوج سكينة عبدالله بن عثمان بن حكيم فأنجبت منه عثمان الذي اشتهر باسم «قريب».

وتزوجت سـكينة بعد ذلك من الأصبغ بـن عبدالعزيز بن مروان، وقيـل إنه فارقها قبل الدخول بهـا، فتزوجها يزيد بن عمر بن عثمان ابن عفان، فأمره سليمان بن عبدالملك أن يطلقها ففعل.

وقيـل: بل إنها تزوجت الأصبغ ودخل بها، وأنها لحقت به إلى مصر وهـو وال عليها وظلت في كنفه حتى توفيت إلـى رحمة الله، ودفنت بقبرها الحالي في القاهرة.

والقـول إن يزيداً حفيد عثمان طلقها بأمر سـليمان ابن عبدالملك،

وأنها ماتت ودفنت بالمدينة، قول يؤكده ابن خلكان والنووي والسخاوي... ويؤكد مـــن ناحية أخرى وفاتها ودفنها بمصر، «الشـــعراني، والمنادي الحلبي»!

وعلى أي الحالين، ســـواء ماتت ســـكينة بمصر أو بالمدينة، ودفنت هنـــا أو هناك، فقد عاشـــت وماتت وهـــي كما قال عنهـــا أبو الفرج الأصفهاني:

«إن امرأة تختار على سكينة لمنقطعة النظير».

وكان قوله الحق: فقد كانت «ســـكينة» ذات دين، وحســـب ونســـب، وجمـــال وأدب.. وكانـــت خير مثال للمـــرأة المســـلمة الصالحة التي استطاعت أن تخلد اسمها على كر الدهور.

فاطمة النبوية *

الله القادر سبحانه وتعالى مولى الجزاء، وموفي الصابرين حقهم، قال في محكم آياته البينات ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾. صدق الله العظيم

وحياة المجاهدين الشهداء في الجنة معروفة غير محددة المعالم ولا الآماد وأرزاقهم فيها وفيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة.. فهم أولاً مكرمون معظمون.. كلهم في جوار الله وكلهم قريب منه، يكلمهم وينظر إليهم ويعطيهم الجزاء الأوفى.. الجنات المعروشات دانيات القطوف.. والحور العين لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان.. والولدان المخلدون الذين يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون.

ولهم بعد هذا الأجر الأخروي الأعظم والثواب الأفخم جزاء أي جزاء.. وعلى الرغم من أنهم عبروا برزخ الحياة الدنيا إلى عالم النعيم فإنهم في الدنيا أحياء.. وأيضا يرزقون!

وحياتهم في الدنيا طيب الأحدوثة، وخلود الذكر.. أما رزقهم الذي يرزقونه فهو الترحم عليهم والاستغفار لهم، والتغني بفضائلهم، وجليل أعمالهم والتمثل بها، والنهج على منوالها المحكم.. وحب ذراريهم وتمجيدهم، وتعظيمهم والالتفاف حول راياتهم الخفاقة لهم، وتذكر الحيف الذي نزل بهم للعمل على رفعه عن كواهل البشرية التي ثاروا وقاموا من أجل تحريرها وإسعادها..

* العربي - العدد ١٢١ - ديسمبر ١٩٦٨م

وتحقيق ما وقفـوا دونه، حتى لكأن لجهاد من بعدهم يكون فريضة لإتمام ما يؤدونه وحال دونهم الحظ وإتمامه.

من أجل هذا، وحباً في تمجيد الفضائل والبطولات يحب الناس الشـهداء أصحـاب - التضحيات وأهل المثل العالية، فيعيشـون على ذكراه، ومن أجل الكفاح في سبيل العقائد التي استشهدوا من أجلها.

والشهداء من أهل بيت النبوة، وخاصة الطالبيين العلويين، من سادات بني هاشـم أبناء الإمـام علي بن أبي طالب والزهراء البتـول فاطمة، ولم يحبهم المسـلمون كل هذا الحب، ولـم تتوارث الأجيال حبهم والتشـيع لهم إلى حد الاسـتهانة بالأرواح والأموال من أجل هذا الحـب القوي - لأنهم أهل البيت وقرابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسب، بل لأنهم كانوا أبطالا مغاويـر، لم تلههم دعة، ولم تصرفهم عن واجـب الجهاد زخارف ولم يرعهم سلطان غاصب ولا بطش طاغية، فثاروا للحق ومن أجل الحق.

ومـن أجل هذا، وعلى الرغم مما لقوا عند اللـه من رائع التكريم، كرمهم الناس، والتفوا حول رايـات ذكراهم، وعظموهم كما عظموا ذراريهم وأحفاد الأحفاد.

***

واليوم.. نقف أمام سـيرة من السـير الطاهرة.. وحديث عذب محبب عن فاطمة الصغرى.. بنت الإمام الشهيد الحسين بن علي التي نعرفها في مصر باسم «السـيدة فاطمة النبوية» صاحبة المزار والمشهد الفخم في حي الدرب الأحمر.

فاطمة هذه.. أخت «علي السجاد زين العابدين».. وسكينة.

نقـف أمام تاريخها وسـيرتها حيارى لا ندري من أيـن نبدؤها، ولم يترك لنـا الرواة والمؤرخون غير نبذ متفرقة عن كلمات أو مواعظ و حكم منسـوبة إليهـا.. أما من هي؟! متى ولدت؟! وفي أي عصـر؟! وكيف مرّت بها حياتها الأولى؟!

فتلك أمور على الرغم من أن لها المقام الأول ونحن نترجم لحياة السـيدة: فاطمة بنت الحسين بن علي، لم يهتم بها الرواة ولم يسجلوها.

إن أحـدا لا يـدري على وجـه التحديد متى ولدت فاطمة بنت الحسـين السـبط الشـهيد.. هـل ولـدت أيام خلافـة جدهـا الإمام علـي بن أبي

طالب رابع الراشدين.. أو في خلافة عمها الإمام الحسن المجتبى.. أو ولدت بعد ذلك بأعوام، وعقب عودة بيت علي بن أبي طالب وأهله إلى المدينة المنورة عقب تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان لحقن دماء المسلمين ثم تصالحهما معا، بموجب تعاقد نص فيه صراحة على أن تكون الخلافة من بعد معاوية للحسن مرة أخرى!! ونستعرض الطبري، وابن الأثير، وطبقات ابن سعد، ومرآة الجنان لليافعي والأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وتهذيب التهذيب لابن حجر وطبقات الأتقياء لابن حبان، فنقف أمام حقيقة اتفق عليها إجماع الأقوال والروايات فنتشبث بها ونمسك بخيطها الدقيق لنبدأ معه استعراض حياتها وتحديد تاريخ مولدها على وجه صحيح.

وإذا كان ابن حبان في «طبقات الأتقياء» يقول إنها لحقت بربها في السبعين من عمرها، ثم يجمع الباقون كلهم أنها توفيت إلى رحمة الله عام ١١٠ من الهجرة فإننا نقول عن يقين إن فاطمة بنت الإمام الحسين ولدت عام ٤٠ هجرية.

وولدت في الكوفة بالذات أيام خلافة جدها علي بن أبي طالب وفي أخريات أيامه تحديدا، إذ امتدت إليه بالاغتيال يد ابن ملجم اللعين بعد تسع خلون من رمضان عام ٤٠ للهجرة.

لقد ولدت فاطمة عام اغتيال جدها.. وسماها أبوها الحسين فاطمة تيمناً بأمه الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعلها كانت أشبه البنات بها، كما كان أبوها أكثر الناس شبها برسول الله.

وعاشت فاطمة خلافة عمها الحسن بن علي بن أبي طالب ثلاث سنوات أو أربعا، كانت خلالها من صغر السن بحيث لم تفهم الأحداث الرهيبة الجارية، ربما التقطت أذناها همسات جواري دار الخلافة، أو حراسها في أثناء الصراع الدائر بين عمها الإمام الحسن المجتبى ومعاوية بن أبي سفيان الذي خرج على بيعة علي وبقي معتصماً بالشام، منفصلاً به عن الخلافة وعن الوطن العربي الموحد أو يستخلص الأمر لنفسه وبنيه ثأراً لدم عثمان، وهو أبعد الناس عن أن يكون صاحب دم ثالث الخلفاء الراشدين، فصاحب دمه إنما كان ولي الأمر، ورابع الراشدين علي بن طالب.

وصلت هذه الهمسات الخافتة ولاشك إلى أذني فاطمة، بنت الرابعة، فلم

تفهمها ولم تحفل بها ولم تقم لها وزنا، فكيف كان لصغيرة مثلها أن تفهم مثل هذه المشاكل أو أن تهتم لها.

ولكن ثمة حادثة واحدة قد وقرت في أذني فاطمة الصغرى ولاشك.. تلك الحادثة كانت بين أمير المؤمنين عمها الحسن، وبين أبيها الإمام الحسين شقيق الحسن الذي يصغره.

لقد سمعت الصغيرة الشقيقين المتحابين يتشاوران ووصل إلى مسمعها صوتهما الصاخب. كان أمير المؤمنين الحسن بن علي قد اعتزم التنازل لمعاوية عن حقه في الخلافة، وكان الحسين يأبى أن يحدث هذا، ويرى أن يدافع الحسن عن حقه، و يرغم الخارج معاوية على طاعته ولو دارت رحى الحرب بأرهب وأفظع مما كانت تدور.

لقد غضب الإمام الحسن المجتبى يومها على شقيقه الحسين، وإن صوته الغاضب المهدد، الراعد ليصل إلى أذني الصغيرة بمحض المصادفة وهو يقول للحسين الأبي الشجاع:

«والله الذي لا إله إلا هو، لقد هممت أن أسجنك في بيت أسد عليك بابه حتى أقضي بشأني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك».

ثم ران الصمت على الشقيقين المتحابين اللذين ما اختلفا قبلا، وأصغت الصغيرة فلم تسمع صوت أبيها ابدا.

أبدا ما تكلم الحسين الشقيق الأصغر، ولا ارتفع صوته معقبا على أخيه الحسن، ومن هنا، وعلى الرغم من صغر سن الطفلة، وعدم إدراكها الكامل للحادث نفسه، فقد وقر في نفسها إحساس مبهم ارتاحت إليه، ذلك كان الإحساس بوجوب الطاعة المطلقة، طاعة الصغير للكبير لضمان راحة البيت وأهله واستقرار من فيه وعدم تعرضهم للهزات وللأعاصير!!

وتم تنازل أمير المؤمنين الإمام الحسن المجتبى عن حقه لمعاوية، ثم رحل أبناء علي وفيهم الحسين أبوها إلى المدينة المنورة ليعيشوا فيها هناك حياة وادعة.

ومرت سنون معدودة، ست سنوات على وجه التحديد، وقد بلغت فاطمة التاسعة من عمرها، وإذا بها تستيقظ على نبأ رهيب.

«الجعدة» اللعينة، الخائنة، امرأة عمها الحسن تدس له السم في طعامه فيموت لوقته.

وكادت تحـدث فتنة كبـرى في المدينة وتجمّع النـاس، وعلا صوت الإمام الحسين مقسماً أن لابد سيدفن شقيقه الحسن مع جده سيدنا رسول الله.

وغضبت المدينة المنورة كلها لغضبة الحسين، ووقفت في صفه تؤيده وتعينه على تنفيذ وصية أخيه الحسن، وتسامع بنو أمية بالنبأ الذي روعهم فخرجوا وقد ركبوا رءوسـوهم وهم في كامل عدتهم الحربية، وعلى رأسهم مروان بن الحكـم ينادي بالويـل والهلاك ويدعو إلى الحرب والقتـال، وقد أحفظه أن يدفن عثمان ذو النورين وصهر الرسـول وثالث الراشدين في البقيع، ويدفن الحسـن في بيت الرسول، وأقسم أن هذا لن يتم ولن يكون أبدا ما دام قادراً على حمل سيفه»!!

واستطار الشر، وعظم الأمر، وعلمت فاطمة الصغيرة بنت السنوات التسع بما حدث فتعلمت من الحادثة ماهية الشجاعة والإقدام والجرأة... ثم...

ثم تدارك بعض العقلاء الأمر، وحالوا دون الخرق والاتساع المنتظر، وجعلوا الحسـين يتنازل عن رأيه وإصراره حفظـا للوحدة، وإبقاء للكلمة من التفرق، ونزل الحسين على الرأي الحكيم، وسمعت فاطمة الصغيرة بما حدث فعلمتها الأحداث حكمة جديدة قوية، الشجاعة فضيلة لاشك ولكن، الحلم أقوى من الشجاعة وأبقى.

وزفرت فاطمة زفرات الراحة والهدوء، وتركت الأمور تسير كما يريد القدر المتصرف في الناس، ثم إذا بفاطمة تقف أمام حادث جديد.

كانت قد أحاطت بالحسين ظروف خاصة، أزمة مالية اضطر بسببها إلى الاستدانة، ومرت الأيام وما اسـتطاع أن يفي دينه..وتحرجت الأمور بالإمام الحسين، وضاقت به ظروف عيشه، فلا هو بقادر على أن يسدد ما عليه من دين، ولا هو بقادر على تحمل بقية أعباء الحياة.

وسـمع معاوية بن أبي سفيان وهو في دمشق عاصمته بأمر الضائقة التي كان يجتازها الحسـين.. وأحب! أن يجرب معه دهاءه وسياسـته التي يرمي من ورائها إلى تحقيق مكاسـب شـعبية تجعل الناس، وكلهم يبغضه، يتحدث بالفخر عنه.

واهتدى داهية الأمويين إلى غرضه، ونفذ إليه في سرعة ودون انتظار، إنه «نبـع أبي بيرز» وهو عين ماء جارية في المدينة كان يملكها الإمام الحسـين، وعرض معاوية على الحسين مائتي ألف دينار دمشقية ثمناً للعين!

إنه مبلغ يسيل له اللعاب فعلاً، مبلغ فيه النجدة المرجوة والفرج المنتظر في الضيق الشديد، ولكن الحسين ودون أن يشغل نفسه رفض الصفقة وأبى أن يبيع عين الماء الجارية لمعاوية، ذلك لأنه قدر الأمر وتدبره جيداً، فقد كانت العين للإمام علي الرضا ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد وهبها رحمه الله وأوقفها على فقراء المدينة، فهي والحالة هذه تراث عائلي لا يخص الحسين وحده، بل يخص تقاليد العلويين الطالبيين كلهم، والتفريط بالبيع لمعاوية، صفعة لبني هاشم، صفعة معنوية لها مغزاها الكبير، إذ تعني سحب فضل أسبغه علي كرم الله وجهه على الفقراء، ثم تسليم هذا الفضل إلى غريم الهاشميين في الجاهلية والإسلام، ليتصدق بها بدوره على الفقراء!!

وأبداً ما كان الحسين ليفعلها.. وما كان بالرجل الذي يفرط في تقاليد أسرته ومكارمها الأثيرة، فبقي حيث كان من الدين والضائقة حتى يتولاه فرج الله برحمته.. ورد كيد معاوية إلى نحره.

وخرجت فاطمة الصغيرة التي كانت قد تجاوزت خمسة عشر ربيعاً - بدرس جديد من موقف أبيها لقد عرفت أن من من أقدس الواجبات رعاية تقاليد الأسرة، والمحافظة على تراثها المعنوي، فهذا وفاء للتقاليد واستمساك بالعرف.

ومرت الأعوام.. وفي كل يوم من أيامها كانت فاطمة الصغيرة تخرج بحكمة أو موعظة، وهي تتابع دراسة مسيرة أبيها، فقد كان الحسين بن علي رضي الله عنه، وأرضاه رجل بر ووفاء، يأبى أن يتنكر لوفائه، حتى لو غدر الناس.

وبالرغم من أن معاوية تنكر لشرعة الوفاء، وأبى تماشيا مع طبيعته أن يفي بعهد الله وقد عاهد الحسن، وأغرى به «الجعدة» زوجته الغادرة فدست له السم فمات، ثم راح من بعد ذلك يتنكر من جديد لعهد الله،ويسعى إلى أخذ البيعة لولده يزيد، دون أن يرجع إلى الحسين شقيق الحسن ووريثه الشرعي، فإن الحسين رضي الله عنه أبي البيعة لعدم شرعيتها، وبقي بعيداً عن حلبة الصراع وأبى أن يستمع إلى من حاولوا إغراءه بالخروج على معاوية ناكث العهود.

أبى الحسين أن يخرج على الخارج فعلا، ذلك لأنه كان يتعامل بطبيعته هو، وهيهات لابن بنت رسول الله أن يتدنى إلى مهاوي ذلك الخلق، فقال لمن طالبوه بالخروج إنه قد عاهد معاوية وما كان لمثله أن يغدر بالعهد، إن العهد

كان مسئولا.

وهكـذا تعلمت فاطمة جديدا، ورائعاً، تعلمت قيمة الوفاء بعهد الله، وعدم الخـروج عليه مهما كانت الظروف والدوافع، حتى لو خرج الطرف الآخر ولم يعترف بالعهد.

وحل عام ٦٠ من الهجرة، وفاطمة يومها تسـير إلى عتبات العشـرين من سـني حياتها، جارية وضيئـة فيها من جلال بني هاشـم، وجلال مظهرهم الشيء الكثير، فوق أنها كانت على جانب عظيم من جمال الصورة.

تلكـم كانـت فاطمة بنت الحسـين التي تحـدث عنها الـرواة والمؤرخون عقـب مذبحـة كربـلاء ونكبتها المروعـة، فقالوا عنهـا إنها «كانـت جارية وضيئـة...» أجل تلكـم كانـت الجارية الوضيئـة، وهذه كانـت حياتها في كنـف الحسـين أبيهـا العظيم، فنهلـت من مـورده وتحلت بخلقـه: وكانت صورة منه في شـجاعته وجرأتـه، وبره، وصلاحه، وتدينـه وتعبده وتقواه!! ولنعد بعد هذا إلى عام ٦٠ الهجري.. إنه بالنسبة لفاطمة الشابة عام جديد في كل شيء.

عام قلب موازين حياة الأسـرة الهانئة الهادئة المسـتقرة التي عاشت بعد موت الإمام الحسـن المجتبـى، بمنجاة عن العواصف والتيارات السياسـية، وحلبات النزاع والنضال في سـبيل السلطة، لقد مات معاوية بن أبي سفيان عـام ٦٠ الهجري وجاء من بعده يزيد الذي تولى إمارة المسـلمين: وجعل من نفسه عن طريق بيعة زائفة وليا من أولياء أمور الناس.

ونظر يزيد الخمر والشـرور حوله وهو في دمشق واستقر به الطرف عند مدينة رسول لله وإنه ليذكر وصية أبيه معاوية له، إنها وصية داهية السياسة لولي عهده، وهو يودّع الحياة ليستقبلها يزيد.

لقـد قال معاوية يومهـا لولده: لقد كفيتك الرحلـة والترحال ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، ولست أخاف عليك من رءوس قريش إلا ثلاثة، أولهم الحسـين بن علي وثانيهم عبدالله بن عمر، وثالثهم عبدالله بن الزبير.

أما الحسـين فإن له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم وإني لأرجو الله أن يكفيك شره بمن قتل أباه وخذل أخاه، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه.

«وأما ابن عمر فلا تحفل به، ودعه لعبادته فإنه رجل قد وقذه الدين، وأما ثالثهم وهو عبدالله بن الزبير، فخذه بالشك فإنه خب ضب...».

إذن، فقد كان الخطر كل الخطر على يزيد بن معاوية يكمن في وجود الحسين بن علي.

ومن هنا، ولم يكد يزيد يتسلم مقاليد سلطاته حتى صمم في نفسه أن يأخذ بيعة هؤلاء النفر الثلاثة، وأولهم وأخطرهم بلا شك كان الحسين بن علي بن أبي طالب.

وبعث يزيد إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليه على المدينة يأمره أن يأخذ الحسين وصاحبيه أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا «وأسرع الوليد ينفذ أمر يزيد ولكن في حذر مكن الحسين من تفويت الفرصة على يزيد ووالية وأبى البيعة.

وشعر الحسين أن وجوده في مدينة جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الخطر كل الخطر، فتحايل حتى استطاع أن يخرج وأهله بليل من المدينة ساعين إلى مكة.. البلد الحرام.

وهكذا، ومع خروج الحسين بأهله من المدينة بدأت حياة القلق، والرهبة والترقب بالنسبة للحرائر الطالبيات من بنات رسول الله وفاطمة بنت الحسين فيهن، وإنها اليوم لتستقر في مكة إلى جوار البيت العتيق فتحس في صميم نفسها أنه استقرار وقتي رهين بأحداث مرتقبة وأنباء كان والدها الحسين ينتظرها على جمر الشوق.

وعلت الأصوات، وجاءت الرسل إلى مكة وكلهم يطلب من الحسين أن يخرج، ويعلن خلع يزيد، وفكر الحسين وفكر، والرسل يتتابعون والأنباء مشجعة مطمئنة.. والثقات يؤكدون أن عشرة آلاف فارس ينتظرون الحسين بالكوفة لينصروه ويعيدوا إليه حقه، ليخلع يزيد الخمر والفسوق، ويكون هو صاحب الأمر.

ومرت أربعة شهور طوال، خرج الحسين بعدها من مكة إلى الكوفة تسبقه رسله ولكن عيون بني أمية كانت يقظة منتبهة.

ووصل الحسين إلى المكان المعين ليجد أن العشرة آلاف فارس قد تبخروا وكأنهم أطياف في حلم ذهبت بها يقظة مفاجئة، وإذا بالهاشمي الطالبي الشجاع وحده في «كور بابل» التي عرفت باسم: «كربلاء».

وصـدق حدس فاطمة وتحققـت مخاوفها كلها، وأن كل مـا تنبأته بقلبها المؤمـن ليحـدث كله، ودارت الدائرة على الحسـين ومن معـه، ومن كان مع سيد الشهداء وأسفاه، قلة صغيرة من مائة أمام عشرات الألوف من القساة الطامعين في جوائز أمير المؤمنين.

يوم رهيب،أبدا ما نسيته بنات هاشم، يوم فاجع يذكرنه بالعويل والشهقات، وقد سقط الفارس الشـجاع وسيفه في يده، سقط صريع الحق، وفي سبيل نصرة الحق، سـقط وحوله بنوه وذوو قرباه، وامتلأت ساحة «كربلاء» بجثث الأطهار المغاوير الذين ما تخاذلوا عن نصرة الحسين على قلة عددهم، ولاهم فكروا في تركه وحده، وقفوا إلى جواره وسـقطوا إلى جانبه، ولو أن شـرعة الحرب قـد طبقت بحذافيرها، ولو أن تقاليـد البطولة روعيت أو اتبعت ما تمت هذه المذبحة البغيضة، وما أقدم عشـرات الألوف من ذوي الأحقاد على مهاجمة قوم كانوا أكثر من السبعين مجاهد بقليل!!

وحملت رءووس الشـهداء وفيها رأس الحسـين إلى الطاغية عبيد الله بن زياد.. كما سـيقت إليه النسـاء سبايا أسـيرات، فأمر أن يطاف في شوارع الكوفة بالرءوس، ثم بعد ذلك العرض اللعين المسـتهجن أمر فحملت الرءوس على أعواد إلى دمشق ليراها يزيد، ويشفي غلة نفسه، ويرى بين يديه الرأس الشريف، رأس غريمه الحسين بن علي!!

ولما دخل موكب السـبايا على يزيد بن معاوية في قصره وكانت فيهن زينب بنت علي وفاطمة بنت الإمام الحسـين الشـهيد - ورآها أحد أهل الشام من بطانة يزيـد المقربين، وكانت جارية وضيئة ذات مـال، فمال إليها وأحب أن تكون له، ومال على يزيد يسأله أن يهبه تلك الجارية!!

وريعت فاطمة بنت العشـرين، وأجفلت وتراجعـت واحتمت بصدر عمتها السـيدة زينب،وراحت ترتعد وترتجف وتنظر إلى الرجل الذي أرادها نظرات الخوف.

وعاد الرجل يلح على سـيده يزيد أن يهب له تلك الجارية، وفاطمة شديدة اللصوق بصدر عمتها التي صاحت في الرجل تنهره قائلة في كبرياء الهاشمية التي لا تخاف.

- كذبت ولؤمت.. فليس ذلك له كما أنه ليس من حقه.

وثـار يزيد، وكبر في عينيه أن تهاجمه السـيدة زينـب على هذه الصورة،

ووجد نفسه يصيح فيها إنما هي التي كذبت، ولو شاء لفعلها ووهب فاطمة للرجل، وإذا بزينب تقول في إصرار وعناد وكبرياء بل هو الكاذب الشرير، وإنه لأعجز وأضعف من أن يتجاسر على ذلك، إلا أن يخرج عن ملة الإسلام ويبرأ من دين الله.

وتمادى يزيد في سخطه وغضبه وتطاول بالقول على السيدة زينب، وقال لها في شراسة وحقد:

- إياي تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك..

وأجابته الطاهرة بنت علي في ثبات وقوة واعتداد تكذبه وتقول:

- بدين الله ودين جدي وأبي وأخي اهتديت أنت وأبوك وجدك.

ذلك كان الموقف، وإن دقائقه لتنفي القول بأحزان يزيد لمقتل الحسين ومواساته السبايا من بنات رسول الله!! لقد كان يزيد في موقف الحاقد الناقم المتشفي، الذي نال وطره بمقتل الحسين، وتحققت أمانيه بمصارع بنيه وأهله في مجزرة كربلاء، حتى لقد تنفس الصعداء فسيختفي من ميدان المنافسة بنو هاشم، ولن يقضوا عليه مضجعه أو مضجع أحد من الأمويين بعد ذلك، ولقد كان يزيد في هذا واهماً ولا شك لأن القدر كان يقف له بالمرصاد، ولأن شرعة الحياة كانت توجب القصاص وبأنه كان وأعوانه قتلة الإمام الحسين سيلقون مصارعهم ذات يوم، لأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.. وما ربك بظلام للعبيد.

ولنحاول نحن في بحثنا هذا - وقد وصلنا إلى هنا أن نمر بالمأساة دون تعرض لنتائجها وردود فعلها.

ولنسر مع ركب فاطمة بنت الحسين وقد عادت إلى المدينة لتستقر فيها وتبدأ الحياة في جو بعيد عن تيارات السياسة والصراع.

لقد كرهت فاطمة بنت سيد الشهداء حياة الصخب والضجيج تلك التي عاشت في أتونها الرهيب وليكفها من الماضي ما كان، فقد اغتيل الجد، ومات العم مسموما، ثم استشهد الأب والإخوة وأبناء العم!!

أي حياة تلك التي قدرعلي الطالبيين أن يعيشوها، وأن فاطمة لتزفر زفرات لم تستطع من هول ما لقيت أن تفسر معانيها، هل كانت الضيق والتبرم، أم كان الإحساس بالإرهاق يتلوه الشعور الجامح بالرغبة في الراحة

والاستقرار والهدوء.

إنها تعود إلى المدينة إلى مستقر هدوء كانت تنشده مع عمتها السيدة زينب وأختها سكينة وأخيها علي الأصغر زين العابدين.

وبدأت ترقب الأحداث في هدوء، لا في قلق هذه المرة فهي وأهلها أبعد ما يكونون عن التيار.

كان مصرع الإمام الشهيد الحسين بن علي قد أثار كوامن النفوس، لا على يزيد بن معاوية فحسب، بل على الأمويين كلهم، وإن النار لتوشك أن تتأجج في المدينة ولكن.. ما أسرع ما تنبه الأمويون لها، فإذا هم يعمدون إلى حيلة من حيلهم وما كان أكثرها.

لقد ساقوا أشراف المدينة ورءوسها سوقا إلى دمشق لتهنئة أمير المؤمنين يزيد الخمر والفسوق بانتصاره واستتباب الأمن له، وما دروا أنهم كانوا كالباحث عن المتاعب لنفسه بنفسه، وإذا لم يكد الأتقياء من أهل مدينة رسول الله يرون الخلافة، وقصر الخليفة ويخالطون أمير المؤمنين وقدوتهم حتى عادوا ونفوسهم ثائرة على العربيد الفاسق صاحب الشراب ومجالس الأنس والتطريب والخلاعة والمجون. ولم تلبث المدينة قليلاً إلا وكانت قد اشتعلت بنيران الثورة على يزيد.

ووقفت فاطمة بعيدة عن حلبة الصراع الذي شب أواره إذا اكتفت من تجاربها بما لقيت، ثم تزوجت ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي، بقيت معه حتى مات عنها، فخطبها عبدالله بن عمر بن عثمان وأصدقها ألف ألف درهم وعاشت في كنفه سعيدة مكرمة، قريرة العين.

ومات عن فاطمة زوجها الثاني، وكانت قد زهدت في الزواج والدنيا والناس، وأرادت الانصراف إلى تربية صغارها عبدالله وإبراهيم والحسين وأم جعفر أبناء الحسن بن الحسن بن علي ثم محمد ابن زوجها الثاني عبدالله بن عمر بن عثمان.

وتقدم عبدالرحمن بن الضحاك الفهري عامل المدينة يخطبها لنفسه، فأبت أن تستجيب له،ورفضت الزواج منه، فامتلأت نفسه بالحفيظة عليها وجعل يلح ويرجو ويتوسل وهي مصرة على موقفها ترفض أن تدخل بيته، مؤكدة له أنها لم تعد ذات رغبة في الزواج وأن عليها أن تتصرف إلى بنيها، فلم يجد عامل المدينة عبدالرحمن بن الضحاك إلا أن يهددها بأنه سوف

يحد ولدها الأكبر عبدالله بن الحسن بتهمة شرب الخمر.

وجعلت فاطمة تراوغ ابن الضحاك لبعض الوقت ثم بعثت رسولا إلى يزيد بن عبدالملك بن مروان وهو يومها أمير المؤمنين تشكو إليه عسف عامله وتعنته وتوعده إياها وولدها بالشر والإيذاء.

ووصل رسول فاطمة إلى قصر الخلافة.

وسلم أمير المؤمنين شكايتها فبعث إلى عامله من يعزله ويسومه العذاب، واستدعاه إلى دمشق وأبى أن يستمع فيه إلى شفاعة الشفعاء ثم ألبسه جبة من صوف وأركبه على قتب طاف به بين الناس!!

وانصرفت فاطمة النبوية بعد ذلك عن الدنيا انصرافا كليا، لقد رأت الكثير، وعرفت الكثير وشاهدت الكثير وقاست الكثير، وتزوجت مرتين ومنّ الله عليها بالولد، فماذا تريد من الدنيا.

وأقبلت بنت سيد الشهداء على التعبد، وانصرفت إلى الاعتكاف، وعرف لها الناس مكانتها، فتلمسوها، وأحبوا مجلسها، واستمعوا إليها وهي تروي الحديث ثم روى عنها بعد ذلك كثيرون وكثيرون.

وظلت فاطمة بنت الحسين عاكفة على التعبد، مقبلة على الزهد، مدبرة عن الدنيا، فكانت مثلا رائعاً من أمثلة الصلاح والتقوى والاستمساك بأهداب الفضائل والمثاليات ونهجاً يتبع بين المسلمات الخالدات.

وبقي أن نقول بعد هذا شيئا عن مزارها القائم في مسجدها الذي يحمل اسمها الكريم في قلب القاهرة وتفسيراً لهذا أقول: إن السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين بن علي لم تقم بزيارة مصر في يوم من الأيام، ولم نجد في روايات الرواة ولا أحاديث المحدثين ولا أقوال المؤرخين ما يثبت دخولها مصر، فالمزار المقام باسمها في قلب القاهرة وفي حي الدرب الأحمر بالذات، مجرد مزار أقيم لذكراها، ولم تدفن فيه أصلا ولم يقل أحد من المؤرخين الثقات بذلك.

وشأن هذا المزار شأن الكثير من المزارات المنسوبة إلى سيدات أهل البيت من الطاليبات مثل: شقيقتها سكينة، ومثل مزار عمتها رقية بنت علي، فهي مجرد مزارات فقط لم تدفن فيها واحدة من هؤلاء السيدات المجاهدات المسلمات الخالدات بسيرهن الحميدة التي صارت مثلا يحتذى للمرأة المسلمة العاقلة الكاملة عقلا ودينا على كرّ الدهور.

أم الدرداء الصغرى *

يحار الرواة، وكتّاب السير عندما يتحدثون عنها، ولا يدري أحدهم من أين يبدأ حديثه، فالتراجم، تعارفا، وتقليدا، تحدد أول ما تحدد تاريخ ميلاد من نترجم له، وعصره، لنتعرف العصر والظروف - أيا كانت هذه الظروف المحيطة بذلك العصر، ومدى تأثيراتها في حياة المترجم له - وانعكاساتها على تفكيره وتطوراته الفكرية ثم الثقافية، لتكون الصورة كاملة من كل الوجوه.

ولكن أم الدرداء الصغرى، لا يعرف أحد في أي عام كان ميلادها، وهل شهدت عصر الراشدين من بدايته أم من منتصفه، أم حين زخر بالاضطراب، والفتن، واشتعل بنيران الصراع حتى انتهى بتعالي نجم بني أمية، والمناداة برأسهم معاوية بن أبي سفيان أميراً للمؤمنين.

وبالرغم من هذا نستطيع أن نقول إن أم الدرداء الصغرى شهدت بعض عصر الراشدين، وقد يكون عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه على وجه التحديد، وعاشت أحداثه دون أن تدري به أو تهتم، لعدم بلوغها السن التي تشعرها بما يشعر به من وصلوا إلى مراحل الشباب، ثم عاشت بعد ذلك عصر «علي» كرّم الله وجهه وأرضاه، ومن بعده رضي الله عنه شهدت دولة الأمويين.

فأم الدرداء إذن، عاشت حياة زاخرة، وسمعت، وشهدت أروع أحداث سجلها التاريخ الإسلامي واستنشقت نسائم فضل الراشدين، وعاشت

* العربي - العدد ١٠٨ - نوفمبر ١٩٦٧م.

في ظلال عدالتهم، ووقر في نفسها طابع تلك العهود الخالية، وما تميزت به من إخلاص للدين، ووفاء للملة، وحب للشـــريعة وتمســـك بالفضائل والمثاليات. فلاعجب أن تاقت نفســـها إلى العلم، ومالت إلى الاســـتماع، وأحبت الحديث.

والآن، وبعد ما قدمنا، لنترك قليلاً، العصر الذي ولدت أو عاشت فيه أم الدرداء الصغرى، ولنتعرف دراسة أثره وتأثيره في حياة المترجم لها، لنقدمها هي، ونعرف من كانت، وماذا كان اسمها الأصلي.

هـــي هجيمة بنت حيي الأوصابية الدمشـــقية، «وأوصـــاب» هذه التي تنتســـب إليها، قبيلة من أعز قبائل حمير، وأعلاها شـــأنا، فيها ولدت، وبين ربوعها نشأت، متأثرة ببداوتها معتزة بعروبتها، مفاخرة بأنها كانت منهـــا فقيل عنها الأوصابيـــة، وزادوا عليها «الدمشـــقية» لتحديد موقع القبيلة، ومكان اســـتقرارها في دمشق بالذات، فأصبحت هجيمة بذلك أوصابية دمشقية.

وعند نسبة هجيمة إلى دمشق الفيحاء نقف قليلاً مرة أخرى، لأنه في الإشـــارة إلى دمشق ما يعني أن هجيمة دمشقية المولد والنشأة، وإنما لم نخطئ ونحن نقدم للحديث عنها، فقلنا إنها ولدت هناك بعد أن اســـتقر الإسلام في ذلك الجزء من أجزاء الوطن العربي الكبير، وترابطت أنحاؤه برباط اللغـــة والدين وتوحدت أهدافه، ومصائر شـــعبه الواحد العظيم - وأنها بعد هذا، قد شـــهدت ولاية معاوية بن أبي ســـفيان على الشام، وشهدت أيضاً ولاشك، تعاظم أمره هناك، تعاظماً جعله من القوة والمنعة، والجاه العريض في ولايته، بحيث استطاع بعد مقتل عثمان بن عفان في الفتنـــة الكبرى، أن يقف في صف المعســـكر المعارض لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويخلع بيعته، بل ويخرج عليه.

فأم الدرداء الصغرى، إذن، هي هجيمة بنت حيي الأوصابية الدمشقية، والتمييـــز لها بصفة الصغـــرى، لابد أن يعني أن تكون قد ســـبقتها إلى الوجـــود أم درداء كبرى، بينهما صلة رحم. جعلت هجيمة هذه تكنى بعد ذلك بالصغرى.

والواقـــع أن هناك أم درداء كبرى، لا قرابة ولا صلة غير صلة العروبة والإســـلام، تربطهـــا بصاحبتنا هذه، وأن هذه الكبـــرى، التي يقول عنها

كتاب السير وأظهرهم ابن مشهر الدمشقي إنه كانت لها صحبة ورواية يسيرة، هي أم بلال، ولا ندري بعد هذا من يكون بلال، وهل هو بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو غيره، المهم أن أم بلال هذه، كانت هي «أم الدرداء الكبرى» وكانت من راويات الحديث في حدود يسيرة، ونطاق ضيق، وأنه كانت لها صحبة، وهذا كل ما ذكره عنها الرواة ولكن..

ولكن هل نكتفي في بحثنا بهذه الإلمامة غير المشبعة التي وردت عن أم الدرداء الكبرى، ثم نقف موقف الحيرة أمام أمومتها، لبلال هذا، ولا نبحث فيمن يكون!!

يقول الرواة، إن أم الدرداء الكبرى كانت لها صحبة، وهذا يقطع أنها عاشت عصر النبوة، وأنها لابد أن تكون زوج أبي الدرداء نفسه، وقد يكون بلال هذا، ابنا من أبنائها الأثيرين لديها.

وأم الدرداء الكبرى، كانت مسلمة، مخلصة، عاشت عصر الرسول، وروت الحديث، وكانت زاهدة عابدة، لم تقم لعروض الدنيا ميزانا، ولقد روي أنه لما آخى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين زوجها أبي الدرداء وبين سلمان الفارسي، أن هذا الأخير زار أبا الدرداء في داره فرأى زوجته أم الدرداء وعليها ثياب خلقة فعجب لأمرها، وأقبل عليها يسألها سر ذلك فإذا هي تقول إن أخاه أبا الدرداء ليست له حاجة في الدنيا.

وكان أبو الدرداء في ذلك الوقت خارج داره، فلما عاد، ولقي سلمان الفارسي في ضيافته، أقبل يحييه وقرب له طعاماً، ودعاه إلى أكله وحده، قائلاً إنه صائم، وإذا بسلمان الفارسي يرفض أن يقرب الطعام إلا إذا أكل معه أبو الدرداء فأكل.

ولما كان الليل، قام أبو الدرداء للصلاة فإذا بصاحبه سلمان يقول له: نم.. فأطاع، ونام، ثم ما لبث أن عاد، وقام ثانية للصلاة، فعاد سلمان وقال له مرة ثانية: نم فنام، فلما كان الصباح، إذا بسلمان يقول لأبي الدرداء، قم الآن، فقاما وصليا معاً.

وجلس سلمان الفارسي إلى أخيه أبي الدرداء بعد ذلك يتحدثان، وتكلم سلمان، وأصغى أبو الدرداء إليه وسلمان يقول:

– إن لنفسك عليك حقاً، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، ولأهلك عليك حقاً فأعط لكل ذي حق حقه.

وكان هذا – ولاشك – تنبيها من سلمان الفارسي إلى أخيه أبي الدرداء، بضرورة مراعاة زوجته أم الدرداء، وإعطائها حقها الواجب أن يكون لها، في كل شيء ترغبه المرأة، وخاصة الملبس المناسب.

ولعل أبا الدرداء لم يقتنع بقول سلمان الفارسي في ضرورة إحقاق هذه الحقوق جمعاء كاملة غير منقوصة وفي حدود طاقة الإنسان، ولعلهما تجادلا في ذلك وتحادثا، ولم يجدا من يحسم القول، غير سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهبا إليه وذكرا له ما كان وإذا بمحمد الذي لا ينطق عن الهوى، يقف إلى جانب سلمان، ويقول لأبي الدرداء: صدق سلمان!

وعرف أبو الدرداء أنه لم ينصف أم الدرداء الكبرى، وأنه كان متجنياً في تصرفه معها إذ فرض عليها ثياباً خلقة، ظناً منه، أن هذا مظهر من مظاهر العزوف عن الدنيا، في حين أن للإنسان حقوقاً يجب أن تراعى وحقوقاً يجب أن تباشر، وأن المقسط العادل، يجب عليه، ألا يحترم حقاً، ويتهاون في حق، مهما بدا له أن هذا الحق، هين بسيط.

وهكذا، انتصف سلمان لأم الدرداء الكبرى، ونبّه صاحبه إلى ضرورة إعطائها حقها، تماماً كما يعطي لكل ذي حق حقه...!!

وما دمنا قد أتينا بهذه العجالة اليسيرة على ذكر تلك «الكبرى» وأوضحنا في حدود ما بين أيدينا من روايات ومعلومات، من هي، ومن كانت – نعود من جديد إلى صاحبة حديثنا هذا، وهي «أم الدرداء الصغرى» لنسائل رواة سيرتها بعد هذا عن أصل «كنيتها» ومدى صلتها بالصحابي الجليل أبي الدرداء!!

وأمام هذا السؤال، يقف الرواة أمامنا موقف الصامت، ولا يقول أحد منهم عن هجيمة بنت حيي الأوصابية الدمشقية أكثر من أنها كانت طفلة يتيمة نشأت في حجر أبي الدرداء، فإذا ما طالبنا بمزيد من المعرفة يحدد لنا سر نشأتها في حجر الشيخ، لا نجد الجواب الشافي أبداً، فنهرع إلى كلمة «أم» التي وصلت بينها وبين اسم الرجل، فلا نجدها تشير إلا إلى شيء واحد، وهو أن أبا الدرداء ربما تبناها، وألحقها به، أو

أنها كانت من ذوي قرباه، ومن هنا نشأت في رعايته ونسبت إليه وكنيت باسمه وأنه أشرف على تربيتها، وكان له عليها حق الولاية والرعاية والتأديب.

وطفلة يتيمة مثل هجيمة الأوصابية هذه، نشأت في حجر أبي الدرداء، ماذا ينتظر منها أن تكون؟ وعلى أي صفات نشأت، وأي طريق تتبع، وبمن تقتدي، وبمن تستنير في حياتها.

كان أبو الدرداء صحابياً جليلاً، متعبداً، مجاهداً، شهد بزوغ شمس الإسلام وكان من السابقين إليه، المستظلين بنوره، المهتدين بهداه، وأنه كافح وجاهد. ويصحب الرواد الأوائل الفاتحين الذين خرجوا مجاهدين مبشرين بدين الله الحق، وحملوا إلى الأمم جمعا مشاعل الهدى، وأنوار التحضر الإسلامي، وأضواء المبادئ السامية والمثاليات العظمى التي خرجت بالناس من الظلمات إلى النور وهدتهم صراطاً مستقيماً.

ولقد كانت حياة الرجل سلسلة كفاح متصل ثم إذا بنشاطها الجهادي يقف عند عهد الصراع بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وإذا بالشيخ يقف بعيداً ثم... يستقر في دمشق ويشهد مولد الدولة الأموية، وحكم معاوية، والمناداة به أميراً للمؤمنين - فيأخذ سمته الجديدة في محيط الحياة الجديدة، ويعكف على التعبد، ويأخذ في رواية ما وصل إلى علمه من الحديث، ولا يكون عجيباً بعد هذا، أن تنشأ هجيمة ربيبته على ما شاهدت الشيخ عليه، من صلاح وتقوى، وتعبد وإقبال على طلب العلم، وعمل دائب على إفادة الناس به.

ومن هنا.. ومع مولد الدولة الأموية واستقرار الأمر لمعاوية، وانتقال حاضرة الخلافة إلى عاصمتها الجديدة في دمشق - نستطيع أن نحدد بداية حياة أم الدرداء الصغرى التي تعنينا في حديثنا هذا، وأن نلم بها، ونتعرف على مدى تأثرها بأبي الدرداء، ثم بالبيئة التي عاشت فيها، وفي ذلك الوقت بالذات، وهي بيئة كانت إلى حد ما غريبة في مظاهرها، وسماتها على كثير من المسلمين.

لقد كان ميلاد الدولة الأموية، مولداً، لعهد جديد في قيمه، ومبادئه، وأهدافه، وكان مطلع عهدها الأول، إشراقة مستضيئة، لمفاهيم جديدة في أساليب الحكم، فلا عجب أن زخر العصر نفسه بالحركة، وشغل

بالجهاد والعمل، وكان يقظة واعية من الحاكم لرعاية المحكومين، ورأياً متواصلاً منه لتجميع الشمل الإسلامي بكل وسائل التجميع بعيداً عن الاختلاف في الآراء، والتي كان من فضل الله على الأمة أنها لم تمس الدين في شيء، بل دارت حول الشعارات الزمنية من جاه وحكم وسلطان، حتى شاء الله أن تستقر الأمور في نصابها أخيراً بفضل حكمة معاوية ودهائه، وبُعد نظره، وكرمه الدافق، وعطاياه التي تحدث بذكرها الركبان، وكانت وسيلته بعد ذلك إلى النظر في أمور التوسع والفتح، وحمل لواء الملة العظمى إلى كثير من البلدان، التي فتحها، ودخل أهلوها في دين الله، وشهدوا بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

عصر عظيم، وعظمته كانت في غرابته، وتناقضاته، فبينما كانت الجيوش الإسلامية تنطلق نحو الشمال الإفريقي، قوية كإعصار مدمر كاسح، متماسكة كحصن منيع لا ينال، تطهر الأرض من أرجاس العبودية، وتحرر الشعوب من ذل الأسر، وتطرد أمامها فلول الوندال وشراذم الرومان، وفي أثرهم أذنابهم من اليهود.

وبينما كانت العمائر البحرية العظمى، تشيد وتقام في دور الصناعة الإسلامية، ثم تنطلق بالغزاة العرب الفاتحين، مرة نحو القسطنطينية لحصارها وفتحها، ومرة أخرى لتحقق سلسلة من الانتصارات البحرية الكبرى على عمائر الروم وأساطيلهم ذات السيادة.

في هذه الأوقات الدقيقة، ووسط محيط العمل الصاخب والدأب المستمر، في سبيل تثبيت دعائم الفتوح والتقدم والانتصارات العربية الإسلامية في شتى أنحاء العالم، كانت حاضرة الخلافة تنعم بلون جديد من ألوان الحياة، لم يكن للمسلمين الأوائل به من عهد قبل أيام معاوية بن أبي سفيان.

كانت هناك معارك بعد معارك.. هنا وهناك، وفي كل صقع ومكان، ولكل لونها الذي تفردت به، وإذا كانت المعارك في ميادين القتال، قد اتسمت بالضراوة والفدائية والاستبسال، فإنها في حاضر الخلافة، كانت معارك مرحة مستحبة، لأنها كانت معارك مساجلات وتبادل آراء ورد وأخذ على بحور القريض.

كانت هناك معارك أدبية، أذكت خيال الشعراء وخلقت منهم طائفة

طاولت شـعراء المعلقات، وكادت تبلغ مبالغهم في شـتى أفانين الشعر، ومهـدت لظهـور النوابغ أمثال جرير والفـرزدق والأخطل وعمر بن أبي ربيعـة الذي تزعـم طائفة الغزليين فكان منهم جميـل بثينة وكثير عزه، وقيس لبنى، ثم قيس ليلى العامرية.

وأهل الخيال هؤلاء من شـعراء وقصاصين، كانت لهم مجالاتهم، وكان لهـم أنصارهـم وكانت لهم أحزاب ومشـجعون، وكانت أقوالهم تنتشـر كالبرق، إذ لا تكاد تنشد أو تروى حتى يتناقلها الناس، هذا يرويها وذاك يتحزب لها، وذاك يتغنى بها.

ونشـأ في الدولـة الجديدة لون جديـد من ألوان الشـعر لم يطرقه السـابقون أبداً، ذلكم كان الشعر السياسي الذي تعاظم إلى جانبه شأن الشـعر القصصي الذي طرق أبواباً مسـتحدثه وحوم في أودية جديدة، حتى لنحس أنه كان البداية الموفقة للشـعر التمثيلي والمآسـي الشعرية التي خلدت على الزمان.

لقد عاش العرب كافة مع مولد الدولة الأموية، ثم رسـوخ أقدامها بعد ذلـك، حياة جديدة في كل شـيء، جديدة في المظهـر والهدف، والغاية، حياة بهرتهم وسـلبت منهم العقـول وحازت الإعجاب، فسـايروها في إخلاص، وأحبوا شـتى مظاهرها، وأحسـوا أنهم يعيشون نهضة شاملة متطورة، انتظمتهم جميعاً، وشغلتهم بنفسها عمّن سواها وصرفتهم إليها بـكل اتجاهات تفكيرهم، فلم يتابعوا أعمال أولي الأمر فيهم، ولم يلتفتوا إلـى ما بدأ يحدثه الأمويون من تطورات في أسـاليب الحكم ووسـائل السلطة.

تلك كانت سياسة بني أمية، وذلك كان تعهدهم، وهو عهد، كان جديداً على الناس في كل شيء، فلا عجب أن انصرف إليه المظهريون وحدهم، أما أصحاب الأصالة، فظلوا حيث هم يرقبون ولكن... في صمت.

كانت هناك دولة تبنى، وامبراطورية تتسـع رقعتها في سرعة خاطفة، وكان مـن اللازم أن يسـاير الشـعب ولاته، ويقف إلـى جانبهم إلى حد بعيد.

وظل أمر النهضة التقدمية يتعاظم، ومع كل يوم كان يتحقق للعرب فتح ونصر جديدان.

وهكذا خالط الفاتحون في تقدمهم السريع أمما وشعوبا لها حضارتها، ولها تقاليدها وكما استطاع العرب الأمجاد أن يؤثروا بدينهم وأخلاقهم وعاداتهم في تلك الشعوب، كذلك عرفت هذه الشعوب كيف تؤثر في العرب، فأخذوا عنها أحسن ما تميزت به، وقلدوها في النافع المفيد وعملوا به، وراحوا يمارسونه، وكأنه من صميم عاداتهم المتوارثة.

وتدفق المال، وتعاظم الثراء، وكثر التنقل وتعددت الأسفار، وأخذ المسلمون يمارسون أساليب حكمهم العادل المدعم في الأمصار المفتوحة بنجاح بعد أن تمرّسوا بالفتح، وتذوّقوا حلاوة الانتصارات، فلم يكن عجيباً بعد هذا أن تسير الأمور كلها إلى شيء جديد.

ولكن...

ولكن، هل استطاعت هذه المظهريات التي أثرت في جماهير العامة، أن تصل إلى حيث كان لم يزل للروحانيات جلال، وللمعنويات مرتبة عالية، وللإيمان وشدة التمسك بالمثل الدينية العظمى مقام، أي مقام...؟

الجواب.. لا

ودليل صحة «لا» هذه هو أن الماديات على ما لها من أثر وتأثير سريع في بعض من تأخذ بألبابهم المظاهر، كانت أضعف من المعنويات الراسخة في قرارات النفوس وأعماق القلوب، وكان سلطانها الوقتي، أوهى من أن يصل إلى اختراق الحجب التي حصنها الدين بسياجه ثم حماها بالتوفر على تقوية الروح وإبعادها عن محيط المظهريات الزائلة، التي لا بقاء لها ولا دوام.

إذن... فلنتابع الطريق المدعم، المعبد بالروحانية، المعطر بعبير التقوى والصلاح، ولنتابع فيه خطوات شيخنا الصحابي الجليل، أبي الدرداء لنبدأ مع مسيرة ترجمة حياة صاحبة حديثنا هذا، «أم الدرداء الصغرى» التي خلصنا إلى أنها تربت في حجر الشيخ الطيب، ونشأت في رعايته، وقامت في بيته، ومع أهله، وهم من تعرف أهل التقى والقناعة. فنهلت من النبع الروحي الطاهر الفياض نفسه، وتطبعت بطباعه منذ نشأتها الأولى، وسارت على منواله، ونهجه، تقية، نقية، برة صالحة، متعبدة، تحرص على الصلاة بوصفها عماد الدين، وقوامه، وخاصة صلاة الجماعة في المسجد، وهي في عباءة أبي الدرداء.

وحين يقرر كتاب سيرة أم الدرداء الصغرى أنها كانت تذهب إلى المسجد لتؤدي صلاة الجماعة وهي في عباءة أم الدرداء، فإن هذا يؤكد لنا أنها كانت طفلة، أو أنها كانت تخطو نحو مراحل الشباب، ثم هي تصلي في صفوف الرجال ثم تجلس بعدها إلى حلقات الدرس.

ولما شبت الفتاة هجيمة الأوصابية، وتخطت المرحلة التي كانت تغشى خلالها صفوف الرجال للصلاة الجامعة، أمرها أبو الدرداء أن تلحق بصفوف النساء في المسجد.

ولحقت أم الدرداء الصغرى بصفوف النساء كما أمرها مربيها الطيب، واعتكفت حيث أراد لها أن تعتكف، وخلال فترة الاعتكاف هذه واظبت على المدارسة والاستماع، وأقبلت في شغف على دراسة الحديث بصفة خاصة، لأن مربيها أبا الدرداء كان من رواة الحديث بحكم الصحبة الشريفة لسيدنا رسول الله، وبقية صحابته الكرام.

وقد روت أم الدرداء الصغرى، أول ما روت من الحديث عن أبي الدرداء ثم عن أخيه في الله سلمان الفارسي، وعن أبي هريرة، وكعب بن عاصم الأشعري، كذلك روت عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها.

ورواية أم الدرداء الصغرى عن هؤلاء الصحابة، تعطي ما روت أهمية خاصة وفي الوقت ذاته، تشعرها أنها إنما كانت في مجلس صدق وأمانة، فحرصت على أن تكون حيث أرادت لنفسها، صادقة، محققة، مدققة، لا تقول إلا ما كانت تثق فيه، وتؤمن بصحته.

وظلت صاحبتنا على حالها من الدرس، والبحث والتحقيق تنهل من موارد العلم، وترشف من مناهل المعرفة، حتى تقدمت الرجال، ووصلت إلى مرتبة العلماء العاملين، بواسع اطلاعها، وموفور ذكائها، وحبها لتحري الحقيقة، ودقتها في إيراد الحديث عن خبرة ودراية وذكاء.

وظلت هجيمة الأوصابية في رعاية أبي الدرداء حتى لحق الشيخ الطيب بربه، وفارق هذه الحياة الدنيا، وقد تعاظم شأن أمير المؤمنين معاوية، وساد العالم العربي كله، ووحّد صفوف المسلمين، وقضى على الفتن والمؤامرات، وجمع الشمل، حتى عاد السلام والصفاء يرفرفان على الجميع.

ولعل أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان أحب أن يكرّم ذكرى أبي الدرداء في شخص هجيمة، وأن يرد الشيخ الطيب جميل وقوفه في صفه، ومؤازرته له، فتقدم لخطبة أم الدرداء الصغرى، وقد كان هذا أقصى ما تطمع فيه شابة وضيئة ذات ملاحة وأصل عريق ونشأة فاضلة مثلها ولكن...

ولكن هجيمة رفضت اليد التي امتدت إليها، وأبت أن تتزوج معاوية، وقالت في تبرير رفضها لأمير المؤمنين وأعظم الرجال في زمنه وأعلاهم شأنا: إنها تحب ألا تلحق في الدنيا بأي رجل كان، لأن آمالها كلها تتركز في أن تظل هكذا لتكون في الآخرة زوجة لأبي الدرداء نفسه!!

وانصرف معاوية عن أم الدرداء الصغرى إلى شئون دولته المترامية، التي كانت تتسع رقعتها ويعظم شأنها يوماً بعد يوم، وانصرفت هجيمة الأوصابية إلى طريق اختطته لنفسها وأحبت أن تظل فيه إلى آخر رمق لها في الحياة.

وكانت قد عرفت، وتعلمت، وهاهي ذي تنتقل من طور إلى طور، ثم هاهي ذي تأخذ مكان العالمة، المعلمة، وكما روت الحديث الدقيق عن أجل الصحابة راح يروي عنها علماء أجلاء مثل جبير بن نفير وابن أخيها مهدي بن عبدالرحمن، وابن أبي المهاجر، وأبو حازم بن دينار وعثمان ابن عطاء الدمشقي.

وعظم أمر الراوية الصادقة، وأصبحت حجة، حتى لقد روى لها مسلم وأبو داود، والترمذي وابن ماجة.

وتحدث عنها كثيرون، وشغلت أذهان كثيرين من أهل الرواية والفضل، فتناولوها بالحديث والرواية، وحققوا ما روته، وما روي عنها حتى لقد قرر ابن سميع أنها في الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام، وهذا - ولاشك - يلقي الكثير من الضوء على ما كانت تستمتع به من مكانة علمية وفقهية ملحوظة، حتى عدت من تابعي الطبقة الثانية، وهذا إقرار بالفضل عظيم.

وعاشت أم الدرداء الصغرى حياتها في المحيط الأموي، فشهدت عصر معاوية الذهبي، ثم.. شهدت عهد ابنه يزيد، وما أدرانا ما يزيد بن معاوية، يزيد الذي قيل فيه وقيل، يزيد الذي عرف باسم يزيد الخمر،

ويزيد الضلال، ويزيد الفجور، ويزيد الذي تناول الناس اسمه باللعنات، وباعدته أم الدرداء ما أمكنها إلى ذلك من سبيل.

لقد كان تدنى يزيد، وإغراقه في الخطيئة، وخروجه على الكثير من أوامر الدين السمح، واجتراؤه علانية على شرب الخمر، مما غيّر عليه النفوس، فما هكذا كانت تهون القيم وبهذه السرعة المذهلة، وإن أم الدرداء العالمة الفقيهة، الفاضلة، لتأخذ من خروج يزيد على العرف الإسلامي، وتعديه حدود الله درساً بليغاً مؤثراً.. درساً جعلها تباعد الدنيا، فالدنيا أصبحت في ناظريها فتنة، ومورد هلاك، لمن يسعى إليها، أو من تسعى هي إليه فلا يصدها ولا يحمي نفسه من أغراضها، وذلك بتمسكه بأهداب الفضيلة، وتساميه إلى مراتب المثالية العريقة، والتحصن الديني.

واستطاع يزيد باجترائه وإغراقه في اللهو والفساد، أن يمزق الأوصال ويشتت الجموع، فتغيرت النفوس، وتباعد أهل الفضل، وعكف أهل التقى والصلاح على أمور دينهم ثم...

ثم قضى يزيد، وجاء من بعده مروان بن الحكم طريد رسول الله، فورث الملك الأموي وجعل الخلافة، أموية مروانية، وبدأت النفوس تشتعل من الداخل، ولكن أهل الفضل تمسكوا بالصبر وبقوا على طريق الهدى، حفظاً للوحدة، وتجنباً للتفكك والانهيار.

لقد كان للتطور الذي أصاب الخلافة والخلفاء، أثره البالغ في نفس العالمة الفقيهة، فتعلمت حيث كان يجب أن تتعلم، وعرفت الكثير، وأكثر من الكثير الذي عرفته.

لم تكن أم الدرداء الصغرى، قبل حدوث هذا، وقبل أن تسمع عن تدني ولاة الأمر وإغراقهم أنفسهم في المعاصي، والملذات، لم تكن تعرف عن أمور الدنيا، غير أنها معبر يوصل إلى الآخرة بالعمل الصالح ومرضاة الله، فلما تهاوت النفوس واستطاعت العروض أن تؤثر في الجوهر الصافي، تكشفت لها حقائق ما خطرت لها ببال.

عرفت أم الدرداء الصغرى ما تعنيه كلمة الحياة الدنيا، عرفت أن الدنيا، الحقيرة، التافهة، الدنيئة، إذا أقبلت يجب أن نحصن نفوسنا بالخير والرضا والصلاح ضد إقبالها حتى لا تؤثر فينا،

فلا تحول صاحب هدف عن هدفه، ولا طالب كمال عن بغيته.

عرفت أن الدنيا، لمن يطلب الدنيا، وأن الآخرة لمن يطلب الآخرة، وهيهات أن يجتمع الطالبان على طريق واحد، فهذا بينه وبين ذاك آماد، هذا يطلب الزوال، وذاك يتطلع إلى الخلود، وهيهات بين المطلبين.

ومن هنا بدأت العالمة الفقيهة تختط لنفسها طريقاً في الزهد الإيجابي، راحت تبشر به وتدعو إليه، منادية بتحصين النفس وترويضها على الطاعة، لتدرأ عنها أقوال المعاصي والشرور وقسوة إقبال الدنيا.

ومن هنا أيضاً، نستطيع أن نقول إن أم الدرداء الصغرى، استطاعت بزهدها، وعفتها وآرائها في التعبد والزهد، أن تختط طريقاً في الوصول إلى الكمال، هو المدخل إلى التصوّف والتسامي، فكانت بهذا أول من مهّد الطريق للعابدات القانتات اللاتي سبقتهن هي إلى طريق المعرفة، واللاتي سبقتهن بسنين عدة، حتى ظهرن في العصر العباسي، وكانت أشهرهن رابعة العدوية، ورائعة الشامية، وميمونة، وحيونة، وغيرهن من العابدات الزاهدات المتصوفات اللاتي طلقن الدنيا، وجانبن حلو مباهجها، ورائع محاسنها، وأقبلت كل منهن بخالص قلبها على العبادة بأسلوبها الخاص الذي شقته بدموع الندم، وآهات التوبة وزفرات الاستغفار، لتنال مرضاة الله، ورافع المثوبة وحسن الجزاء.

ومضت أم الدرداء الصغرى تشق طريقها الذي أرادته، وارتضته مسلكاً ومجازاً يصل بها إلى حيث أرادت أن تكون، قريبة من قلبها، قريبة من الله.

ومضت الدولة الأموية في طريقها، وبدأ حبل الأمور يختل بعض الشيء، وكما خرج الإمام الحسين من قبل غاضبا لدين الله جل وعلا، كذلك خرج من بعده عبدالله بن الزبير، وخلع بيعة الأمويين، ونادى بنفسه أميراً للمؤمنين، وأقام دعائم دولة إسلامية موحدة، أخذت مكانها إلى جانب الدولة الأموية.

مثل هذه الأفعال وأشباهها، أعطت أم الدرداء الصغرى صورة صادقة للحياة التي طغت مادياتها على الجوهر، فكادت تطمس بريقه وتأتي على التماعه، ويالها كانت من حياة كرهتها العابدة العالمة الفقيهة، حياة لم يسعدها فيها شيء قدر إحساسها بالسعادة لأن المسلمين لم يختلفوا

فـــي الله أبداً، ولكـــن اختلافهم إنما كان في الدرهـــم والدينار وعروض الدنيا الزائلة، وشارات الحكم والسلطان.

من أجل هذا، أمعنت صاحبة حديثا في الابتعاد عن مظهريات الحياة الدنيا وأخذت سمتها في المجال الذي أرادته، فلم تتعبد لغرض التعبد بل لهداية الناس، ومحاولة نصحهم وإبعادهم عن الطريق الشـــائك ليعرفوا طريقهم إلى الله، وإلى الحياة الأخرى.

فأم الدرداء الصغرى، لـــم تكن زاهدة من ذلك النوع القابع، المنصرف عن مدار الفلك الدنيوي، بل كانت زاهدة إيجابية، عملية، حركية، خرجت على شـــرعة العزلة التي طالما تمسك بها الزاهدون، والنساك، ورأت أن مخالطـــة الناس، هي التوجيه الحق، وهي الإرشـــاد إلى الحســـنى وإلى طريق الخيـــر، فخالطت مريديها وعارفي فضلها ممـــن كانوا يتجمعون إليها في المســـجد، ويلتفـــون حولها ويصغون إلـــى أحاديثها، وهي تروي الحديث، أو توجه النصح، أو تعمل على الإرشـــاد، وتوجه الناس إلى خير الســـبل الواجب أن يتبعوها في أمور دينهم ودنياهم، فصلاح أمور الدنيا في نظـــر أم الدرداء الصغـــرى، كان يوجب ضرورة صـــلاح أمور الدين واتباعه في كل ما يأمر به.

وكمـــا تولـــى عهد معاويـــة بن أبي ســـفيان، ومن بعده عهـــد يزيد بن معاوية بن أبي ســـفيان، ومن بعده مروان بن الحكم، وخلفه من بعده ابنه عبدالملك.

وكان عبدالملك، حاكماً طموحاً، واســـع الأفق، واســـع الحيلة، شـــديد الذكاء، قوي الشـــكيمة، يكره الفرقة، ويبغض التخريب، فكره أول ما كره أن تقـــوم في الوطن العربـــي الكبير دولتان وخلافتان تنـــاوئ كل منهما الأخـــرى، وتحاول إضعافها والنيل منها، ومن هنا، وجه همه إلى القضاء على خلافة عبدالله بن الزبير.

لقـــد كان عبدالملـــك يعتبر ابن الزبيـــر خارجاً على الطاعـــة، مخالفاً للبيعـــة الإجمالية، فوجه إليه همه ليقضي عليه، ويعيد من جديد توحيد الدولـــة، ليتجه بجيوشـــه وقواتـــه، وقادته إلى الفتـــح الخارجي وتثبيت أقدام المســـلمين في بلاد كثيرة، كان أهلها يتوقون إلى الحرية ويتعشقون الخلاص، وتميل نفوســـهم إلى دخول الإســـلام الذي ســـوى بين الناس،

وحرم الرق، والتسلط والاستغلال، ونادى بالتحرر، والمساواة الكاملة في كل شيء.

ووجه عبدالملك قائده الحجاج بن يوسف الثقفي لحرب ابن الزبير والقضاء على خلافته.

وبدأت أم الدرداء الصغرى تشهد لوناً بغيضاً من ألوان النضال بين أشقاء في الله وإخوة في الإسلام، فرقت بينهم، المطامع، وغلبت الدنيا تفكيرهم، فكان الخروج على شرعة الاتحاد والتضافر، وكانت العزلة، والتفرد، وحب الاستئثار بالسلطة، الذي جعل من الدولة الموحدة دولتين متنازعتين، تتربص كل منهما بالأخرى.

وزادت الأحداث من وعي أم الدرداء وجعلتها ترى الدنيا بوجه جديد أضافته إلى عديد من الوجوه التي عرفتها من قبل، فإذا بها تزداد تباعداً عن حلبات النضال السياسي، وتتجه إلى شحذ قوى الخير، وفاعلية الروح، هادفة بذلك إلى تنقية نفوس البشر، وصرفهم عن التكالب على الحياة الدنيا إلا بمقدار.

وقد عرف خلفاء بني أمية لأم الدرداء الصغرى سابغ فضلها، وعظيم تأثيرها على نفوس المريدين جميعاً، فوقروها وبالغوا في احترامها وتعظيمها، وكان أظهرهم في ذلك عبدالملك بن مروان الذي كان من عادته أن يواظب على حضور حلقاتها الدينية وكان يجلس في مؤخرة المسجد إمعاناً منه في التواضع.

وبلغ من تعظيم أمير المؤمنين عبدالملك لصاحبة حديثنا هذا، أنه وصلها، وأعانها على العيش الرغد، وهيأ لها مطالبها وأغدق عليها سعة إلى الحد الذي جعلها قادرة على التنقل في يسر، فكانت تقيم لنصف عام في دمشق الحاضرة الكبرى، وتقيم النصف الآخر في بيت المقدس حيث كان الخليفة يلقاها هناك أحياناً ويجالسها في المسجد، ويستمع إليها في إصغاء شديد، حتى إذا نودي للصلاة، قامت وقام عبدالملك، فتتوكأ هي عليه، ويسيران معاً مسيرة متواضعة، حتى يصلا إلى المسجد. فيفترقا، أمير المؤمنين إلى حيث اعتاد أن يؤم الناس، وهي في المكان المخصص للنساء.

لقد كانت الأوصابية، عابدة عرفت كيف تصل.. وكيف تعرف طريق

الوصـــول، وكانت من الكرم بحيث لم تغلق على غيرها باب المعرفة الذي وصلت إليه، بل حرصت على أن تدعو الناس إلى دخوله، لتستثير قلوبهم بحب الله.

وكانـــت محدّثة بارعة، لها في الطريق آراء وفي الوصول طرق، وكانت تعـــرف كيف تأســـر ألباب من يجتمعـــون عندها، فتســـحرهم بحديثها الصـــادق، حتى ليســـتقر في أعماق النفوس التي عرفـــت كيف تطهّرها بالتعبّد والقناعة، وترك الدنيا ظهريا.

وكانت أم الدرداء الصغـــرى إذا تحدثت أفاضت، وإذا أفاضت تملكت السامعين. ونسيت في غمرة إخلاصها - لما كانت تعظ به - مرور الزمن، حتى لتمر الســـاعات، فلا تحس هي بها، ولا يشـــعر من جلس إليها من النـــاس، وإن أحدهم، وهو فـــي مجلس ذكر الله معها ذات مرة يقول وقد مرت بها وبمن حولها السادات: لعلنا قد بعثنا إليك الملل.

ونظـــرت أم الدرداء إلـــى محدثها وقالت: تزعمون أنكـــم أملتموني.. لا والله.. لقد طلبت العبادة في كل شـــيء، فما وجدت أشـــفى لصدري، ولا أحرى أن أصيب به الذي أريد من مجالس ذكر الله، وإني لأقول لكم إن أفضـــل العلم، هو المعرفة، فتعلمـــوا الحكمة صغاراً، تعملوا بها كباراً، وإن كل زارع يحصـــد آخـــر ما زرع، فإن كان خيراً فخير، وإن كان شـــراً فشر.

هكـــذا كانت تدعـــو أم الدرداء إلـــى الخير، وبهذا نـــادت، وذلكم كان منهاجها الســـديد القويم، دعوة صادقة مؤمنة، لم تكن صاحبتها تتمنى أكثـــر من أن تجد مواقعها في النفـــوس، لأن صاحبة حديثنا كانت تؤمن بالخير، وتعتبره المعبر المستقيم إلى كل فلاح، وكل سعادة، تنتظم المجتمع، فالخير هو الخير، وهو الدرع الواقي من كل الشرور.

وكانـــت أم الدرداء الصغرى تعتبر ذكر الله الوســـيلة لـــكل خير وإنها فـــي هذا لتقول لمريديها: ولذكـــر الله أكبر، فإن صليت فهو من ذكر الله، وأفضل ذلك تسبيح الله.

وأم الدرداء، كانت صوامـــة، قوامة، وكانت بعض الصالحات القانتات من نساء عصرها يجتمعن بها وتطيب لهن جلستها التعبدية، وقد اعتادت أن تؤمهـــن للصلاة، وكانت فـــي صلاتها على العهد بهـــا، كثيرة القيام،

كثيرة الصـــلاة، حتى أن صاحباتها كن يعتورهن الضعف فلا يســـتطعن مجاراتها في الصلاة، إلا مســـتعينات بما يســـاعدهن علـــى كثرة القيام والركوع والسجود.

وكانت أم الدرداد الصغرى، تعظ، وتوجه، وكانت تزجر لتقوم النفوس، وتطهرها، وقد يتساوى عندها أمير المؤمنين بغيره من رعيته، وهي توجهه وتنصحه حتى أنه حدث ذات ليلة، وهي في ضيافة عبدالملك بن مروان، أن سمعته ليلاً وهو ينادي أحد خدمه، فأبطأ عليه ذلك الخادم فلعنه.

وأســـفر الصباح عن نوره، ولقيت أم الدرداء أمير المؤمنين، فاستوقفته وقالت له إنها سمعته في ليلته تلك يلعن خادمه، ولم ينكر عبدالملك ذلك وقال في تبرير فعلته إن الخادم قد أبطأ عليه ولم يســـتجب لدعوته على وجه السرعة، وعندها نهت العابدة الزاهدة المعلمة أمير المؤمنين عن لعن غيره وقالت له:

«سمعت أبا الدرداء يقول... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللعانون لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة..».

ووقرت النصيحة في نفس عبدالملك، وعمل بالحديث الشـــريف طوال حكمـــه، فلم يجســـر بعدها علـــى لعن أحد من خدمـــه أو عبيده، أو من يعملون معه.

هكذا عاشت أم الدرداء الصغرى، راوية حديث صحيح، وموجهة نصح متمكنـــة وعابدة وزاهدة، كان لها في التعبـــد والزهد طريق عمل فريد. وقد بقيت حيـــث أرادت أن تكون في موضع الرعاية والتقدير من خلفاء بني أمية، حتى لحقت بربها راضية مرضيا عنها بعد عام ١٨ من الهجرة. وهـــي عذراء لم تتزوج، ولم تقبل أن تمد يدهـــا إلى الأيدي التي امتدت إليهـــا، ذلك لأنها أحبت أن تبقى هكذا عذراء حتى تكون في الجنة زوجاً لمعلمها، ومربيها وموجهها، أبي الدرداء.

أم المقتدر*

في يوم أقــدم أمير المؤمنين المعتصم بالله، على ترك بغداد العاصمة العربية إلى ســامراء، أو «ســر من رأى» عاصمته الجديدة التي بناها ليبتعد بنفسه ومماليكه من الترك، عن شعبه، ويجعل منهم عصبته التي يحتمي بها، وجيشــه الذي يدافــع عنه، ويثبت دعائم خلافته، - لم يكن يتصور أنه بعمله هذا، كان يمكن غير العرب من التحكم في مصيره، وأقدار حلفائه من بعده، وأنه قد وضع الخطوط العريضة لتمزيق التراث العربي الشامخ، والقضاء على الملك العباسي العريق.

وقامت ســامراء العاصمة الجديدة، ودخلت باب التاريخ، وكان قيامها بعثــاً جديداً لدولــة الموالي التي قضى الخليفــة العربي المصلح «هارون الرشيد» على أخت لها من قبل يوم أزال سلطان البرامكة، وعاش المعتصم هناك وسط بيئة غريبة عنه بكل مقوماتها وشخوصها الذين ارتاح إليهم، وشــرب من موردهم، وتطّبع بطابعهم، فأضعف ذلك من وجوده العربي، وقوّى شوكة الغريب الدخيل.

ثم ســكن ســامراء أمير المؤمنين «المتوكل» وأكمل ما نقص من شــامخ مبانيها، ثم وقف أمامها في زهو طفل غرير يقول إنه قد عرف الآن فقط أنه ملك حقاً إذ بنى لنفسه مدينة سكنها.

وضحك القدر ساخراً من المتوكل العباسي، كما ضحك من قبل ساخراً مــن أبيه المعتصم، فلا المدينة الجديدة، بالقــادرة على حماية صاحبها،

* العربي - العدد ١١٥ - ديسمبر - ١٩٦٧م.

ولا جيش الغرباء بمستطيع أن يدعم وجود خليفة لم يحصن نفسه بقومه، ولم يحاول أن يقوّي وجوده بإخلاص وحب عشيرته الأقربين، وهاهوذا يستيقظ من أحلامه الوردية المستكينة ذات يوم، ويصحو على الواقع المؤلم المخيف، ويجد نفسه، قد تبدّل به الحال، وتغيرت الدنيا، وإذا هو لاشيء في قبضات أيديهم وقد تكاثروا عليه وحاصروه وتحكموا فيه إلى حد التطاول والاجتراء، وإذا بهم بين لحظة تمرد وخيانة يملكون الجاه ويصبحون أصحاب التحكم والغلبة والسلطان.

وهكذا بدأت البذرة الوحشية التي استجلبها الخليفة المعتصم، وزرعها في الأرض العربية تؤتي ثمارها الرهيبة القاتلة، وإذا بها تفتك أول ما تفتك بابنة المتوكل، فتطوي من الوجود صفحة وجوده، وتفتح من جديد صفحة أخرى جديدة للمغامرات والوثوب والتطاول، المغامرات من أجل سيادة الغرباء.

وعاد الزمن يمضي في مسيره الرتيب، ومع مسيره راحت تتكرر الأحداث والوثبات، وبدأت سامراء، العاصمة، تشهد لوناً عاصفاً من ألوان الحياة والحكم غير المستقر الذي لا يكاد يقوم حتى يسقط، ولا تكاد دعائمه تثبت بالليل، حتى يطاح بها في النهار، وإذا بالعاصمة الآمنة. «سر من رأى» ملاذ الأمن والطمأنينة والرخاء، والجاه، تنقلب إلى مسرح للمؤامرات، كانت الغلبة فيه دائماً للخونة، والسيادة لكل شرير، متطاول دساس.

وبالرغم من هذا الاضطراب البغيض، وعدم استقرار صولجان الحكم في اليد القادرة، ظلت الحياة تسير في «سامراء» على ذات الوتيرة التي استنها المعتصم العباسي، ووضع أسسها، وهي الإكثار من المماليك، واستجلاب الرقيق، وملء قصور الخلفاء بهم، وكان هؤلاء الخلفاء يتبارون في غير وعي لتجميع من يخرجون عليهم ويبطشون بهم، ويجرؤون حتى على قتلهم، والتخلص منهم، ومحوهم من الوجود.

وكما بالغ خلفاء بني العباس في شراء المماليك، كذلك تملكتهم حمى التنافس في شراء الجواري، من متباين الجنسيات الطورانية، ذوات الملاحة، والحسن والجمال.

وكما قرب هؤلاء الخلفاء من قبل، طائفة مماليكهم ورفعوا أقدار

الأجـراء المتهوريـن منهم حتى وصلوا بهـم إلى أرفع مناصـب الدولة، وأجلسـوهم في مراتب الصدارة والحكـم، كذلك فعلوا بأولئك الجواري الفاتنات...!!

واستمر الزمن في مسيره، نهار بعده ليل، وليس في أثره نهار، والليالي مـن الزمان حبالى يلدن كل عجيب، وكان العجيب المذهل، في تلك الأيام الخوالـي ما قد اعتادت العاصمة الجديدة، أن تبهر به العيون، وتقرع به الآذان من روائع المفاجآت.

لقـد تسـربت الجـواري لا إلى القصـور الخليفية فحسـب، بل إلى أعمـاق قلّوب أمـراء المؤمنين: أنفسـهم، ممن لم يكتفوا بالتسـابق في جمعهن وحشدهن في القصور، بل جعلوا من أولئك الغربيات بين عشية وضحاها، الزوجـات الأثيرات المقربـات صاحبات الكلمة المسـموعة، والنفوذ المطلق والجاه العريض، وما لبثن بعد هذا أن أصبحن شـريكات فـي الحكم والسـلطان، و.... أمهات لأولياء العهد، وأمـراء الدولة من الصيد الغطاريف من بني العباس.

وهكذا أصبحت سـامراء العاصمة الجديدة، دولـة دخيلة، على قلب الدولـة العربية الأصيلة، تتنازع أبهة السـلطان فيها ثلاث جبهات تمثل كل منهـا وجهة من وجهات الرغبة في ممارسـة لون الحكم الذي تهوى وتشاء.

كان هناك المماليك، وكانت هناك الجواري، ثم.. صاحب الحق اللاهي الذي أسلم أموره، وشارات سلطانه، إلى الخدم، وإلى النساء الغربيات.

وضحـك القدر، وكان لأصـداء ضحكاته دوي فـي الآذان، جعل أهل سـامراء ينطلقون ضاحكين، يالسعادة الوهمية التي لا وجود لها إلا في رءوس السكارى.

ليـل.. وشـراب.. ومجون وإسـراف، ثم انقضاض وبطـش، وخيانة، ومؤامرات.

وسـامراء... المدينة الجميلة، هادئة، صامتة، تبدو فاتنة، جميلة رائعة الحسـن، تغمرها إشـراقة مجلوة رائعة تبدت معها، ساحرة يحار أمام روعتهـا البصر الكليل، وقـد راح يتطلع إليها في ريبة وتوجس، فقد كان يرى غير ما يسمع، ويسمع خلاف ما يرى.

وبلـغ الترف بالعاصمة الجميلة، ومن فيها إلى حد التخمة، فلا عجب أن انقلبت الأوضاع جمعاء، وإذا بالجواري الساحرات المحجبات، ينقلبن إلى وحوش كاسـرة، راحت تثب وتنهش، وتخطف، وقد فقدن كل شـعور بالحب أو إحساس بالرحمة والحنان.

أعماهن بريـق الذهب، وخطف عيونهن المبصـرة، فلم تعد ترى غير التماعه المشع، ولا تسمع إلا رنينه العذب.

وإذا قلنـا إن النسـاء في ذلـك العهد، قهرن الرجـال وتملكنهم فإننا نسـتطيع أن نقول أيضـاً، إن الذهب والرغبة العارمة في تكديسـه قد تملكت عقول أولئك النساء.

لقـد كن كثيرات، كثيرات لا يتسـع المقام لذكرهـن، ولكننا نقف أمام إحدى الأمهات من جامعات الذهب، هاويات السـلطان، هي السـيدة أم أمير المؤمنين المستعين بالله.

هذه السـيدة، أفقدها حب الذهب، أرق المشـاعر البشـرية جمعاء، أفقدها الشعور بجلال البنوة، فإذا هي، وتحت تأثير حمى التملك تتآمر مـع تابعين من أتباع ولدها، ثم يعظم أمر هـذه المؤامرة، وتكون نتيجتها طرد المسـتعين بالله من عاصمته سامراء كلها، بل، من كرسي الخلافة، لتحكم الأم الجارية السـابقة، وتطلق يدها كما تشاء، فتجمع المال، وتذل الرجال!!

وإذا كان التاريخ يروي لنا قصة أم المسـتعين بالله المتآمرة، التي عملت على طرد ابنها، وإبعاده، وسـلبه حقوقه، فنذهل، ونعجب، فإن صحائف هذا التاريخ تأبى إلا أن تذهلنا، وهي تتفتح أمامنا على صورة أم جديدة مـن هذا الصنف من الأمهـات الطامعات، تلكم كانـت أم أمير المؤمنين المعتز بالله.

أجل.. أم المعتز بالله، الجارية، الشديدة، المتحجرة القلب، التي لم تكد تستشعر دفء المكانة العالية، وجلالها المرموق، حتى فقدت كل إحساس نبيل، وهاهي ذي تأبى أن تفتدي حياة ابنها المعتز بالله، ببضعة آلاف من الدنانير، وتسلمه إلى أعدائه فيتواثبون عليه كالضواري الجائعة ويفتكون به دون رحمة أو إشفاق ثم...

ثم.. لما فتشـت بعد ذلك خزائن تلك الأم، التي لا قلب لها، ولا عاطفة

ولا ديـــن، وجدوا خزائنها تفهق بالمـــال، وتكاد تختنق بما تكدس فيها من ذهب، وجواهر نفيســـة لـــم تكن قيمتها تقل أبداً عـــن مئات الألوف من الدنانير!!

أي عصـــور كانت هذه العصور، عصور جمعت الأفاقات، ورفعتهن إلى مكان الصـــدارة، فكن وبالا على العصر، ومن فيـــه وخاصة على فلذات القلوب!!

وأي أمهـــات كن هـــؤلاء الأمهـــات!! إن وصفهن بالوحـــوش لا يكفي، وبالرغم من هذا كن أمهات!! ومن هذا الصنف الغريب، وفي هذا العصر بالذات، نجد أنفسنا أمام صورة لأم ثالثة، أم كانت من الجواري قفز بها جمالها إلى أســـمى مقام، فإذا هي مع الزمـــن «أم أمير المؤمنين المقتدر بالله العباسي»!!

ذلك عصر نقف أمامه في دهشة، عصر غريب جامع للمتناقضات، لقد ارتقى المقتدر عرش الخلافة عام ٢٩٥ هجرية الموافق عام ٩٠٢ ميلادية، وكان من الهوان، والضعف والانحلال، بحيث أطمع فيه مماليكه، وأفسح المجال لأمه كي تمارس الحكم، وتزاول الســـلطان وتأمر، وتنهي، وتقضي في حوائج الناس بما تشـــاء، وبالرغم من هـــذا، طال أمد حكم المقتدر، حتى جاور ربع القرن.

ربع قرن من الزمان، كان المقتدر خلالها، أسوأ مثل لأسوأ حاكم، وكانت أمه، أسوأ مثل، لأسوأ أم.

حاكم منصرف عن شـــعبه، وأمير المؤمنـــين، قصّر من أول أيام حكمه وعجـــز عن تحمل تبعات الحكـــم، وناءت بها كتفـــاه الضعيفتان، فتنازل عن شـــارات حكمه، وصولجان سلطانه، لتابعه، وترك لغيره من المماليك والخدم والجـــواري حرية التصرف في أمور الدولـــة، لينصرف هو إلى دولته الخاصة، دولة الترف والملاذ، وإلى شعبه الحبيب إلى قلبه، القريب إلى نفسه، شـــعب الليالي الماجنة والسهرات العابثة، والترف والإسراف، شعب الجواري الحسان والمحظيات الفاتنات!!

وكان من الطبيعـــي أمام هذا الوضع الغريب، وانصراف أمير المؤمنين المقتدر بالله إلى ملاهيه وملذاته وشئون المحظيات الجواري، أن تجد أم المقتدر ســـبيلها المهد الســـريع إلى ما كانت تطمع فيه من جاه، بل إلى

أبعد مما كانت تشاء وتحلم به من سلطان..!!

وأم المقتدر قيل إن اسمها كان «شغب» ولم يجد هذا الاسم الغريب مَن يحققه، أو يهتم بتصحيحه وإعادته إلى أصله، لأن شهرة هذه السيدة، غلبت، اسمها، والتصاق اسم ابنها المقتدر بها، وهو أمير المؤمنين، ورأس بني العباس، يومها جعل مناداتها باسم شهرتها هذا، أقرب. وأعظم نفوذاً، وأشد تأثيراً، فعرفت باسم أم المقتدر، ونوديت بهذا الاسم، وذكرها التاريخ به، ولم يهتم باسم آخر سواه.

ونعود، ثانية لنقول إن أم المقتدر هذه، كانت جارية قفز بها جمالها إلى مكان الصدارة، وأجلسها حظها، حيث تمنت أن تكون، وسيدة مثلها من صائدات الحظ، لابد أنها كانت آية في الحسن، وفوق هذا آية في الدهاء، وإلا ما وصلت إلى أكثر مما تمنت، ولما استطاعت بعد وصولها هذا، أن تقحم نفسها على بلاط ابنها أمير المؤمنين، وتفرض وجودها عليه وتجعل من نفسها، صورة أخرى منه، تعزل وتولي وتحكم، وتتحكم وتدفع ما يجري من الأمور إلى حيث تشاء، وترفع من تشاء، وتعزل من تشاء.

وأم المقتدر، كما أسلفت، كانت آية في الدهاء، كانت تفوق الأفعى الرهيبة في دهائها، وكانت تعرف متى تكمن، ومتى تستكين، وتعرف أيضاً متى تتحرك لتتحسس الطريق. وتتعرف على مكان الفريسة، ثم تتحين بعد ذلك الفرصة للانقضاض، بحيث تكون ضربتها هي الضربة الأخيرة، ضربة الموت!

لقد تولى المقتدر شئون الخلافة العباسية عام ٥٩٢هـ، وسعدت أمه بولايته، وراحت تفرض ظلها على مجتمعه المنحل في سامراء، في لين ودون قسوة أو عنف فاستطاعت أن تسير بمراكب أحلامها إلى شواطئ الأمان والثقة، وأن تتفادى التيارات المضادة، وشتى عواصف المطامع وأعاصيرها، حتى خبرت الطريق جيداً، وعرفته عن يقين، وراحت ترتاده بعد ذلك في يسر متحاشية تماماً أن تتصادم مع غريم، أو أن تخلق لها عاذلاً أو عدواً.

واستطاعت أم المقتدر بسياستها هذه، أن تجعل الطامعين، والصائدين، تجار المنافع من بلاط ابنها ورجال حاشيته، ودولته، يرتاحون إليها، بل

وأن يجعلها بعضهم شـفيعته في قضاء حاجـة عويصة، أو الوصول إلى مـأرب عزيز، فلما تمكنت من نفسـها، وأصبحـت مكانتها مدعمة بين الجميع، إذا بها تظهر علانية على مسرح الأحداث في سامراء، وإذا بها ترفع النقاب عن وجهها، وتظهر على حقيقتها، وإذا بها تتقدم الصفوف، وتؤخر الرجال، لتصل هي...

وإلى أين كانت تريد الوصول تلك السيدة المغامرة الطامعة.

كانت تريد الحكم والسلطان، من وراء ستار مهلهل، رقيق اسمه المقتدر بالله، فأحكمت الخطـة، وأبدعت التدبير، وعبّـدت الطريق في مهارة ثم، وإذا بها وبعد عشـر سـنوات طوال من تسـلم ولدها صورياً مقاليد السـلطان، تقفز إلى الأمام، وتخرج من مكمنها علانية، ويغلبها شيطان مطامعها، وتسـتبد بها رغبتها في التملك فتقدم على ما لم يجسر عليه الرجال، وتعين جارية لها اسـمها «ماثل» لتأخذ مكان القاضي، وتجلس ظهر كل جمعة فـي الرصافة، تتلقى مظالم الناس وشـكاواهم وتفصل فيها.

لقـد كانت جرأة أي جـرأة، أقدمت عليها أم المقتـدر، حتى لقد ذهل الناس، وطارت نفوسـهم هلعاً ورغبة وهم يرون كيف تستباح الحرمات، وكيف استطاعت أم المقتدر أن تهون من شأن الرجال، فجعلت من جارية لهـا قاضية تحكم، وتفصل في أدق الأمـور، بالرغم من أنها رقيقة غير كاملة الأهلية.

وقد كان مـن الطبيعي والحالة هذه، وأمام مثـل تلك الجرأة التي لم يكـن لأحد عهد بمثلها من قبل، أن انصرف الناس متذمرين عن مجلس مظالم الجارية «ماثل» وأبوا في مجموعهم أن يرضوا بما حدث، وكرهوا أن يسـلموا بما أقدمت أم المقتدر على فرضه من الرضوخ الشائن المذل، وإقرار ولاية الجارية عليهم، واجترائها وهي الرقيقة التي لا تملك حرية نفسـها - على التصرف في شكاوى أحرار الناس وقضائها فيهم بالرغم مـن أنه جلـس حول «ماثل» هذه في مجلسـها المعيـب فقهاء عصرها، وقضاتـه، والأعيان، لتكتمـل للمجلس صفته القضائية، ويكمل شـكله، وتكـون لأحكامه، وفتاوى رئيسـته وقاضيته الجاريـة، وأوامرها، صفة التنفيذ، وقوة الإلزام.

ابتعد الناس عن ذلك المجلس الذي لا ولاية لمن تصدرته، ولا صفة لها تؤهلها للحكم، ولا مكانة تجلسها هذا المجلس العظيم الشأن، وراحوا يتندرون بالجارية، ويسخرون من سيدتها ولكن..

ولكن أم المقتدر.. أم أمير المؤمنين العابث اللاهي، هل كانت ممن يحني رأسه للعاصفة التي يثيرها الشعب، وهل كانت تقبل مثل هذه الهزيمة التي تقلل من شأنها، وتهون من جليل أوامرها، وهي الداهية، الحصيفة، الشديدة الذكاء الواسعة الحيلة!!

أبداً، ما كانت أم المقتدر لتسلم برأي ارتضاه الشعب، وهاهي ذي تلجأ إلى الخديعة والمكر، لتلبس باطلاً أرادته ثياب الحق، وترغم الناس، أيا كان رأيهم في جاريتها، على قبول الوضع المشين، وإحناء رءوسهم للواقع الشاذ، فكان أن أوعزت إلى القاضي النابه أبي الحسن، بأن يجد المخرج، ويفتي بصحة جلوس، «ماثل» للقضاء والفصل في ظلامات الناس وشكاوهم.

واستجاب أبو الحسن لأمر سيدته أم المقتدر، ونسى جلال مركزه، وعظيم مكانته وانقلب ينادي بشرعية الباطل، وصحة الوضع، وراح يتكلم في تكوين المجلس، وصحة قيامه، وقوة أحكامه، وكان الشيخ من البراعة، بحيث جعل من الباطل حقاً، ومن القبيح حسناً، ووجد حديثه صداه لدى الخاصة والعامة، فمال الناس إلى قوله، ولجأ المظلومون وأصحاب الشكايات جميعاً إلى مجلس قضاء «ماثل» الجارية يسألونها، ويطالبونها بإجراء العدل.

وهكذا عظم شأن أم المقتدر، وتعاظم، فعلت وتعالت وعز أمرها، وأمر من حولها من الأعوان حتى أصبح أهل الحل والعقد في بلاط أمير المؤمنين يرهبونهم ويخشونهم ويتلمسون رضاهم.

واستمرت أم المقتدر بعد هذا في الطريق الذي اختطته لنفسها، ومضت فيه قدماً، وهي ترجو أن يتضاءل الجميع إلى جانبها، وتخبو أضواؤهم الباهتة إلى جانب ضوء أمجادها الباهر اللألاء، وإنها وهي في طريقها هذا، تسعى فيه قدماً، تعمل جاهدة على أن تصيب عصفورين بحجر واحد، ففي الوقت الذي تسخر فيه من إرادة الشعب، وتعمل على إضعاف معنوياته، والقضاء على أي فكرة تهدف إلى تكتله، أو تكوين

رأي عام له، نراها تسارع إلى ترضية هذا الشعب، فتنشئ بيمارستان «سوق يحيى» لعلاج العامة والخاصة، تسرف في سخاء لسرعة إقامته وتأثيثه بما يليق بمكانتها، وتنفق من أجل إتمام هذا الأثر الإنساني، ما يقرب من ستمائة ألف دينار، ثم تأمر الطبيب سنان بن ثابت الحراني، بأن يشرف على أعمال هذا البيمارستان، ويتولى إدارته، بعد أن يفتتحه رسمياً للعلاج.

امرأة ذكية شديدة الدهاء ولاشك، تعرف كيف تجعل رياح الحوادث، تسير في صفها، وتسخر هبوبها، لمصلحتها وحدها، كي تتقدم هي، ويتأخر كل من سواها من الناس.

وكانت أم المقتدر بحكم حياة البلاط الخليفي التي عاشتها، تعرف جيداً أقدار الرجال، وتعرف كيف ترفع، وتضع، وكيف تحارب هذا بذاك، وتقضي على نفوذ كل طامع بمن هو أشد منه طمعاً، وأكثر ضراوة، فضمنت لنفسها الغلبة وهي بعيدة عن مجال الصراع، ونالت قصب الفوز في كل نضال أرادته ودون أن تشارك فيه، أو تظهر في ميدانه.

لقد كانت أم المقتدر نمرة مفترسة، أخفت أنيابها القاطعة الرهيبة خلف ستار محاسنها وابتسامتها ومظاهر الطيبة والعطف التي كانت تبديها، كما أخفت مخالبها الحادة وراء مظاهر النعومة النسائية والتظاهر بالحنان والحدب على من حولها، ولكن من حولها كانوا يعرفونها جيداً، كانوا يعرفون أن ابتسامتها زمجرة وتوثب، وبشاشتها، استعداد للهجوم، وترحيبها البادي، هو التخدير القاهر لكل فريسة يوقعها سوء الحظ بين أنياب المرأة النمرة!!

كان حنان أم المقتدر، هو الفخ الذي لا يفلت الفريسة أبداً، إذ كان هذا الحنان هو عنفوان القسوة، ورهبوت التجبّر والوحشية، وكان القوة المغناطيسية التي لا يستطيع أن يقاومها إنسان، فإذا ما استسلم له، وآمن للنمرة المفترسة، عرفت كيف تتفنن في تعذيبه بعد ذلك، وكيف تطيل أمد التعذيب والعذاب.

كانت تعتبر التغاضي عن المسيء عقاباً، وترك عقاب المخطئ تعذيباً له وانتقاماً منه، وكان تغاضيها هو أروع مظاهر دهائها عن هفوات المخطئين أو مَن يتجاوزون حدودهم المرسومة أحياناً. أو يحاولون التهاون

في واجب خدمتها والإخلاص لها، وكانت تعرف أن إهمال شأن المخطئ هو بداية تعذيبة المستمر، لأنها كانت تؤمن أن الخوف من المجهول أشد رهبة من وقوع البلاء، فالترقب هو اعتصار النفس، وتعذيبها بسلاح القلق والترقب الذي لا آخر له ولا حدود.

من أجل هذا خشيها الجميع وتحاشوا طريقها وسلموا لها بما كانت تريد قبل أن تعلن أنها تريد.

كانت إشارتها مستجابة، وكان في إيمائها أمر لا يعصى.

ولقد تحاشاها الجميع توقياً لصفاتها تلك، ولم يأمنها أحد من خدمها أو عبيدها أو جواريها، إلا بمقدار، ولكن.. كانت جاريتها الأثيرة «ماثل» على عكس مَن عملن معها جميعاً، إذ عرفت كيف تستحوذ على ثقة مولاتها وحبها، وأن تكون الموضع السر، مفتاح المؤامرات والوثبات المفترسة أيضاً.

وكان من سوء طالع «الخصيبي» أن عمل أول ما عمل في خدمة مولاته أم المقتدر، وكان ذكياً، شديد الإخلاص، عرف كيف يدبر لها ديوانها الخاص، وضياعها وأملاكها غير المحدودة، وكيف يجبي أموالها، ويزيد في غلتها، ويضاعف أرباحها.

وكان الرجل من النشاط والقدرة على التصرف بحكمة في كل الأمور بحيث أثار انتباه سيده أمير المؤمنين المقتدر بالله، فأحب أن يجعله في رجاله، وأن يستخلصه لنفسه فتخيّره للوزارة، وكانت قفزة رائعة ما توقعها الخصيبي أبداً، فأسرع ينتهزها، وقبل عرض أمير المؤمنين وترك واجب خدمة أمه.

وتمنت أم المقتدر للخصيبي حظاً سعيداً، وتوفيقاً أكثر في خدمة ابنها، وراحت في صمت تعد الشرك للرجل الذي اعتبرت استجابته لأمر أمير المؤمنين، وعمله في خدمته، خيانة لها، وخروجاً عليها، وهاهي ذي تسر إلى «ماثل» الجارية الخطيرة، وموضع أسرارها، أن تبحث لها عن بديل يملأ مكان الخصيبي، يتميز بالطاعة، ويحب الاستقرار، ولا تبطره النعمة، لا يتمنى مزيداً عمّا وصل إليه، ولا يفكر في ترك واجب خدمتها ذات يوم ليقوم على خدمة غيرها، ولو كان هذا الغير هو ابنها أمير المؤمنين.

وأســـرعت «ماثل» الذكية تتفحص الرجال، وتتعرف أخبارهم، وتختبر مـــا لهم من إخلاص، وقدرة على الوفاء حتى اســـتطاعت في النهاية أن تجد ضالتها في ابن سهل الذي باعد الحياة العامة في القصور، وجانب الناس عن ضيق بهم وتبرم بوســـائلهم، وعكف في بيته يعيش على إيراد أرض كانت له.

وتقرّبت «ماثل» من ابن سهل، وعرفت كيف تستدرجه ليخرج من عزلته، ويقبل العمل مع أم المقتدر، وهو أعلم الناس بها، وأكثرهم خبرة بطباعها، فقبل عن طيب خاطر، وهو يعلم أن معرفته هذه للنمرة الباطشـــة سوف تحميه ولاشك منها وتجنّبه وثباتها وحدة أنيابها وبطش مخالبها إذا هي فكرت في الوثوب عليه، أو الغدر به.

وهكذا دخل ابن سهل خدمة أم المقتدر وفي يقينه أنه سوف يكون عند حسن ظنها به وموضع ثقتها الدائمة.

ونجـــح الرجل الذكي، وعرف كيف ينال رضـــاء النمرة الرهيبة إذ أدار أموالها وضياعها في حزم وكياسة وأمانة، وبالغ في تنمية أموال سيدته، ومضاعفتها بما لم تشهده من غيره من قبل ثم...

ثم راح ابن سهل الذكي، يتجه بصره إلى حيث اعتادت مولاته أن تتجه ببصرها وتزمجر في ضيق وتبرم وحقد، ثم ابتسم، وخطا خطوته الأولى ليكون أداة انتقام ســـيدته مـــن الخصيبي الأمين، فضيـــق عليه الخناق وحاصر جهوده ونشاطه، وسلّط عليه الأضواء فكشفت حقيقة إخلاصه، وبانت حقيقة معدنه الزائف.

وأحـــس الخصيبي بالنهاية، وأرجف من هول انتقام أم المقتدر، ورجلها الجديد ابن ســـهل، وضاقت في وجهه المسالك، وهانت في عينيه الدنيا، وما حوت من مظاهر، وشعر بأنه لاشيء، وأنه مجرد من كل سلطان، وأنه أضعف من أن يغامر أو أن يحاول التقرب إلى سادته من جديد، فالمال قد قلت موارده، والمـــوارد العديدة قد روقبت، وأحاطت بها العيون المبصرة، فلـــم يجد الخصيبـــي إلا أن يتوارى عن الأضـــواء ويزحف إلى الظل من جديد، ويقنع من مغامرته بالهروب، ومن حياته، بالاعتكاف.

وانحســـر ظل الخصيبي، وتوارى الرجل في ظلمات النســـيان، وكانت هزيمته تلك بداية شجعت أم المقتدر، على المضي قدماً في إقحام نفسها

في أمس شـئون أمير المؤمنين، ومراقبة رجاله ومن يعملون تحت إمرته، وكلهـم من طائفة المماليك والعبيد، الذيـن لا عمل لهم إلا تصيّد المنافع والجري حيث المغانم.

واسـتقرت عينـا أم المقتدر في النهاية على أقـرب مماليك ابنها إلى نفسه وأشـدهم لصوقاً به، وهو مؤنس المظفر، مملوك المقتدر، وموضع رعايته وثقته، ثم راحت ترقبه في حذر وتتابع خطواته في دهاء، وتحدد مدى صلاته بالغير فطنة، وريبة، حتى استطاعت أن تكشف المستور عن أمره، وتصل إلى سره وحقيقة نواياه، فعرفت عنه في أقصر أمد، ما قد أفلح أعوامًا طوالاً في إخفائه من سيدة المقتدر نفسه.

عرفت النمرة الباطشـة أن مؤنسـاً المظفر، كان يدبر الغدر بسـيده والوثوب عليه، فتربصت هي به، وأقسـمت بينها وبين نفسـها أن تتغدى هي به، قبل أن يتعشى هو بابنها الغارق في اللهو إلى أذنيه.

ودبرت أم المقتدر مؤامرتها بإحكام، وأعدت العدة للقضاء على مؤنس الخائن، ورصدت له من يتربص به ليقتله، ولكن عيون مؤنس استطاعت أن تكشف المؤامرة وأن تعرف من أين كانت ستهب عليه الريح.

ولمـا كان مؤنـس على عظيم صلاتـه بالبلاط، وعلى كثـرة ما له من الأعـوان، أضعف من أن يقف في وجه أم المقتدر في تلك الفترة بالذات، خشية أن تتكشف حقيقته كلها، فتضعف مكانته وتضيع فرصته التي كان يرجوها - فقد أسـرع هو الآخر ينسحب في هدوء، متجنباً أن يثبت في معركة حتى لا يصاب فيها بأذى، وكان أن ظل حيث هو، وابتعد عن المكان الذي تربص له فيه مَن سوف يقتلونه، ثم طلب من أمير المؤمنين أن يأذن له في مبارحة سـامراء كلها، حيث اختـار لإقامته ثغراً من الثغور يعيش فيه، مستظلاً بظل المقتدر، عاملاً على خدمته في ميدان جديد.

ونزل المقتدر على رأي مملوكه الأثير، وسـمح له بما أراد، وأذن له في الخروج حيث أراد.

وترك مؤنس المظفر سـامراء وهو لا يصدق أنـه قد نجا من مخالب النمـرة وأنيابها القاطعة، ولجأ إلى المكان الذي تخيّره حيث عاش هادئاً ناعم البال لا يخشى فتنة ولا اغتيالاً.

ومرت الأيام، وبدأت الأحوال تضطرب، والجو تسوده غيوم المفاجآت

غير المتوقعة التي لم يحسب لها أمير المؤمنين المقتدر بالله ولا أعوانه أي حساب، بل ولم يفكروا فيها على الإطلاق، وإذا بهم، وفجأة ودون مقدمات يذهلهم الحادث، وتقع بهم الواقعة، فاكفهر الجو، وتلبدت السماء ولم تنذر بخطر فحسب، بل كان السيل المدمر الرهيب وقد سال وفاض، وأخذ يتقدم مجتاحاً كل ما كان أمامه من حدود وفواصل وسدود.

إنهم القرامطة، أصحاب المذهب الباطني الهدام، الذي استغل الدين وسماحته، والدين منه براء، فحرّم الحلال، وأحل الحرام، وأباح المحظور، وخرج على العرف، ولم يعبأ بتقاليد، وتجاهل الفرائض ولم يهتم بالسنن، ولم يفعل أكثر من أنه أحاط رأس المذهب بسياج من التقديس والجلال كاد يخرج به عن حدود البشرية، ويرفعه في عيون مريديه وأتباعه إلى مكانة التقديس.

لقد خرج القرامطة، وقد قويت شوكتهم، وعظم أمرهم، وأصبحوا قوة يحسب لها حساب، خرجوا من مكانهم وأماكن تجمعاتهم المريبة، ليبشروا بمذهبهم الهدام، وينشروا عقيدتهم الإلحادية ويجبروا الناس على الدخول في زمرتهم العاصية ويتملكوا الجاه والنفوذ والسلطان.

خرج القرامطة بكثرتهم التي لا يحصرها عد، ولا يشملها نظام، وهاجموا الثغور وعاثوا في الأرض فساداً بعد فساد، وتعرض لهم أول ما تعرض مؤنس المظفر وهو يومها في الثغر الذي تخيره لمقامه، فاضطرب أمره هناك، ولم يستطع أن يقاوم الإعصار الجارف المدمر، فهرب ناجياً بحياته، وعاد إلى سامراء لينبه أمير المؤمنين إلى الخطر الداهم ويطلب بسرعة الخروج لرد المارقين وتأديب العصاة الزنادقة.

وسخر المقتدر من أوهام مؤنس، وتصور أن ما قاله له ما هو إلا مبالغة من مبالغاته فهون من شأن القرامطة، ولم يسارع إلى إطفاء نيرانهم التي أخذت تمتد وتجاوزت الثغور إلى المدن وإذا بالزنادقة الذين لا يحكمهم عرف ولا دين يصلون إلى بغداد.

يالها من لحظات حرجة، وموقف عصيب وجد المقتدر نفسه فيه، فأفاق برغمه من غاشية لهوه، وصحا من غفلة مجونه، وأراد أن يخرج بجيشه وأعوانه من المماليك لصد القرامطة ولكن... أنى كان له المال

ليستطيع أن يدير به عجلة الحرب ويذكي نيرانها ويحقق النصر على الخارجين!!

وأسرع المقتدر إلى أمه، الواسعة الثراء، الكثيرة المال، يسألها كي تعينه على ضائقته بما يفرج عنه الكربة ويبعد خطر القرامطة، وألح وتوسّل، ولم تجد الأم غير أن تستجيب للابن.

لقد كانت أم المقتدر في هذا الموقف أكثر نبلاً وأعظم خلقاً من سابقتيها، أم المستعين بالله، وأم المعتز بالله، فمدت إلى ابنها يد العون، وزودته بما أراد من مال أربى على ملايين الدنانير، لأنها كانت تعرف أن زوال سلطان المقتدر هو زوال حتمي لسلطانها، وهذا أمر كانت لا تحبه ابتداء ولا تتصور أن يحدث أو أن يكون..

واجتراء القرامطة، ثم خروجهم، ثم عصيانهم للدولة، وتهوينهم من شأن الخليفة العابث كان بمنزلة الهزة الشامخة القوية، التي أيقظت الشعب، وفتحت عيونه على حقيقة القصر الخليفي ومخازيه وآثام ومجون من فيه، فكان أن ارتفعت الأصوات تطالب بالإصلاح واليقظة والالتفات إلى مصالح الشعب والحد من الترف والإسراف، وتدخل النساء في شئون الحكم وأمس أمور الخلافة.

وأبى المقتدر اللاهي العابث أن يستجيب لصيحة الاصلاح، وركن إلى بطانة السوء التي هونت له الأمر، وصغرت من شأن قومة الشعب، فاستمر في غيه وضلاله، وإذا بالشرر يتجمع، ويضطرم في الهشيم المكدس ويصبح ناراً، عرف مؤنس المظفر كيف يستغلها لمصلحته وتحقيق أحلامه، فانضم إلى صفوف الشعب برجاله وأعوانه، وقادوها ثورة على المقتدر الذي حوصر في قصره، وأجبر على التنازل عن حقه في الخلافة إلى أخيه غير الشقيق محمد الذي نودي به أميراً للمؤمنين باسم «القاهر بالله».

ولقد كان غريباً بعد هذا النجاح الذي أحرزه الشعب في خلع الحاكم الماجن المتبذل أن تتحول الثورة إلى لون من ألوان الهياج المضطرب الذي لايرتكز إلى أية أسس تدعم بقاءه، وتعلي من شأنه، وإذا بالانتصار يستحيل جموحاً، وإذا بالناس يظنون أن خلع أمير المؤمنين وإقصاءه عن تصريف أمورهم، استباحة للحرمات وتطاول على كل شيء، وخروج على

مألوف الأمن، وعرف النظام، وإذا بالغوغاء يركبون رءوسهم ويهاجمون قصر الخليفة فينهبون بعض ما به، ثم يهاجمون بعدها قصر أم المقتدر، فيسرقون الكثير من نفائسه وأموال صاحبته، ثم، بعد هذا كله اتجهوا إلى أمير المؤمنين الجديد! وذعر القاهر، وأرجف، وخشى غضبة الشعب الهائج، وما أسرع ما فر تاركاً القصر، بل... ومقاليد الحكم وصولجانه.

وركب الشعب رأسه، وأدهشه أن يفر أمير المؤمنين، وأن يخلو منه قصره، وكأنما حلت اللعنة على المشاغبين، فعادوا إلى حيث سجنوا المقتدر فأخرجوه من محبسه، وعادوا به إلى قصره أميراً للمؤمنين مرة ثانية!

وعلا شأن المقتدر مرة أخرى. وجاءه أخوه نادماً مستغفراً يعلن طاعته وشديد أسفه، وولاءه لأخيه أمير المؤمنين الذي رحّب به ثم ما لبث أن أمر بسجنه، وتخيّر محبسه في قصر أم المقتدر التي تولت من قبل تربية القاهر بعد موت أمه، فكانت له أما ثانية ترعاه، وتعطف عليه.

وأحست أم المقتدر بجفوة من ابنها أمير المؤمنين، وشعرت أنه قد بعد عنها بحسّه وعواطفه، لأنها تقف إلى جانبه، فأقبلت على أخيه غير الشقيق، الذي احتضنته طفلاً وتولت تربيته، فراحت توليه من حنانها أضعاف ما كانت توليه للمقتدر نفسه، وقد رمت بذلك إلى هدف كانت ترجوه.

كانت أم المقتدر، تعرف أن أمر المقتدر لن يلبث أن يضعف، وأن سلطانه، لابد أن ينهار مادام مؤنس المظفر يعظم شأنه، ويتكاثر أعوانه، وأن خلع ابنها إن لم يتم اليوم، فسيتم غداً، أو بعد غد، وأن القاهر، ذلكم الصغير العاجز هو رجل الغد المنتظر، ولاشك، ومن أجل هذا يجب أن تأخذه في صفها، وتجعله ورقتها الرابحة في مباراة السلطان، ومحاولة الاحتفاظ بمظاهره وعظمته، فلم تبخل على سجينها المسكين بمال أو متعة، وراحت تشتري له الجواري، وتوفر له أسباب اللهو والترف والمجون، وأغدقت عليه إغداقاً كانت ترجو أن يرد إليها في المستقبل القريب.

وصح ما توقعته أم المقتدر من أن الاستقرار لن يدوم طويلاً في الدولة، ومؤنس المظفر هذا، طليق، حر، يفعل ما يشاء ويعظم أمره بين العامة،

ويتكاثـر أعوانـه ويتضاعف عدد من يلتفون حولـه، وإذا بأمير المؤمنين يشعر أخيراً أن عرشه يهتز من تحته، وأن مؤنساً هو سبب كل شر وبلاء، فأصر على حربه والقضاء عليه.

ومـرة أخرى لجأ المقتدر إلى أمه يسـألها العون ويطلب منها أن تمده بالمال يسـتعين به على حرب مؤنس والقضاء عليه، ولكن حب المال هذه المـرة، غلب حب الأم، وطمس معالم حنانها وخوفها على حياة ابنها، فلم تمده بأية مسـاعدة كان يرجوها على الإطـلاق، وبالرغم من هذا، كره المقتدر أن يعيش فريسة يتلهى بإفزاعها مؤنس المظفر، فخرج إليه لحربه والقضاء على نفوذه الذي كان يستمتع به، ولكن..

ولكـن المقتدر الذي خذلته أمه، خذله الحـظ هو الآخر، وتخلى عنه، فسقط في ميدان المعركة!!

والتاريخ يقول لنا في هذا الصدد، أن مؤنساً المظفر حزن لمقتل سيده، ووجـد أن خيـر ما يعبر به عـن ولائه للخلافة العباسـية، هو أن يوعز بضرورة المناداة بولده «أبى العباس أحمد» أميراً للمؤمنين.

وكانـت التزكية الوحيدة التي عزز بهـا مؤنس المظفر مقترحه النفعي هذا، هي أن أبا العباس هذا، لم يزل بعد حدثا، ومن أجل هذا هو يطمئن إليه، ويثق به إلى حد بعيد، ويعرف فيه حبه الشـديد للابتعاد عن دائرة المشـاكل أيا كانت هذه المشاكل، ومن أجل هذا سيكون أداة طيعة في يد مؤنس ومن ظاهروه في حركته.

وزاد مؤنـس بعد هذا على ما قال، أنه قـد خبر أبا العباس أحمد بن المقتـدر الخبرة الكافية، لأنـه هو الذي تولى أمر تربيته وأشـرف على تنشئته وتعليمه وإعداده للسلطة وتسلم أمور الحكم.

ولكن، كانت هنـاك تيارات معارضة، ورءوس أسـمى، وأكثر علوا من رأس مؤنس، وربما كانت هي التي تسـانده في الخفاء، وتشـجع حركته فـي الخروج على مولاه، وأبت هذه الرءوس المدبرة القاهرة أن تنزل على رأي مؤنـس، أو أن تترك له مزيداً من الفرصـة ليظهر ويتقدم، ويعظم شـأنه، فوقفت تعارضه، وضربت برأيه عـرض الحائط، وارتفع صوت أبي يعقوب اسـحق بن إسماعيل النوبختي يسفه ما قال مؤنس ويدحض حجته ويقول إنهم تنفسـوا الصعداء اذ استراحوا من خليفة تحكمه أمه

والنســـاء من أقاربه، ويتصرف فيه خدمه، فلمـــاذا يريد مؤنس أن يعود بهم إلى الدائرة البغيضة نفســـها من جديد ويوصي بتولية أمير المؤمنين له جدة باطشـــة، وأم وأقارب من النســـاء ومن ورائهم جيوش من الخدم والمماليك والعبيد.

ووجـــدت كلمات النوبختي صداها فـــي كل النفوس، وارتاح لها الناس أجمعـــون، وعادوا يصغون إلى الرجل الحازم وهو يطالب في إصرار بأن يكون أمير المؤمنين الجديد، رجلاً كاملاً قادراً على تدبير أموره الخاصة ثم أمور رعيته.

مرة أخرى قفز إلى مكان الصدارة، اسم محمد بن المعتضد بالله أخي المقتـــدر غير الشـــقيق، والذي ولى إمارة المؤمنين مـــن قبل، وهو القاهر بالله..

وهكذا شـــاء القدر أن يخرج القاهر من محبسه عند أم المقتدر، ليجد نفســـه في مكان أخيه المقتدر مرة أخرى حيـــث نودي به أميراً للمؤمنين ورأساً للدولة العباسية.

ولقـــد كادت الدنيا تضيق بأم المقتدر، وهي تـــرى القاهر يضفرون له أكاليل المجد، ويلبسونه شارات السلطان، ويعدون له المواكب تلو المواكب، وقـــد وقف كبار رجـــال الدولة خضوعاً في حضرته، ودهمها إحســـاس بالراحـــة جعلها تتصور أنها لـــم تفقد المقتدر ولدهـــا، إلا لتجد القاهر أخاه لأبيه، عوضاً عنه، وأنه ســـوف يعـــزز مكانتها، ويكون وجوده مدعاة لاستمرار سلطانها وتحكمها واستمرارها في الثراء وجمع المال.

وضحك القدر مرة أخرى، ضحك ســـخرية من إسراف أم المقتدر في التفاؤل، ضحك ســـخرية من المرأة البالغة الـــذكاء التي ظنت أن الدنيا، زادت عليهـــا إقبالاً، وأنها ســـتظل حيث أرادت متحكمـــة، قادرة، قوية، تستطيع في يسر أن تحرز الفوز بعد الفوز والانتصار في كل جولة، وكل مضمار.

وبدأت سامراء تشهد مع بداية حكم القاهر لوناً مريباً من ألوان الهدوء الذي تنذر سكينته وصمته بقرب قيام العاصفة، وفوران الإعصار، وراحت أســـتار الواقع تتهدل عن الحقيقة المؤلمة، وانتبـــه الغافلون من أحلامهم على أمير المؤمنين القاهر، وقد كشـــف النقاب عن وجهه البشع، ونفسه

الحاقـدة، فبانت حقيقته التي أخفاها وراء قناع انعزاليته الأولى، ويالها كانت من حقيقة مريرة بشعة!!

وارتاعـت أم المقتدر، واعتصر الخوف قلبها، وأحسـت بالأرض تميد تحت قدميها، وما أسـرع ما أحسـنت ضياع الأماني، وخيبة الرجاء في «القاهر» الذي احتضنته وليدا، وربته يانعاً، ثم استضافته سجيناً شريداً، فأغدقت عليه النعم وأغرقته في الترف وكفلت له أسـاليب المجون فوق ما كان يبغى ويريد.

لقد أرادت أم المقتدر شيئاً، وأراد الله غير ما أرادت.

لقد ظنت أن «القاهر» سـيعوضها عن المقتدر، فإذا بالحقيقة الأليمة تخرج بها من فراديس أحلامها، وهاهو ذا ربيبها تظهر بواطنه، فإذا هو عدو لدود وخصم مبين!!

وعرفـت أم المقتـدر، وقد ثارت عليها عواصف غـدر القاهر، وبدأت تجتاحها تيارات حقده القديم، عرفت متأخرة أنها يوم ضنت بالمال على ابنها لتعينه في جهاده ضد مؤنس المظفر، أنها إنما كانت تبيع دم المقتدر ولدهـا بأبخس الأثمان، وتبيع معه حظهـا، وتتنازل عن عليائها، وتتدنى إلى المرتبة الوضيعة المجردة من العواطف البشرية، والمشاعر الإنسانية، وإحساس الأمومة المقدس، الذي وصلت إليه قبلها أم المستعين بالله، وأم المعتز بالله، وأنه يجب عليها أن تجني ثمار ما زرعت، وأن تنتظر الجزاء العادل.

وفوجئـت أم المقتدر ذات يوم بالقاهر، وهو يطالبها بما لديها من مال، ويسـألها عما كان لدى ولدهـا المقتدر من جواهر وعـروض، وراوغت وأنكـرت، وتباعدت، ولا فائـدة، إذ كان القاهر وأعوانـه لها بالمرصاد، وهاهـو ذا، وبعد أن فشـل في اسـتجواب أم أخيه، يلجأ إلى الوسـائل الرهيبة ليرغمها على الاعتراف.

وأبـت أم المقتدر رغم الإيـذاء والبطش أن تعترف، وإذا بالقاهر يدعو العلماء وأهـل الرأي ويخرج إليهم أم أخيه، وزوج أبيه المعتضد ليشـهد عليهـا أنها قد حلت أوقافها، وأباحت بيعها والتصرف فيها. ومرة أخرى وقفت أم المقتدر صامدة أمام القاهر وأبت أن تقر تصرفه، أو تشهد من جاء من أهل العلم، على أنها حلت أوقافها وقالت إنها لا تملك ذلك، فهي

موقوفة على جهات البر والإحسان وعلى الضعفاء والمساكين.

وبالرغـم من الموقف الدقيق الذي وضعت أم المقتدر فيه أمير المؤمنين القاهر أبى أن يسـلم بالهزيمة، واستمر في جولته، وقد حلا له النضال ضد السـيدة التـي ناضلت، وثبتت وظلت تناضـل وتكافح طوال عهدي أبيـه وأخيه، حتى وصلت إلى ما لم تصل إليه امرأة من قبل، وأعلن بقوة مكانته ما رفضت هي إعلانه، وجرّدها من كل ما كانت تملك.

ومر عام على مقتل المقتدر، الذي عرفت أمه مكانته بعد قتله، وعرفت أنها هي الأخرى قد قتلت يوم قتل، مر عام بشهوره وأيامه، والصراع على أشـده بين القاهر وأم المقتدر حتى شـاء الموت أن يضع النهاية ويسدل السـتار، فماتت أم المقتدر، وقد اشـتدت بها العلل وأثر في قواها هول التعذيب والإيذاء اللذين أنزلهما بها القاهر، وطوى الموت صفحتها المليئة بأغـرب الأحداث، لتكـون ذكرى للذاكرين وعبرة لمن ألقى السـمع وهو شهيد.

زبيدة «أم جعفر» *

أعوام سعيدة هانئة، تعد على أصابع اليد الواحدة، كانت قد مرت على إنشاء بغداد الشامخة العظيمة التي بناها أبو جعفر المنصور، لتكون عاصمته وحاضرة خلافته.

خمسة أعوام مرّت منذ إنشاء بغداد، وإن المنصور اليوم وهو في «قصر الذهب» ليسمع ضجة بعيدة وجلبة تشمل أبهاء القصر ودهاليزه وطرقاته، ثم تتعالى في آثارها همهمة وصيحات فرح وتبريك.

راح أبو جعفر المنصور يسائل نفسه عما يمكن أن يكون قد حدث اليوم في قصر الذهب.

وأي أنباء سعيدة أتاه عماله ساعين إليه بالبشرى، ولم يطل أمير المؤمنين أمد التساؤل إذ طرق الباب حاجبه بعد لحظات ليحمل إليه بشرى ميلاد حفيدته، وأولى بنات ولده جعفر.

وملأ أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور فم حاجبه بالذهب لقاء هذه البشرى التي جاءه بها، ثم راح يستعد لينتقل فوراً من قصر الذهب إلى قصر الخلد ليرى حفيدته ويباركها ويتمنى أن تكون كما تصورها أن تكون.

ووصل المنصور إلى قصر الخلد ثم أسرع في غمرة فرحته إلى حيث كانت الصغيرة الغالية «أمة العزيز».. فمال عليها يقبلها ثم حملها بين يديه وراح يتطلع في محاسنها وهو سعيد، إذ قد جاءت على الصورة التي

* العربي - العدد ١٥٥ - أكتوبر ١٩٧١م

تمناها تماما! وإذا به يسأل عن اسم الوليدة، فلما قيل له: إنهم تخيروا لها اسم «أمة العزيز» قال: بل سموها «زبيدة» فهي كما ترون بضة نضرة فيها حسن لم يعهد من قبل على مثيلاتها من الصغيرات.

فسموها «زبيدة» كما أراد جدها،ثم كنّيت بعد ذلك باسم «أم جعفر».

وهكذا، وفي مراتع العز والجاه درجت الصغيرة ثم شبت ونمت وترعرعت على خير ما تمناه لها أهلوها فعهدوا بأمر تربيتها وتثقيفها وتلقينها مبادئ الدين إلى فقهاء لهم مكانتهم، فراحت تتزود منه بما جعل مداركها تتسع وجعل لها نظرة فاحصة ورأيا ثاقبا تميزت به على الرغم من صغر سنها.

كانت زبيدة تشعر وهي طفلة أنها شيء عظيم في عالم عظيم، وأنه لكي تستمر في مدارج العظم والسمو عليها أن تتحلى بالتواضع والكرم، وتغرس في أحناء القلوب حبها.

ولقد أحس أهلوها بما كانت تفيض به نفسها من آمال وأحلام، فراحوا يعدون لها العدة ويمهدون لها الطريق لتصل إلى حيث تريد.

ولما توفي جدها المنصور وتولى بعده عمها «المهدي» لم يقصّرْ أبداً في رعاية بنت أخيه زبيدة فأنزلها خير منزل وأعدها لتكون شريكة لحياة ولده «هارون».

كان صدرها يجيش بالآمال الجسام، وكانت تتطلع ولطالما تمنت لو أنها كانت رجلا، إذن لعرفت كيف تروض الزمن وتجعله عبدها المطيع.

ولكن الله أرادها أنثى! وإنها لتحني رأسها أمام هذه الإرادة وهي تؤمن في قرارة نفسها أن الأنثى إنما خلقت لتؤدي أخلد وأنبل وأعمق الأعمال في تاريخ البشر، إذ كانت هي البانية وهي الراعية وهي مصدر الحنان وهي سر الوحي وروح الإلهام.

كانت زبيدة تتمنى.. وكانت أمانيها تتعاظم وتتعالى متسامية نحو آفاق بعيدة، ولكنها لم تكن لتحب التمادي في الخيال ولا الإفراط في إسلام أفكارها إلى مجرى التخيلات، فكانت تقف بهذه الأماني الغالية عند حد محدود، وكانت ترى أن البداية الحقة لن تكتمل فعلاً إلا يوم يتم زواجها من «هارون» وليكن بعد ذلك ما يكون.

وخيل إلى زبيدة أن البداية الغامضة التي كانت تكمن في أنحاء خيالها

بدأت تتجسد ذات يوم وقد خرج عمها المهدي لحرب الروم، وخرج معه ولده الرشيد ليخوض إلى جانب أبيه نيران هذه الحرب الضروس، لتأديب الروم وإيقاف مطامعهم عند حدود يجب ألا يتعدوها، فلا يجرؤ جريء منهم بعد ذلك على مهاجمة التخوم العربية وإشاعة الفوضى والسلب والنهب فيها، وكأنه ليس على العرب ولا على وطنهم الكبير راع أمين وحارس يقظ يقف لأولئك الروم العادين بالمرصاد.

خرج أمير المؤمنين محمد المهدي إلى حرب الروم ومعه ابنه هارون وقد أحست زبيدة أن اليوم المرجو قد بدأ فعلاً مع هذا الخروج، وأنه سيقدر للأمنية الغالية أن تتحقق ولو مع بدايتها على الأقل، خاصة وقد حالف النصر الجيش العربي الذي سار من فتح إلى فتح وجحافل الروم تندحر أمامه في كل موقعة كانت تتصدى له فيها.

ووافقت «إيرين» ملكة الروم أمير المؤمنين المهدي على الجزية والخضوع، واعتذرت عما سلف، وتعهدت بعدم العودة إلى ما كان السبب في قيام هذه الحرب الضروس، وعاد أمير المؤمنين مع ولده هارون إلى بغداد التي خرجت تستقبل الفاتح الظافر والجندي العربي الغالب الذي أيده الله بنصره، وأعز معه مكانة ولده هارون، فقربه إلى القلوب وجعله فارساً مغواراً من فوارس العرب كانت تشخص إليه الأبصار وتتعلق عنده آمال الأجيال القادمة التي كانت تأمل على يديه الخير كل الخير، خاصة وقد تمرس بفن الحرب وتتلمذ على يد أبيه المهدي العظيم.

وبدأ الضباب ينقشع عن البداية التي تصورت زبيدة مقدمها وقد بدأت تبين معالم اليوم المرجو، وإذ بالحالمة تفيق على الحقيقة وقد أبى أمير المؤنين المهدي إلا أن يعزز الأفراح التي شملت البلاد بفرحة كبرى أسعدت قلب أحب الناس إليه، قلب زبيدة بنت أخيه جعفر وقلب ولده هارون الرشيد... فزوجهما في حفل رائع زفّت فيه العروس إلى رجل أحلامها الرشيد وكان ذلك عام ١٦٥ الهجري.

وأحست زبيدة بأن أحلام الأمس الهانئة قد بدأت تتصاغر أمام الحقيقة التي بدأت تعيش فيها يوم تزوجت هارون الرشيد! وأحسّت أن اليوم الذي تمنته قد وقف أمامها وفي موعده المحدد الدقيق.. اليوم الذي ستعمل فيه وتعمل.

ولن يكفيها أبداً أن تكون شريكة الرشيد فحسب، بل عينه التي ترقب، وأذنه التي تسمع ويده التي ترتفع.

وبالرغم من أن هارون الرشيد لم يكن ولي عهد المهدي كانت زبيدة تؤمن بأن هناك غدا مشرقا ينتظر هارون، وأن دلائل هذا الغد وبشاراته طالما تبدت في رعاية المهدي لهارون دون ولده الأكبر «الهادي» حتى لقد قرب هارون على الهادي وخصه ببره وعطفه والكثير من أسراره، واعتمد عليه في عديد من أخطر وأدق أمور الدولة.

والغريب أن إحساس زبيدة بأن الغد سيكون لهارون دون أخيه بقي، بالرغم من أن أخاه قد ورث أباه بعد موته وأصبح أميرا للمؤمنين، ولكن زبيدة على الرغم من ذلك لم تفقد الأمل، وكانت لاتزال مع كرّ الأيام تتطلع إلى مقدم الغد الذي ترجوه.

وانتهت أيام أمير المؤمنين «الهادي»، وإذا بالحظ الضاحك يسرع إلى باب زبيدة أم جعفر، ليدقه ويقول لها إن اليوم الذي طالما تخيلت مقدمه قد توقف أمامها بمواكبه وأبهته، وإنها اليوم لم تعد زوج أمير عباسيّ فحسب، بل شريكة لأمير المؤمنين هارون الرشيد!

وضحكت زبيدة ترد للحظ ضحكته، وكأنما كانت مع أصداء ضحكتها الهانئة هذه تهمس إلى نفسها همسة انتظمها حديث طويل، خيّل إليها أنها راحت خلال لحظاته تحدث هذه النفس وتوصيها وتقول لها إذا كان الحظ قد دق بابك فعلاً، فعليك أن تظلي حيث أنت، وإياك أن تقدمي على فتح بابك الوحيد لتخرجي منه إلى ما تتصورينه مجال أمانيك العذبة، ذلك لأن الخيزران أم الرشيد لم تزل في مكانها العتيد وأنها لمن الجاه والمقدرة والقوة والمنعة، بحيث تستطيع أن تسحق من يفكر في أن ينتزع من بين يديها مقود سلطانها على ابنها الباقي هارون الرشيد.

وراحت زبيدة تشرف على إدارة أملاكها وضياعها الواسعة وتمدها بالزرع والسقيا لتنتج أبهى وأنضر الثمار والغلات، ولم تقصر في الوقت نفسه في العمل بالتجارة، فكان لها نشاط ظاهر في ميادينها المتعددة، عن طريق وكلاء أخلصوا في العمل لمصلحتها وراحوا بشتى الوسائل يعملون على تنمية ثروة زبيدة الضخمة التي كانت قد ورثتها عن أبيها

جعفر بن أبي جعفر.

وحـدث ذات يوم أن أقدم أحد وكلاء أم جعفر على شـراء صفقة من الإبـل من صاحبها، ولم يعطه ثمنها في حينـه وأرجأه إلى موعد قريب يدفـع له فيه ثمن إبله، ونظرا لمكانة وكيل أم جعفر لم يسـتطع صاحب الإبـل أن يمتنع عن قبول شـروط الوكيل في تأجيل ثمـن إبله، ولما حل موعد الوفاء وذهب التاجر - وكان من أهل خراسـان - ليتسلم ثمن إبله من الوكيل كسابق وعده، عاد هذا يماطل ويسوف ويرجئ ويعتذر ويختلق مواعيـد ويحدد آجالا بعضهـا قريب وبعضها بعيـد، حتى ضج الرجل بالشـكوى ولكنه وقف موقف الحيرة ولم يعرف لمن يشكو، وعرض الأمر علـى بعض معارفـه، فنصحه بأن يقيم دعوى إثبـات دين أمام القاضي العادل «حفص بن غياث».

واسـتطاع القاضي العادل حفص بن غياث وعن طريق ذكائه وبراعته أن يحصـل على اعتـراف بمديونية أم جعفر عن طريـق وكيلها للرجل الخراساني، فكان أن أقدم أول ما أقدم على إصدار أمر بحبس وكيل أم جعفر حتى يوفي الدين لصاحبه.

وبلغ الأمر زبيدة فثارت ثائرتها واعتبرت ما حدث إهانة يجب أن يكفر القاضي حفص بـن غياث عنها بإصدار أمره فوراً بالإفراج عن وكيل أم جعفـر، ولكن القاضي أبـى.. وأبى أيضًا إلا أن يثبـت الدين والمديونية ويقـرن حكمه بموجب الدفع! فلم تجد زوج الرشـيد إلا أن تغري زوجها بعزل القاضي، فأطاعها دون أن يتحقق من الأمر أو يعرف سر ما كان.

وأسـرع رسول أم جعفر إلى قاعة المحكمة ليسلم القاضي قرار عزله، والرجـل العادل منهمك في إثبات ذلك الدين بسـجلات الدولة، وكانت حكمة الإسـراع أن يحول دون القاضي وإثبـات الدين بصفة قاطعة في السجلات الرسمية.

وأحـس القاضي بالأمر الجلل سـاعة أهلّ عليه الرسـول وناداه، فلم يجبه وجعل يرجئه ويسـرع في تحرير سند المديونية حتى أتم إثباته، ثم التفت إلى الرسـول القادم بقرار عزله وتسـلم الأمر وكأن شيئا لم يكن، ثم ترك مكانه وأسرع إلى الرشيد ليقف معه موقفاً كان حفص بن غياث أقـدر الناس على الوقوف فيه لإثبات حقه في القضاء دون تدخل كائن،

كان من كان، مهما علت مكانته في مثل هذه الأمور الدقيقة التي سوف يحاسب الله عليها القاضي ويحاسب عليها أمير المؤمنين.

وعرف الرشيد جلية الأمر، وثار وغضب، واعتذر لحفص بن غياث وراح يترضاه، وسحب قرار العزل الذي أصدره وتوسل إلى الرجل أن يعود إلى مكانه في القضاء، فمثله يجب أن يظل حيث هو ومثله من يجب عليه أن يرد الخارج على الشريعة ولو كان أمير المؤمنين نفسه، ثم أسرع الرشيد إلى زبيدة يعنفها وكان له معها موقف اعتذرت فيه وتراجعت، وأسرعت تترضى القاضي العادل بدورها، وأمرت بدفع دين التاجر الخراساني، وحرمت على وكلائها بعد ذلك أن يبخسوا الناس أشياءهم أو أن يشتروا باسمها بضائع يرجئون دفع قيمتها.

ولما خلا الجو من الخيزران بعد أن وافاها أجلها المحتوم،لم تشعر أم جعفر وحدها بأن السلطان قد وافتها مواكبة، وأن السيادة والمجد أصبحا ملك يمينها، بل شعر بذلك قبلها أمير المؤمنين هارون الرشيد نفسه، إذ كان يرى في أمه سحابة داكنة تحجب عنه ممارسة كل سلطاته، وتقحم نفسها على شتى أموره وتبرم ما لا يريده وتفسخ ما يريد.

ووجدت زبيدة أن المسرح قد خلا لها وحدها فبرزت فيه بمواهبها العديدة وذكائها النادر وكرمها الفياض، فقد كانت تجزل العطاء وتسرف في منح الهبات رغبة منها في جمع القلوب حولها وربطها إليها برباط التقدير والحب والاحترام.

كانت لبقة، وكانت ذكية، وكانت ذات عقل راجح، عرفت به كيف تملك أعنّة الرشيد زوجها، حتى كان لا يطيق فرقاها وكانت تحلو له دواما صحبتها ومجالستها.

وقد أنجبت أم جعفر لزوجها الرشيد «محمدا الأمين» الذي كان بلوغه مبلغ الشباب من الأسباب الخطيرة التي حولت تفكيره إلى المجال السياسي، فراحت تراقبه في حذر وفطنة وذكاء لتتعرف مسارى تياراته المتباينة لتصل بها وبولدها إلى حيث كانت تريد.

وكان أكره ما تكره زبيدة أن يصرف الرشيد بعض اهتمامه وعطفه عن ولدها الآخر «عبدالله المأمون».

كانت زبيدة تشعر بكراهية الوزراء البرامكة، الذين عزّت مكانتهم

وعظم نفوذهم في دولة الرشـيد، حتى صار جعفـر بن يحيى البرمكي وزير الرشيد وكأنه أمير المؤمنين غير الرسمي، لا يبرم أمر إلا بموافقته، ولا تقـر كبيرة من الأمور إلا وهو راض عنها، وكأن الرشـيد هو الرجل الثاني في الدولة بعد جعفر البرمكي.

وبدأت زبيدة تعمل، وبدأت توغر صدر زوجها على البرامكة، بأسانيد لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها.

وبدأ الرشـيد يرى بعيني زبيدة ويحس بقلبها ويستجيب لمشاعره التي كانت صدى لمشاعر كراهيتها للبرامكة، فرأى ما لم يره من قبل.

وهاله أن ولاته وقادة جيشه وكبار رجال دولته كانوا في أغلب الأوقات ينصرفون عن بابه إلى باب وزيره، كما رأى أيضا كيف أن الأموال والهدايا والهبـات كانت ترد محملة من الأمصـار لتذهب إلى بيت جعفر دون أن يفكر من أرسـلوها في إرسـالها إلى بيت المال أو إلى ولي أمرهم أمير المؤمنين الرشيد.

وتنفسـت زبيدة الصعداء يوم فتك الرشـيد بالبرامكة وقضى عليهم، وبدأت تشـعر عن إيمان عميـق أن الرياح قد واتـت ولدها الأمين وأنه أصبح اليوم وحده وبـلا منازع في قلب أبيه، وأن المأمون قد فقد دعاته وأنصـاره ومن كانوا يروجون له ويشـيدون بذكائـه ويتحدثون عن كرمه وجـوده وفضله، حتى لقد بلغت الجـرأة ببعضهم أن كانوا يرمون الأمين وهو ولي العهد بالغباء والغفلة والجبن والتخاذل، وأنه دون المأمون في كل شـيء.. وأنه من الجرم في حق النبوغ أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون لأنه أسن منه وأنبغ!

وصار الأمر إلى ولدها محمد الأمين الذي بويع بولاية العهد في حياة أبيه وبويع من بعده أخوه المأمون الذي كان يحكم إقليم خراسان.

ولقد شـاءت الظروف بعـد أن أصبح محمد الأمـين أميراً للمؤمنين أن يخلـع أخـاه المأمون عن الولايـة لتكون لابنه من بعـده، وإذا بالأمور تضطرب، وإذا بالفتنة التي اسـتنامت طويلاً تخرج من مكمنها وتكشف عن وجهها، وإذا بالمأمون ينطلق كالإعصار الجارف من خراسـان وينتهي الأمر بمقتل الأمين.

ولمـا مات الأمين مقتولا ودانـت الدنيا لعبدالله المأمـون بدأت زبيدة

أم جعفـــر تفيق من الحلم الذي كانت تعيش فيه وراحت تنظر في أســـى وتحسّـــر إلى صـــروح أمانيها وقد تهاوت واندثـــرت، فعرفت وبعد فوات الوقـــت أنها كانت تبني قصوراً على الرمال.. قصوراً من ورق لم تلبث أن اكتسحتها رياح الحوادث وذهبت أباديد.

كانـــت زبيدة قد وقّعت في ظهر كتاب ورد إليهـــا من أحد عمالها: أن أصلـــح كتابك وإلا صرفناك عن عملك. فتأمله ذلك العامل فلم يظهر له فيه شيء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه الدعاء لها وأدام كرامتك. فقال: إنها تخيلت أنك دعوت عليها، فإن كرامة النساء دفنهن. فغيّر ذلك وأعاد الكتاب إليها، فقبلته.

ولم تقصر زبيدة عطفها على الشـــعراء والمغنين والأطباء بل شملت به الفقراء والمساكين وأرباب التقوى والصلاح والعلماء. وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة ورد عشـــر القرآن وكان يسمع في قصرها دوي كدوي النحل من قراءة القرآن.

وكان الكرم مـــن أظهر صفاتها، وكانت لها على جهات البر أياد وآثار، فقد أنشـــأت من مالها الخاص مســـجداً، كما أنها اشـــتركت بمالها في عمارة عديد من الأماكن في البلد الحرام، وإليها تنسب عين الماء الجارية التي تعرف باسم «عين زبيدة».

إن التاريخ حين يروي سيرة زبيدة يقف أمامها مطأطئ الرأس مأخوذاً بالجلال والكرم والشجاعة والنجدة والتمسك بالعروبة وبعد النظر، فقد كانت تقية نقية، ســـباقة إلى المكارم، تسارع إلى الخيرات وتمد اليد في ســـخاء إلى كل مـــن كان يطلب نداها من أصحاب الحاجات، فأســـهمت في كل ميدان من ميادين النشـــاط في دولة الرشيد حتى استطاعت عن جدارة أن تخلد اســـمها في صحائف العصر العباســـي بمداد من ذهب، فقد كانت مسلمة من أنبل وأعظم المسلمات الخالدات.

صبيحة ملكة قرطبة *

كل شيء هناك كان الجلال يتوّجه. والجمال يضفي عليه الرواء. وكيف لا يكـون الجمال الفريد طابع صاحبـة «الزهراء» التي أنشـأها أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر فـي عاصمته قرطبة ببلاد الأندلس، وأقام فيها قصوره الزاهرة الشـامخة التي أجرى حواليها الماء من كل جانب فجعلها متعة العين وبهجة الوجدان.

لقد شـاد الناصر في بلاد الأندلس ملكاً عربياً ، قل أن يجود الزمان بمثلـه، وتـرك «للحكم» ولده من بعـده تراثاً أحس الخليفة الشـاب أن واجبه الأول أن يكون حارسـه المتيقظ الأمـين الذي ينبغي ألا تغفل عنه عينه. وكما حصن الناصر حدود بلاده وقواها بجيوشـه، كذلك سار ابنه «الحكم» في الطريق نفسه حتى عم الرخاء بلاد الأندلس كلها وتوحدت بقاعها ومقاطعاتها جمعاء، ولم يبق في أيدي أمراء الإقطاع من الفرنجة سوى مقاطعتي «ليون وكتالونيا».

وبالرغـم من هذا، لم يغفل عنهما بل كان يترقب الفرصة للانقضاض ليتم طرد الفرنجة نهائياً من الأندلس.

إن أميـر المؤمنين الحكم بن عبدالرحمن الناصر هدّأ من هذا الإجهاد في سبيل توطيد أركان الملك، لينصرف بعض الشيء إلى هوايته المحببة، وهـي القراءة والاطلاع، إذ كان شغوفاً بالعلم مقبلاً عليه، وقد كفل له أبوه

* العربي - العدد ١٥٣ - أغسطس ١٩٧١م.

العظيم كل وسائل العلم وأسبابه، فزوّد له القصر بمكتبة فخمة حوت أكثر من أربعمائة ألف مجلد في مخلف العلوم والفنون والآداب.

وتعوّد أن يقتطع من أوقات عمله بضع ساعات، ينصرف فيها وحده إلى مكتبة القصر للدراسة والاطلاع، وكان تخير مكانا قصيا في نهاية قاعة المكتبة، فجلس فيه وقد بعد بأفكاره وتصوراته عن الدنيا ومن فيها.

وذات صباح عبق. خلا إلى نفسه في هذا المكان المنعزل بقاعة المكتبة، في تلك اللحظات الوادعة، تسللت إلى داخل المكتبة جارية رشيقة القد، حلوة التقاطيع، ساحرة الملامح، ثم توقفت أمام صيوان يحوي النادر من كتب الأدب وخير ما جادت به قرائح الشعراء، وكأنها تعودت أن تفعل ذلك كل يوم.

وفتحت الجارية كتاباً وراحت تقلب صفحاته.

وراح يتأملها وهو يسائل نفسه عمن تكون هذه الصبية الحسناء، إنه لم ير هذا الوجه الصبوح قبل الآن، وأن أشد ما يثير دهشته أن يجد بين ساكنات قصره العديدات من يهمها الاطلاع، فمن تراها تكون هذه الفتاة الغريبة؟!

وأعجب في نفسه بهذه القارئة وتمنى لو أنها كانت إحدى أميرات قصره. وكم أحب أن يفاجئها، ولكن تواضعه أبى عليه ذلك، إذ أحس بغريزته، ومن طريقتها في التسلل، أن الفتاة وصلت إلى قاعة المكتبة وهي واثقة أن أحداً لم يرها، ويجب أن تظل عند ظنها هذا حتى تنتهي من قراءة المجلد الذي راحت تتصفحه في شغف ونهم كبير.

وعاد إلى قراءته وحاول جاهداً أن يصرف أفكاره عنها بعد أن صرف عينيه وفي غفلة منه، وبينما هو منصرف إلى بضعة سطور استرعت انتباهه، عاد ينظر في سرعة، فإذا بالفتاة قد اختفت تماماً وبالخفة نفسها التي جاءت بها!

ووجد الحكم نفسه يترك أكداس كتبه ويسرع إلى حيث كانت تقف الصبية الحسناء، فوقف في المكان نفسه، وراح يستعرض المصنفات والأسفار ليعرف في أي كتاب كانت تقرأ، ولكنه لم يستطع أن يعرف ذلك أبداً، فقد أعادت الشابة كل شيء إلى أصله بطريقة جعلت الحكم يوقن

أنها كانت مدربة على مثل هذا العمل، وأنها زاولته مراراً قبل اليوم، وأنها ولاشك قد تعودت التردد على مكتبة القصر.

وارتاح إلى هذه الفكرة التي وصل إليها وقد استقر بخلده أنها ليست غريبة عليه، وأنها لابد ستعود إلى المكان نفسه إن لم يكن غدا فبعد غد، وإن لم يكن بعد غد فبعد أسبوع، أو شهر، أو عام بأكمله، المهم أنها ستعود ويراها، ومر صباح وصباح، ثم صباح ثالث وعروس الحلم الجميل لم تحضر.

وفي الصباح الرابع، وقبل الموعد المبكر الذي تعوّد أن يدخل فيه إلى قاعة المكتبة دخل كعادته، وإذا به يراها أمامه!!

وتقدم من الفتاة التي أجفلت ساعة رأته، وأسرعت فوضعت الكتاب الذي كانت تحمله بيدها على نضد أمامها، ونكست رأسها وهي تنتظر اللوم والتقريع، لأنها اجترأت ودخلت مكتبة القصر دون استئذان، وإذا بالخليفة العظيم يتقدم منها وقد تهلل بالبشر وجهه، فعاودتها بعض ثقتها وهدوئها، وأحست بروح من الاطمئنان داخلت نفسها مع كلماته الوادعة وهو يسألها ماذا كانت تقرأ.

وإذا بها تقول باستحياء: إنها كانت تطالع كتاباً عن شاعر النبوة «حسان بن ثابت».

وبُهت أمام جواب الفتاة، وراعه أن تقبل شابة مليحة غضة الإهاب بارعة الحسن على مثل هذه الدراسة، وحلا له أن يختبر مدى صدقها فيما ادّعته، ولم يكد يناقشها في شعر حسان حتى كانت أسرع منه وأحسن جواباً. فأصغى إلى الفتاة وأصغى، وإذا به في النهاية يريد أن ينهيه عند هذا الحد، ليعرف من تكون تلك المتسللة الحسناء التي أثارت دهشته وإكباره وإعجابه؟!

ونكست الفتاة رأسها أمام سؤاله الذي أنزلها من سماوات كانت تحلق فيها وهبط بها إلى مستوى أصبح من اللازم عليها أن تكشف عنه، وتعترف له في صراحة أنها جارية من جواري قصره العديدات. وأنها تعيش في فيض نعمته وكريم عطائه!

وأبى الحكم أن يصدق ما سمع، فصاحبة مثل هذا العقل المتفتح الذي استنار بضوء العلم لا يمكن أن تكون جارية من جواريه العابثات

اللاهيات، وأقبل عليها يشـجعها أن تتكلـم وأن تصارحه بحقيقتها فهو يعطيها الأمان ويرحب بها في أي وقت تشـاء، وإذا بالصبية تؤكد لأمير المؤمنـين أنها جاريته ومملوكته وأنه هـو وحده صاحب الأمر والتصرف فيها، وإذا كان قد أغضبه أن تجرؤ جارية مثلها على دخول المكتبة، فهي تسأله العفو، فلن تعود إلى مثل هذه الفعلة أبداً.

وهتف مستنكراً ما سمع من الصبية، وراح يؤكد لها أنه معجب بسعة اطلاعها ويشـغفها بالعلم الذي رفعها في عينيه إلى مكانة عالية، وجعل يحاول أن يعيد إليها هدوءها ويشـعرها بأنها قد أسعدته فعلاً، وأثارت إكباره وإعجابه.

وراح يتفحـص الفتـاة في دهشـة وإعجاب وإكبار، وسـألها في نبرة المشوق إلى تعرّف اسمها، وإذا بها تقول له إنها جاريته ومملوكته الأمينة «صبيحة».

صبيحـة، إنها صبيحة فعلا، ومليحة بلا جـدال، وإن حديثها الطويل مع أمير المؤمنين جعله يكتشـف فيها ألواناً من السحر لم يرها من قبل، لا في نسـاء القصر ولا في جواريه، ووجد نفسه يردد كالمذهول هامساً «صبيحة» إنك صبيحة فعلاً، وسـوف يسعدني أن تكوني طلعة كل صباح حلو أرجوه، وأن أرى وجهك هذا دائماً.

وأجفلـت الفتاة أمام الكلمات التي وصلت مسـامعها، وراح قلبها يدق في قلق واضطراب وهي حائرة لا تدري أكان ما يسمعه حقيقة أم تراها كانت تعيش في وديان من الخيالات والأحلام.

مـد الحكم يده وأمسـك يد الفتاة التي كانت ترتعد، ثم سـار بها في هدوء خارج قاعة المكتبة.

***

شهور تسعة مرت وصبيحة تعيش في حلم وردي تمنت لو تعيش مخلدة فيه إلى الأبد!!

وإذا بأمير المؤمنين يسـمع ذات صباح أن جاريته الأثيرة قد وضعت له ابنه الأول «هشام»!

كاد يطير فرحاً بالنبأ السـعيد الذي سـمعه، وأسرع يعدو نحو جناح صبيحة، ليتأكد من صحة ما كان يسمع، ويرى حبيبة القلب وقد حققت

لــه أعز أمنيــة كان يرجوها، وهي إنجاب الوريث. ولمــا وجد أنه أمام حقيقــة ماثلة، كاد يبكــي من الفرح، وأقبل علــى صبيحة يضمها إلى صــدره مرة ويضم وليدها إلى صدره مرات ومرات وهو يردد: إن أمك لن تكون جارية بعد اليوم، بل هي زوج أمير المؤمنين وشريكته في ملك الأندلس العريق.

إن صبيحة اليوم لتشعر أنها في مكانة لم تكنها بالأمس: إنها ملكة! وملكة الأندلس بالذات!

والأندلــس جنة الله في أرضــه، كانت محوطة بالدســائس ترقبها العيون الحاقدة من فرنجة وأمراء إقطاع، وإنها لتحس بهذا وتشــعر به وتعرف أنها قد وُضعت في مكان يجب أن تكون جديرة به وأن تشــغله عن مقدرة وتفوق.

وراحــت ترقب وتدرس في تمعن الدارســة الواعيــة لتكون صاحبة الرأي السديد، وعرف لها زوجها أمير المؤمنين فضلها وذكاءها فاعتمد عليها كل الاعتماد، وراح بدوره يراقبها ليرى كيف ستفلح في إدارة دفة الأمور، حتى إذا وثق منها وارتاح إلى حســن إدارتها لم يجد حرجاً من تركها بعد ذلك لتكون صاحبة الكلمة المســموعة والأمر النافذ في كل شيء، ثم.. انصرف هو إلى هوايته السابقة وهي القراءة والاطلاع.

وبــدأت صبيحة تمارس شــئون الحكم عن جــدارة ومقدرة وتمكن، فكانــت تجتمع كثيراً بوزير الدولة عثمان بن جعفر المصحفي وتلم منه بدقائق الأمور حتى وعتها جيدًا وألمت بكل صغيرة وكبيرة.

لم تتدخل صبيحة في تصريف سياســة الدولة المدنية فحســب، بل راحت تشــرف على مســيرة الأمور الحربية، فحركت الجيوش من هنا وهناك وراحت تضاعف من عدد بعض القوات في جهات خاصة وتقلل من عددها في جهات أخرى، إذ اســتطاعت أن تعرف إلى أي الجبهات توجــه الاهتمام وإلى أي الميادين تتجه منها العين الراعية، حتى لا تدع بذلك فرصة أي فرصة «لشارلمان» وأمراء الإقطاع المتربصين أن يجدوا ثلمة ينفذون منهــا إلى تحقيق ما كانوا يطمعون فيه وهو القضاء على الملك العربي في بلاد الأندلس.

ومع مســيرة الأيام، وتعاظم شئون المسئوليات التي كان على صبيحة

أن تواجهها وتعدد مهام الدولة واتساع رقعتها، رأت الملكة الواعية الحذرة أن تستعين بكاتب سر يقوم بتحرير ما تراه ويرصد في سجلات خاصة محاضر اجتماعاتها بالوزير المصحفي، فكان أن عرضت رغبتها هذه على الوزير فوافقها عليها وشجعها على الإسراع في تنفيذها، وإذا بها تطلب من بعض خاصتها أن يجدوا لها الرجل المناسب الذي تعتمد عليه فيما كانت تعتزم إتمامه من أعمال.

وهكذا دخل «محمد بن عبدالله بن علي» إلى قصر أمين المؤمنين بضاحية الزهراء ليعمل في خدمة الدولة، وليكون تحت تصرف الملكة ينفذ ما تكله إليه من مهام.

ومحمد بن عبدالله بن علي يوم دخل القصر في قرطبة كان يخطو نحو الثالثة والعشرين من عمره، شابا ممتلئاً بالقوة، يفيض قلبه بالأمل الذي أحس أنه سوف يحققه ويحقق طموحه أيضاً، وقد بدأ يسير هذه الخطوات ليكون في خدمة الملكة.

كان واسع الأفق، جيد الإنشاء، فرأى بثاقب بصره أن خير عمل يستطيع أن يقوم به ليساعد نفسه على تكاليف الحياة الباهظة أن يقوم بتحرير المظلمات التي كانت ترفع من أصحاب الحاجات إلى أمير المؤمنين الحكم، فبز أقرانه في هذا الميدان وفاقهم جميعاً وعرف في قرطبة كلها بجودة إنشائه، وسرعة إصابته للهدف الذي كان يرجوه الشاكي في أسلوب متقن يسترعي الانتباه.

ووجدت الملكة صبيحة فيه غايتها التي كانت ترجوها، وأعجبها فيه وفاؤه وشديد إخلاصه وتفانيه وأكثر من هذا تفهمه الدقيق لكل صغيرة وكبيرة كانت تعرض في اجتماعاتها مع الوزير المصحفي، حتى لقد كان يذكرها هي ووزيرها بما كان من أمور قررت في جلسات سابقة ويشرح دقائقها، ثم.. وفي هدوء بدأ يتجاسر على عرض وجهات نظره التي قبلت على الفور وجعلت نظرة الملكة تتحول إلى الشاب وترى فيه عوناً يجب ألا يهمل.

ومرت الأيام، وتلتها شهور بعد شهور، ونجمه يعلو ويزداد تألقاً والتماعاً، حتى بدأ يطغى على غيره من النجوم، فلا عجب أن بدأت الألسن تلوكه وتتحدث عنه، وبدأ كارهوه ينظرون إليه نظرات الريبة والحسد، وهو عن

الجميع لاه غير مهتم بما كانوا يتقولون عليه، إذ كانت له غاية واحدة هي أن يظل في الطريق الذي أحبه ليصل إلى تحقيق أمانيه التي كانت دائرة أفقها تتسع مع الأيام.

لقد خبر القصر ومن فيه، وعرف أن هناك أكثر من حزب وأكثر من فئة تتطاحن على السلطة من وراء ستار، وتسعى كل من هذه الفئات المتنازعة إلى الإطاحة بشريعتها ليخلو لها الجو.

ولكن الجميع كانوا يخشون صبيحة ويخشون بطشها، إذ خبرتهم جميعاً قبل أن يعرفهم محمد بن عبدالله بن علي، ومن أجل هذا لم يتجاسر واحد منهم على أن يحاول التقرب إليها بسعاية أو وشاية.

وأمام هذا الوعي المتيقظ الذي تميزت به صبيحة، بدأت مكانة محمد بن عبدالله بن علي تتوطد وتزداد رسوخاً، وقد رأت الملكة إمعاناً منها في القضاء على مؤامرات الحاسدين وإسكاتا لأصواتهم، أن تعلي من مكانة كاتبها وكاتم أسرارها، فكان أن عينته وكيلاً عنها يشرف على أموالها وضياعها. ثم أبت بعد هذا إلا أن تعزز هذه المنحة الكريمة بمنحة أخرى إذ أقنعت زوجها أمير المؤمنين أن يكل إليه مباشرة شئون أملاك ولي العهد، وبعد هذا كله، أوحت إلى أمير المؤمنين أن يجعله على خزائن الأندلس لعلمه الواسع بالشؤن المالية.

وبالرغم من أن الملكة صبيحة قضت نهائياً على أحلام الوشاة الطامعين من المماليك وبعض رجال الحاشية، فإن سعاياتهم لم تكف، ونيران حقدهم لم تخمد لها جذوة على محمد بن عبدالله بن علي الذي كان من الذكاء وسعة الأفق وواسع الحيلة بحيث استطاع أن يمتلك القلوب جميعاً برقته وحسن صلاته بالناس، ومحاولاته العديدة في التقرب بهداياه السخية إلى كبار رجال الحاشية.

وتعددت وكثرت هدايا محمد لمن كان يرغب في تدعيم صلتهم به من أصحاب الحل والعقد، وعن طريق هذه الهدايا الكثيرة الباهظة الثمن بدأ حساد الشاب الملحوظ المكانة يهاجمونه، فإذا بهم يبعثون الشكاوى إلى أمير المؤمنين يتهمون فيها محمداً في نزاهته، ويؤكدون له أن رجلاً له مثل راتبه المحدد لا يمكن أن يتسع إيراده لتقديم مثل هذه الهدايا.

واطلع الخليفة على الشكايات المكذوبة ولم يلبث أن بدأ الشك يساوره

في أمر محمد بن عبدالله بن علي، وراح في وحدته يستعرض تصرفات الشاب، وإذا به يعجب كيف سكت عليه طوال هذه المدة ولم يلاحظ كثرة نفقاته وبذله وعطاياه، ثم ما لبث أن أنحى على نفسه باللائمة لأنه فرط ولم يراقب حيث يفرض الأمر المراقبة والحذر الشديدين، وعليه أن يفاجئ محمداً ويدهمه في مقر عمله وسجلات حساباته مفتوحة قبل أن تمتد إليها يد التحوير والتزوير، وكان أن طلب من وزيره المصحفي أن يعينه على القيام بهذه المهمة الدقيقة، وأن يحاول عند المراجعة أن يستكملها من كل نواحيها حتى لا تفلت منهما أي صغيرة مهما صغرت، حتى يستطيع أن يلقن الخائن درساً يكون عبرة لغيره، ويكون فيه بعد هذا ما يجعل الجميع يفهمون أن أمير المؤمنين «الحكم» متيقظ لكل شيء، وأنه لا يفوته حركة ولا عمل من أعمال رجاله وخاصة من يشذون منهم عن الصراط المستقيم.

وفوجئ محمد بن عبدالله بن علي وهو في مقر عمله بدخول أمير المؤمنين والوزير المصحفي عليه، ثم بطلبهما العاجل أن يقدم ما لديه من حسابات، فأسرع الشاب في هدوء يقدم ما طلباه معززاً بالمستندات والدليل والبرهان.

ووجد أمير المؤمنين نفسه أمام رجل من أخلص رجاله، يتميز فوق ذكائه بالأمانة والدقة ومراعاة الله في كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته، وإذا به يقدم عليه شاكراً، ويأبى إلا أن يرد على الشامتين الحاقدين ألسنتهم الثرثارة إلى الأبد، فكان أن رفع درجة كاتب الملكة وجعله حاكماً عاماً لإقليم إشبيلية.

وأسرع محمد بن عبدالله بن علي بالسفر إلى مقر عمله الجديد حيث راح يباشر سلطانه بكل حزم، فكان الحاكم الواعي الأمين الساهر على صوالح الدولة والذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة.

ووصلت أنباء حاكم إشبيلية الجديد إلى أمير المؤمنين الذي حملها بدوره إلى صبيحة، وفي حوار دار بينهما وجدت الملكة أن هناك بعض الأمور الخاصة الدقيقة في حاجة إلى من يباشرها ويرعاها، ولما كانت تثق في محمد بن عبدالله ابن علي وكذلك كان يثق فيه أمير المؤمنين، فقد اتفقا سوياً على أن يكلا إليه حل هذه الأمور الدقيقة، فبعثا بكتاب

سري أبلغاه فيه أن يسافر إلى مراكش في رحلة تستغرق بضعة أشهر، يعود بعدها ليرفع إليهما تقريراً بكل ما عرض له، على أن يكون له في ذلك رأي حاسم، ربما وجدا فيه المخرج والحل الوحيد، خاصة وقد درس المشكلة بنفسه وعرفها عن كثب وتتبع أطوارها تتبع الخبير.

وأدى الحاكم الشاب مهمته على خير ما كان يرجى منه، ثم رجع إلى قرطبة، فإذا به يجد كل شيء قد أصبح معداً، لا لعودته إلى إشبيلية بل لبقائه في قرطبة وإلى الأبد، إذ رأى أمير المؤمنين وملكته أمام إخلاص محمد أن يكلا إليه أمر رعاية ولي العهد «هشام» وتثقيفه وتبصيره بكل الأمور التي يجب أن يلم بها عندما يحين الوقت ويصبح أمير المؤمنين.

وبدأت السنون تمر، وبدأت معها سلسلة من الأمراض تهاجم أمير المؤمنين فاعتلت صحته وساءت حالته، وأحس لا بالضعف والخور بل بدبيب الفناء يدب في أطرافه، ووجد أن الحكمة توجب الإسراع في التفكير لا في أمر نفسه بل في أمر ابنه هشام من بعده، فهشام حدث صغير، ولو مات أمير المؤمنين فجأة، فإن عرش بلاد الأندلس سوف يكون من نصيب شقيقه «المغيرة» وأمير المؤمنين يحب ويتمنى أن يكون العرش لولده، وإنه ليسارع ويصارح الملكة صبيحة بكل هذا ويطلب رأيها الحاسم السريع.

وأشارت صبيحة الذكية البعيدة النظرة بضرورة اتباع خطة حكيمة، وهي استدعاء أمراء البلاط وأشراف الدولة وكبار الحاشية وحكام الأقاليم إلى مجلس عام يرأسه أمير المؤمنين، فيعرض عليهم ولاية العرش من بعده ويطلب إليهم التصديق على أن تكون لابنه الصغير هشام، ثم يعزز هذا العرض بأن يطلب منهم في حالة الموافقة على رأيه أن يحرروا وثيقة بذلك، وأن يمهروها بتوقيعاتهم إقراراً منهم بكل ما ذكر.

وكانت خطة الملكة صبيحة خطة بارعة ماكرة، فأمير المؤمنين حين يفرض مثل هذا الأمر لن يجد من يجسر على معارضته.

وأسرع أمير المؤمنين الحكم ينفذ خطة زوجته، وانعقد المجلس الذي وافق بالإجماع على الرأي الذي عرضه أمير المؤمنين، ولم يكد ينفض هذا الاجتماع التاريخي حتى أسرعت صبيحة الذكية تنفذ بقية خطتها،

أمرت بنسخ عدة صور من هذا الإقرار الذي ثبت في سجلات القصر الرسمية، ثم وزعته على حكام الأقاليم، ليكونوا على علم بما اتفق عليه الرأي بخصوص هشام بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر.

وذاع النبأ في الأندلس كلها وعرف العامة قبل الخاصة أن أمير المؤمنين الحكم قد أخذ البيعة لولده، فباركوا هذه الخطوة التي سوف تضمن الاستقرار للبلاد والهدوء للرعية.

ومات الحكم بن عبدالرحمن الناصر أخيراً، وكانت صبيحة وحدها إلى جانب فراشه رابطة الجأش ثابتة الجنان.

وهكذا أصبحت صبيحة كل شيء في الأندلس، أصبحت المسئولة عن أقدار هذه الدولة العربية الكبيرة، فكان من ألزم واجباتها أن تبادر إلى تصريف الأمور، فعمدت أول ما عمدت إلى تطهير جو القصر من الدسائس والدساسين، وأسرعت تبعد الطامعين وأشباههم ومن يتبعونهم، حتى يكون الجو نقياً صالحاً للعمل بعد ذلك، ثم اتجهت إلى الشعب فأقبلت تدرس أموره وتتعرف مطالبه، لتهب له ما كان يبغى وتحقق كل ما كان يريد، فلا عجب أن أجمع الشعب على حبها والالتفاف حول عرشها.

وعلمت صبيحة بعد هذا أن أمراء الإقطاع من الفرنجة المتربصين بملك العرب في الأندلس ظنوا أن الفرصة قد أصبحت دانية لهم، وأن الأمور لابد قد اضطربت بعد موت الحكم، وأن إسناد إمارة المؤمنين إلى ولده الصغير قد أضعف الدولة وجعلها في موقف لا تستطيع أن تثبت فيه أمام هجوم العدوان إن أراد أن يزلزل سلطان ذلك الصبي الصغير الذي كانت تصرف أموره امرأة، ظنوا أنها لن تكون في ثبات زوجها، ولم يدر بخلدهم أنها كانت ومنذ أصبحت صاحبة الحظوة في البلاد هي القوة الفعالة والأداة المحركة لكل الأمور.

وبدأت صبيحة تستعد لمواجهة الخطر الخارجي، وقررت أن تكون حاسمة في تصرفها، سريعة في تنفيذ الرأي الذي كانت ترى فيه الصواب، فكان أن عينت رجلها وكاتبها محمد بن عبدالله بن علي قائداً للجيش الذي وجهته إلى حرب الفرنجة والقضاء على أطماعهم.

وخرج الجيش العربي تحفه آمال شعب ورجاء أمة.

خرج الجيش يقوده محمد بن عبدالله بن علي الذي صحبه الحظ في كل أطوار حياته وأبى إلا أن يسير معه وهو يخطو هذه الخطوة الحاسمة ليدعم لنفسه مكانة جديدة ومركزاً مرموقاً كان يتوق إليه، وسار إلى ميدان اللقاء، واستطاع أن ينتزع النصر من أيدي أعدائه، وأن يحطم أحلامهم ويقضي على أمانيهم.

وعاد القائد المنتصر إلى قرطبة تسبقه أنباء انتصاراته، عاد يحمل الأسلاب والغنائم وبنود العدو التي حطمها، فارتفعت مكانته في قلب الملكة وفي قلوب الشعب ونال الحظوة، ومن هنا بدأت مطامعه الحقة تصحو من بعد غفوة، وتتجه إلى ناحية جديدة، لعله خشي قبل انتصاره هذا أن يطرقها أو يقترب منها.

لقد قام بدور الكاتب المتواضع في البلاط، فاستطاع أن ينال الحظوة والمكانة ويثبت جدارته ومقدرته وتفوقه، ثم قام بعدها بدور مدير الشئون المالية للملكة وابنها، فكان عند حسن الظن به، ثم ولي حكم إشبيلية، فكان الحاكم الجدير بالثقة الشديدة الولاء لسيده، ثم خرج في سفارة مهمة إلى مراكش أنجزها على خير وجه، وعاد بعد هذا ليجد طريق المجد أمامه مفروشا، فلماذا لا يسير نحو تحقيق أحلامه؟ لماذا لا يكون وزير الدولة الأول ورجلها الذي تلقى على كاهله أدق الأمور وأخطرها، ليتصرف فيها بحكمته؟!

وخطا الشاب الطموح خطوته الجريئة نحو الغاية التي يرجوها، واستطاع بقوة مكانته التي حققها مجهوده وجهاده أن ينال مكانة المصحفي ويصبح وزير الدولة الأول.

ولكن هل وقفت أطماعه عند هذا الحد واكتفى بما نال؟

ذلكم كان السؤال الذي كان الشاب وحده يعرف الجواب عنه، وقد عرف كيف يخفيه في أعماق نفسه التي كانت تضطرم بالأماني وتتوهج بالآمال، ولم يعد يكفيها ما كانت تصل إليه بل كانت تتطلع يوماً بعد يوم إلى مزيد من المجد والسؤدد والفخار.

واتجه الشاب الطموح إلى الشمال الإفريقي الذي عاد سلطانه إلى بني الأغلب وقد انتقل الفواطم إلى مصر، ورأى أن يربط قدره بقدر تلك البلاد، وأن يتقدم لخطبة أسماء ابنة الأمير الأغلبي زعيم القبائل هناك،

وسـيد العشـائر والحاكم المتصرف صاحب المجد والسلطان، ولما وجد الإصغاء والموافقة من الأمير الأغلبي، أسرع يطلب الإذن من الملكة لتقره على ما فعله وتبارك هذا الزواج.

وكانت صبيحة عند حسـن ظن رجلها بها، وقد أسعدها أن تسمع منه هذا النبأ وتعرف منه الخطوة الجريئة التي بدأ يخطوها نحو غاياته التي لم تكن تخرج في شيء عن السياسة المرسومة للدولة بصفة عامة، وهي توطيد صلاتها بحكامها فـي الولايات الخارجية التابعة لحكم الأندلس وخاصة الشـمال الإفريقـي، ومبالغة من الملكة في إكـرام الوزير الأول محمد بـن عبدالله، أمرت بـأن تقام ليالي العرس فـي قصر الخلافة بضاحية الزهراء، وأن تكون بالغة الفخامة وعلى نفقتها الخاصة، ليشعر الجميع بأنها لا تكرم رجلها في شـخصه، بل تكرم فيه معاني الإخلاص والوفاء.

وراحت عجلة الزمان تدور والشـاب الطموح يتدرج صاعداً نحو المجد فـي هدوء وثقة واعتدال، لقد أصبح كل شـيء في الدولة، وأن ما وصل إليـه ليبدو في عينيه اليوم صغيـراً تافهاً إذ كانت أمانيه أبعد مدى مما وصل إليه.

ترى هـل كان يطمع محمد بن عبدالله بن علي الذي لولا رعاية الملكة صبيحة له ومساندتها لشخصه ما وصل إلى ما وصل إليه، هل كان لمثله بعد أن فعلت صبيحة معه ما فعلت أن يقدم على الغدر بها وخيانة ابنها والوثوب إلى عرشه.

إن الرجل لم يفكر في هذا أبداً، ولكنه فكر في السـلطة كل السـلطة فعلاً، لقد أراد السـلطة بأي شكل وبأي طريقة كانت، ولكنه ولكي يصل إلى تحقيق غرضه يجب أن يحسب ألف حساب للملكة التي كانت تمسك بكل أزمة الأمور في يديها.

وكان محمـد بن عبدالله بـن علي يحس بدقة مركـزه، ويعرف مدى ما تتمتع به الملكة صبيحة من منعة وقوة وسلطان ولكن، هل كان كل هذا يقف في وجهه ويحول دونه وتحقيق طموحه وهو الذي أصر على أن ينال ما يريد ولو كلفه ذلك حياته؟!

كان محمد بن عبدالله بن علي يشـعر أنه خلق للكفاح والنضال، ومن

أجـل هذا أصر على أن يمضي قدماً في سـبيله ولو حدث فعلاً ما كان يخشـاه وهو التصادم بالملكـة التي تصر على أن تكـون صاحبة الكلمة النافذة في كل شيء.

وراع الملكة ذات يوم أن كشف رجلها الأمين وجهه الحقيقي الذي ظهر مروعـاً مخيفـاً، وإذا بها تراه في صورة وحش آدمـي طامع نال ما نال مـن المكانة وولغ من الدماء، ثـم إذا به يهددها بأنها إذا لم تقبل مطالبه وشروطه فسوف يقضي عليها هي..!! ناسياً أفضالها العديدة عليه.

واسـتعرضت الملكة صبيحـة الموقف، ووجدت أنها فـي موقف حرج جديد ينذر بقيام حرب أهلية وبتصدع الجبهة الداخلية وتصادم أصحاب الأغراض، وهذا ولاشـك يعرض أمن الأندلس للخطر، ويعطي الفرنجة المتربصـين الفرصة أن يهاجموا البلاد ويقضوا على الملك العريض الذي شـيده العرب وأقامـوه بالجهد والكفـاح والنضـال، ورأت أن تتصاغر ظاهرياً وأن تسـرع بالاتصال سـراً ببعض أمراء الشـمال الإفريقي من الأغالبة ليسرعوا إليها فينقذوها من خادمها السابق الذي أصر على أن يكون سـيداً لسيدته الملكة صبيحة ولولدها الصغير أمير المؤمنين هشام بن الحكم.

ولمـا كانت عيون محمد بـن عبدالله بن علي تترصـد خطوات الملكة صبيحـة وتراقبها أدق مراقبة، فقد وصـل إلى علمه كل ما كانت تنتويه وعرف خطتها كاملة، وحال دون استنجادها بالأمراء الأغالبة في الشمال الإفريقي، ثم أسـرع بدوره يرد علـى محاولتها هذه بمحاولة أخرى أكثر جـرأة وإقداما فعزل أمير المؤمنـين الصغير في قصره، وأحاطه بالجند والحراس، وراح يهيب بهشـام أن ينصرف إلى عبادته وألا يشـغل نفسه بشـيء بعدها، ثم عاد ليكشـف وجهه مرة أخرى أمـام الملكة مؤكدًا لها أنه أقوى منها وأن عليها أن تسـلم وأن تنسـحب من طريقه وإلا وطئتها قدماه!

وأبت الملكـة صبيحة أن تتصاغر وأن تهين كبرياءها أمام أحد خدمها السابقين، وأصرت على الكفاح والنضال من أجل ابنها ومن أجل سلطتها، وأحبت أن تلجأ إلى حكم الشعب في شأن الغاصب الجريء الذي يتطلع إلى ما ليس من حقه أن ينال، وإذا بمحمد بن عبدالله بن علي يسارع برد

الضربة إليها بأضعافها، فاتصل بأمير المؤمنين الذي أبغض السياسة وكره شئون الحكم وأحب الخلود إلى العبادة، فكان أن استكتبه إقراراً بأنه لا يصلح أبداً لإدارة شئون الملك وأنه يتنازل عن كل سلطاته إلى وزيره الأكبر محمد بن عبدالله بن علي يشرف على الأمور وحده ودون شريك، وأن يكون هو وصيه من دون سائر الناس أجمعين!!

فكانت الضربة قوية كادت تذهب بعقل الملكة التي وجدت نفسها أصبحت مجردة من كل شيء.

وبدأت الملكة التي كانت يدها تهز صولجان إمارة المؤمنين في بلاد الأندلس يوماً، بدأت تعيش حياة الدعة والهدوء في الوقت الذي أخذ خلاله نجم محمد في التألق والتعاظم، وإذا به يلقب نفسه بالملك المنصور، ثم إذا به بين عشية وضحاها كل شيء، ولكنه لم يقدم على تنصيب نفسه أميراً للمؤمنين.

وعاشت الملكة صبيحة ما تبقى لها من حياة بعد ذلك تجتر الذكريات وتستشعر الراحة، لأنها سلمت بالواقع وخلصت البلاد من شر الفتن والحروب الداخلية كي تظل الجبهة متماسكة قوية أمام العدو المتربص من الفرنجة الناقمين.

وعاشت ما شاء الله أن تعيش، حتى وافاها أجلها المحتوم في اليوم الذي قدره الله فذهبت مبكياً عليها من شعب أحبها وأخلص لها، ولم ينس أيامها الغر الميامين.

حكمت الأندلس العظيمة وأدارت سياستها ودفة الشئون فيها، وكانت بهذا من المسلمات الخالدات.

الخيزران *

لم يكد يحل عام ٧٦٦ الميلادي حتى كان الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، المؤسس الحقيقي للدولة العباسية يستعد للقيام بعملين عظيمين. أولهما بناء بغداد عاصمة العباسيين على الشاطئ الشرقي لدجلة. وثانيهما قتل أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين، وقائدهم المظفر خشية تعاظم شأنه، واتساع نفوذه.

وبينما الناس حيارى بين دهشة الإعجاب ببناء بغداد العربية العظيمة، والخوف من مغبة قتل أبي مسلم، أسرع أبو جعفر إلى القضاء على ثورة أعوان الخراساني وتشتيت أنصاره، ثم رأى المنصور أن يستريح لفترة قصيرة أبى عليه نشاطه الفذ ألا تضيع هكذا عبثاً، فكان أن زوج خلالها ابنه وولي عهده محمداً المهدي من الخيزران بنت عطاء.

وكان زواج الخيزران من المهدي بداية أفراح للدولة، وفاتحة خير وسعادة واستقرار في وجودها السياسي، إذ اتجه أبو جعفر المنصور - بعد أن استقر له كل شيء، وأسلمته الأحداث زمامها - إلى تحصين حدود بلاده المتاخمة للحدود الرومية، وراح ينظم الدولة سياسياً ويرتب شئونها، وتخير لمعاونته ووزارته الأمناء من رعاياها، وكان أظهرهم آل برمك.

ولقد عاشت الخيزران بنت عطاء في ظل المنصور، قريبة منه، فتأثرت به إعجاباً بشخصيته، وتقديراً لجليل أعماله، وتتبع يقظ واع لغيرته

* العربي - العدد ١٠٠ - مارس ١٩٦٧م.

الظاهرة على شـــتى شئون دولته الفتية التي كان يلم بكل أمورها ويعرف كل صغيرة وكبيرة فيها.

رأت الخيزران بأي يد باطشة قوية بطش المنصور بخصومه ومعارضيه، ثم بأي يد حانية وواعية بانية، أكمل صرح الدولة، وعلى أي أســس وطد دعائم وجودها وبه استمتعت به من استقرار وتمكن وقوة واعتداد.

وخيل للخيزران بنت عطاء أنها لم تكن تعيش في قصر خلافة منيف شـــامخ، يفهق بالثـــراء والعز والجاه، بل في مدرســـة تتلقى فيها أصول الحكـــم، وكيفية بناء الدولة على يد معلم حصيف ماهر هو حموها «أبو جعفر المنصور»، الذي كان شـــديد الثقة في نفسه، قليل الثقة في جميع النـــاس، حتى إنه كان لا يســـتبقي عاملاً من عمالـــه في عمله لفترة قد تمكنه من السيطرة أو التحكم أو إيجاد عصبية له، فكان دائماً يستبدل بهم غيرهم خاصة ذوي العصبيات منهم حتى لا تكون هناك دول متعددة السلطان داخل الدولة العباسية.

عرفت الخيـــزران كل هذا وخبرتـــه، فقد كانت فـــوق جمالها البارع وحسنها الآسر قوية البديهة، سريعة التفكير، حاسمة في تصرفها، ذات رأي سديد وعين نافذة تستطيع أن تستشف الغد وتراه وتتنبأ بما يمكن أن يحدث فيه.

وملأت شـــخصية أبي جعفر المنصور خيال الخيزران حتى صار مثلها الأعلى، ومنهاجها الأعظم الذي اعتزمت الســـير على ســـنته، ومحاكاته في كل عمل عظيم قام به أو أخرجه إلى حيز الوجود.

وفي ظل أبي جعفر المنصور، تعشـــقت الخيزران بنت عطاء الســـلطة وتاقت نفســـها الطامحة إلى أن تمارســـها، وخلال تفرد حميّها المنصور بالحكـــم، ووقوفها وزوجها محمد المهدي ولي العهد عن كثب يرقبان ولا يفعلان.

خلال تلك الفترة الدقيقة من فترات تثبيت دعائم الخلافة العباسية، قامـــت بخيال الخيـــزران - المجردة مـــن كل قوة أو ســـلطان - أطماع وخيالات وأحلام وتصورات، حتى لكأنى بها كانت تتعجل حَيْن المنصور، وتتمنّى موته من فرط تلهفها وحماســـها إلـــى أن تخرج بأمانيها الندية وأحلامها الحلـــوة إلى حيز الوجود، فأخذت تعمـــل جاهدة على تثبيت

وجودها العملي بتجميع القوى في سبيل الاستئثار بالسلطان لنفسها فعلاً، ولو باتخاذ زوجها الطيب محمد المهدي ستاراً لهدفها.

لقد كان المنصور نسيجاً وحده في كل شيء، وكل عمل، ولقد امتلأ خيالها إعجاباً بفعاله العظيمة وسهره الدائب لمراقبة مسير عجلة الأحداث في الدولة، حتى لقد أنهك هذا الدأب المستمر قواه وأتى على مقاومته، فاعتلت صحته في أخريات أيامه، وأحب أن يستريح لبعض الوقت في مكة يستروح روحانيتها، ويقضي في ربوعها القدسية الفيحاء، بقية أيام حياته، فسار إليها، ولكن الأجل لم يمهله، وحال دونه ودخولها حيا، فلفظ آخر أنفاسه ومات وهو منها على بعد بضع ساعات.

وجاءت الخيزران بنت عطاء فرصتها الحبيبة، ونودي بزوجها محمد المهدي أميراً للمؤمنين، ومصرفاً حاكماً للدولة العباسية الكبرى، وكانت هذه المناداة في عام ٧٧٥ الميلادي.

وضحك الزمن للخيزران بنت عطاء، وابتسم الحظ، وجاءت مواكب الأماني والأحلام طائعة، فإذا الشابة الحالمة الطموح في مكان غير مكانها بالأمس القريب، لقد تولى أبو جعفر العنيد المتفرد صاحب الشكوك والآراء، وأن زوج الخيزران اليوم لهو كل شيء في الدولة، هو الخليفة، وهو أمير المؤمنين، وهو الحاكم المطلق، وهو الذي لا يرد له أمر!!

ذلك كان زوجها محمد المهدي الخليفة العباسي الثالث، ذلك كان الرجل في نظر الناس على الأقل، أما في نظرها هي، فلم يكن المهدي شيئاً على الإطلاق أكثر من شريك في الحياة، ومحب واله، وعاشق لا يفيق من نشوة الغرام بها.

إذا... فهي كل شيء في الدولة، هي صاحبة الشورى والرأي.

ثم أنها بعد هذا كله، وفوق هذا كله صاحبة الغد المرموق والمتصرفة في أقدار الزمان وأقدار الشعوب، فهي ليست زوجة أمير المؤمنين محمد المهدي، فحسب، بل هي أم وريثه من بعده، أم موسى الهادي، وأم هارون الرشيد..!!

وضحكت الخيزران في سعادة وفرح وقد أسلمت نفسها إلى خيال

حملتهـــا أجنحته بعيداً، بعيداً، فرأت مالم تكن تتصور، وأحســـت بما لم تكن تحلم به في يوم من الأيام.

لقد كان لها الأمس الذي تولى وهي في رعاية المنصور، وأن اليوم لبين يديها ورهن مشيئتها، والتدبير عنده، وأن الغد ليتقدم نحوها، وأنها لزوج الخليفة وشريكته، وصاحبة الرأي بهرج غموضه يجلله المجهول، وتتبدى من وراء شـــفوفه الهفهافة، أضواء المســـتقبل، وأنهـــا لصاحبته، فهي أم موسى ولي العهد، وأم هارون صاحب البيعة والأمر من بعد أخيه.

ووجـــدت الخيزران زوجها الحبيب حيـــث تصورته، وأنها لتبدأ حياتها معه باستعراض أعمال المنصور العظيم.

وبعين الحاكمة صاحبة الأمر والســـلطان والنفوذ بدأت الخيزران ترى المنصور أســـتاذها ومثلها الأعلى ومربيها، وهزت رأســـها في هدوء وادع وراحت تقول:

– كان أبـــو جعفر المنصور نســـيجا وحده، وقد فرضـــت عليه ظروف الحكم والرغبة في الاســـتئثار المطلق بالسلطان أن يقدم على أفعال، قد لا يقرهـــا تقليد ولا عرف، ولكن الرجـــل كان يتمم بناء دولة فتية ويدعم إرساء قواعد وجودها، ويشيدها بيد صانع قادر وبناء عظيم لتكون قادرة على أن تثبت في وجه الأعاصير...!

ولقد تم البناء فعلاً وعلى أســـس شامخة، واســـتقر الأمر، ولن يفكر متهور جريء في الخروج.

إذا... وعلى أســـاس الاستقرار والمقدرة والوثوق، بدأت الخيزران ترى الأوضاع كلها، وعلى ضوء هذا الاستقرار راحت تفكر ثم قررت أن تخرج بأفكارها إلى حيز العمل المثمر، وسرعان ما راحت تهمس لزوجها المهدي بما كانت تراه، وتوحي إليه بما كانت تشاء وما كانت تريد.

لقد أســـرف المنصور في بطشه وجبروته، وقد تجرع الناس في عهده مرارة الخوف والترقب، فلا أقل من أن يتذوق الناس حلاوة الاســـتقرار ويستروحوا برد الهدوء والراحة النفسية والأمن المستقر، فكان أن أوحت إلى زوجها أمير المؤمنين المهدي بأن يكون على نقيض أبيه، وعلى عكسه، وصاحب منهاج جديد في الحكم أساسه الرحمة والحب والسماح.

وارتاح المهدى فعلاً إلى آراء الخيزران بنت عطاء شريكة حياته، ووجد

فيها نصراً جديداً وفتحاً مستمراً، وظفراً مؤيداً يوطد نفسه بنفسه ويبني وجوده بيده، فالحب يجمع القلوب حول المحبوب، والإخلاص يؤيد الحب، ويجمع التنافر من شتى الأمور ثم يكون الاستقرار والهدوء والسلام.

وهزت الخيزران يدها فتحركت رياح الحب والولاء، واستروح الناس نسائم الحرية وبدأوا يتذوقون طعوم السعادة.

وهكذا بدأت بغداد الحبيبة عاصمة الدولة تعيش في ظلال الأمن والحب والتعاطف بين الحاكم والمحكومين.

وبوحي من الخيزران بنت عطاء، فتحت المعاقل أبوابها، وأخليت المحابس من المسجونين الذين ملأ المنصور بهم السجون، لمخالفته الرأي، أو معارضته في جانب المعسكر الذي كان يتزعمه أبو مسلم الخراساني، وتنفس الناس الصعداء، وعادت الفرحة إلى قلوب الكثيرين من الرعية ممن أحسوا مع مقدم المهدي، كل راحة وكل خير.

لقد كانت تلك اللفتة الإنسانية النبيلة أول صفحة نضرة من صحائف أعمال المهدي، وأنها لتعبر عن سجل لاحت بشاراته وستبين غوامضه كلما مر الزمن وتقلبت الصفحات، فالنصر الأول كان في ميدان السياسة العامة، وإغراء المعارضين بالانضمام إلى معسكر الخليفة العباسي الجديد.

وإذا .. بعد هذه الخطوة الأولى، فلتبدأ الخيزران خطوتها الثانية نحو السيادة الحقة، السيادة البعيدة ظاهرياً عن مجالي السياسة، القريبة منها فعلا كل القرب، إنها السيادة الروحية المطلقة، سيادة تملك القلوب والمهج عن رضا وحماسة وإعجاب وولاء.

كان المنصور قد عدا على بني هاشم، عترة سيدنا رسول الله وأهليه، وكان وهو ابن عمهم يخشى سلطانهم الروحي وعظيم تأثيرهم على القلوب وعلى سلطان بني العباس بالذات. ولقد حارب أخوه أبو العباس السفاح مؤسس الخلافة العباسية وأول خليفة عباسي نفوذ العلويين وشتتهم ليخلص الأمر كله إلى بني العباس، وعلى نهج العباس سار أبو جعفر المنصور، فعزل الهاشميين وأقصاهم وجردهم من امتيازات كانوا يتمتعون بها، وكان من اللازم أن تبقى في أيديهم مع بزوغ شمس إخوتهم وأشقائهم وأبناء عمومتهم بني العباس، وأن الخيزران اليوم

لتوحي إلى المهدي بأن يتبع سياسة جمع الشمل، وتوحيد القلب وإرضاء بني هاشم.

وارتاح المهدي إلى الفكرة، ووجد فيها نصراً جديداً واستهلالاً بارعاً لأيام حكمه، فأسرع ينفذها، ورد إلى بني هاشم ما كان قد أخذه منهم أبوه أبو جعفر المنصور.

ولقد كان العمل عملاً هيناً في ذاته، ولكنه كان عظيماً في دلالته وجلال تأثيره على النفوس، فارتاح الناس لهذه الترضية السمحة، ووجدوا في رد الاعتبار إلى بني هاشم بداية للاستقرار الشامل وقضاء على كل أثر للخلافات والتحزب بين شتى طبقات المحكومين في سائر أرجاء الدولة الكبيرة الممتدة هنا وهناك، والتي انتظمت أهلا موحدين متحابين يجمعهم الولاء للوطن العربي الكبير.

وهكذا مهدت آراء الخيزران للاستقرار الكامل، وأفسحت المجال للتقدم المنشود والعمل الجدي المثمر الذي كان على مواكبه أن تبدأ المسير لينتظم الناس في صفوفها ويجد كل فرد بغيته وهدفه والعمل الواجب عليه أن يؤديه.

وبدأت الأمور تسير في الدولة بحكمة وروية ومقدرة وقوة، وراحت الخيزران تفكر في الغد وقد اكتفت من يومها بما حققته وما وصلت إليه.

كان الغد بالنسبة للخيزران هو ولديها موسى وهارون، وأنها لترقب كليهما وتتفرسه وتستشف تفكيره وتضعه موضع الاختبار لترى أي رجل وأي حاكم سوف يكون.

كانت الخيزران ترى أن ولديها نقيضان في كل شيء، كان موسى شيئاً وكان هارون شيئاً آخر، كان موسى لين الطبع، يسلّم في هدوء ظاهري، ثم لا يلبث أن يراجع نفسه ويسائلها لماذا سلّم، ولماذا رضي بالوضع، وسرعان ما تظهر حقيقته، فإذا هو باطش رهيب.

وكان هارون هادئ الطبع ولكنه كان يخفي وراء هدوئه ثورة الإعصار وسرعته المدمرة في البطش والهجوم، وبالرغم من هذا كانت فيه سماحة وقدرة وتمكن، وكان له غرام وولع بفنون الحروب وتعبئة الجيوش.

ورأت الخيزران ألا تكل ولديها إلى المربين، يلقنونهما المكتوب من العلم

فحسب، بل وجدت أن الحكمة توحي بأن تدفع بهما إلى ميدان العمل ليكتسبا الخبرة، ولتبعدهما عن التفكير في التافه من الأمور التي قد تشغل أبناء الحاكمين وتخلق حول كل منهما بطانة سوء تزيّن له المقامرة والتردي، وتوحي إليه بالشر وتبعده عن جادة الصواب والصلاح.

وأوحت الخيزران إلى زوجها المهدي أن يشغل ولديه، ففرح الرجل وطابت نفسه وأسلم كلا منهما ما يليق به من جديات الأمور.

ولقد ظن «الروم» بعد موت المنصور أن ابنه قد يكون أضعف منه عوداً، فطاب لهم الغدر وراحوا يهاجمون الحدود المتاخمة للخليفة العباسي ويغيرون عليها.

وبدت الفرصة للعمل الجدي الحاسم، وبدأت تتجمع نذر الحرب بين العرب والروم، بين دولة فتية لها قوتها وجاهها وقوة إيمان أهليها، وأخرى تسعى إلى السيطرة وتحاول استعادة أمجاد قديمة أتى عليها العرب يوم قاموا يبثون مكانتهم ويأخذون مكانهم تحت الشمس، وقد وحّدهم الدين، وخلقهم الإسلام خلقاً جديداً، له مفاهيمه ومراميه.

وتحفزت الجيوش في كلا المعسكرين للموقعة الفاصلة، وتحركت في اعتداد وهدوء وثبات لتحقق آية النصر العظيم.

دوى النفير في بغداد العظيمة عاصمة العالم الإسلامي في ذلك الوقت، ورافعة رايته وحامية أمجاده، ودعا داعية الجهاد إلى الخروج، وتأهب الجيش العباسي للمرة الأولى في تاريخ وجوده الحربي ليعمل خارج الحدود وأمام قوات أجنبية معادية تحلم بالرغبة في القضاء على النفوذ العربي.

وأسرعت الخيزران بنت عطاء إلى زوجها أمير المؤمنين المهدي، أسرعت أم موسى وهارون إلى زوجها القائد، والجيش تأهب للمسير إلى الميدان وعلى رأسه قائده المهدي، وراحت ترجوه في إلحاح أن يستعين بولدها الثاني هارون، وأن يكل إلى ولدها موسى القيام بمهام الدولة أثناء غيبة أبيه في الحرب، فهو ولي العهد وهو صاحب الأمر الأول من بعد أبيه.

واستصوب المهدي فكرة الخيزران الذكية، وأسرع ينفذها، فهذا هو الوقت الحاسم فعلاً لوضع ولديه في مكان العمل، واختبار قدرة كل منهما عليه.

وعلى كرسي الخلافة، جلس موسى الهادي غائباً عن أبيه وإلى جواره الخيزران الذكية، أمه الباسلة الطموح تمده بالرأي والمشورة.

وإلى ميدان الحرب، سار هارون الرشيد، مع أبيه للقضاء على المطامع الرومية ولتلقين الروم درساً يمتنعون بعده عن نقض أطراف دولة العباسيين.

وفي رحاب النصر، وفي ظل الفتح، سار هارون الصغير، فنشق نسائم الظفر، وتذوق طعوم المعارك، وخاض الغمار إلى جانب أبيه، بطلاً عربياً مظفراً قادراً على تحقيق المقاصد السامية والفتح المبين. وكان أن أبلى هارون في الجهاد بهذه الحملة بلاء حسناً، وتميز فيها بحيث منحه أبوه لقب «الرشيد» وأوصى له بولاية العهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادي.

ووصل المهدي وولده هارون إلى بلاد الروم.. إلى قلب وطن العادين.. إلى البسفور، ولعلهم بلغوا القسطنطينية نفسها، وكان على العرش البيزنطي إذ ذاك الملكة إيرين وصية على ابنها الصغير قسطنطين السادس.

ووصلت الأنباء إلى بغداد السعيدة بما كان وبأنباء المواقع العظيمة التي خاضها المهدي وولده هارون وجيوشهما ضد الروم، فعمت البشائر وأقيمت الأفراح وامتلأ قلب الخيزران بالزهو والفخار، ففي الميدان شريكها العظيم، وابنها الحبيب وأنهما ليحققان الظفر الأعظم والنصر المبين.

إن المنى لتوافي الخيزران حيث هي، وأن مواكب الأحلام البراقة لتسعى إليها وهي في تمام اليقظة، إنها ليست أضغاث أحلام، بل حقائق كانت تراها وتسمع بها ويتحدث بأمرها الناس وأنها لتشعر بالفخر والاعتزاز.

لقد أسلمها الأمس الطموح إلى اليوم المرموق وهو لها وملك بنانها، وأن الغد ليأتيها خاضعاً وسيكون لوليديها العظيمين موسى الهادي وهارون الرشيد شأن أي شأن، ولها هي أيضاً فهي الأم العظيمة التي أحسنت تقويم ولديها وغرست في أحناء قلب كل منهما الشجاعة والجرأة والطموح.

وعادت أنباء النصر العظيم تترى على بغداد، أن الجيش العربي

العباسي يدق أبواب القسطنطينية ويملأ بالذعر قلب الروم ويخيف ملكتهم الرهيبة «إيرين» التي اغتصبت عرش الروم، وكانت أول امرأة مطلقة السلطان في تاريخ بيزنطة، فتولتها رجفة، واهتز التاج على مفرقيها في وجل وذعر، وهي ترى نتيجة العدوان على العرب، وكيف أنهم أتوا إلى بلادها فاتحين قادرين على فرض السلطان على العادين، بعد دحرهم وهزيمتهم وإشعارهم بالذل وخزي الهزيمة، ومرارة الفرار.

وأسرعت الملكة إيرين تلم شعث الموقف وتتدارك الخطأ البيّن، وتحاول إصلاح ما كان وأنها اليوم لتسعى نادمة إلى معسكر أمير المؤمنين المهدي وولده هارون تعرض الصلح وتعلن المهادنة وتقرر قبولها مقدما لكل ما يرتضيه العرب، أو يفرضونه من شروط.

وهكذا اضطرت أن تعقد صلحاً مذلا لها مع العرب.

وقبل المهدي رجاء إيرين، وأبى عليه خلقه العربي أن يستذلها أو يهين كرامة بلادها. وقبل الصلح على أساس دفع الجزية وقدرها سبعون ألفا إلى تسعين ألفا من الدنانير تؤديها على قسطين من كل سنة، وقبلت إيرين راغمة أن تكون تابعة للمهدي وأن يدفع الروم الجزية للعرب وهم صاغرون.

وبالغت الملكة الرومية إيرين في محاولاتها لتوثيق روابط هذا الصلح، استجلاباً لرضاء العرب، وضماناً لبعدهم عن بلادها، وعدم تفكيرهم في غزوها وإدخالها تحت سلطانهم، وراحت تراسل الخيزران ملكة العباسيين في عرفها، وأرسلت إليها الهدايا وبالغت في التودد إليها.

أي ظفر حلو تذوقته الخيزران خلال تلك الحقبة، من حقبات الظفر والنصر المؤزر العظيم، إنه ظفر لم تتذوقه عربية مسلمة من قبل تشعر في صميم نفسها أنها شريكة فيه، وأنها أسهمت عن مقدرة في بنائه وإقامة صرحه الشامخ العظيم، بل إنه من صنع يديها هي وحدها لأن من حققه لم يكن غير زوجها المهدي وابنها هارون الرشيد!

وعاد المهدي وولده هارون الرشيد وجيشهما ترفرف فوقهما بنود النصر السامقة.

ونشر الإسلام أجنحته على ربوع الوطن العربي الكبير، وما من شك في أن انتصارات الجيوش الإسلامية على أعدائهم كانت سبباً في تألق

نجـم هذا العصر، كما أن حياة الترف والبذخ التي اتصف بها قد رفعت من شـأنه، وكانت سبب عظمته الحقيقية تعود إلى اليقظة الفكرية التي تعتبر من النهضات المهمة في تاريخ التقدم الفكري العربي.

وامتـلأ بالثقة قلـب الخيزران، وتطلعـت إلى الغد المأمـول في أمل واعتداد.

وبعد أحد عشـر عاماً من الحكم والسـلطان والفتـح والانتصار. ولم شـعث الدولة وتثبيت دعائم وجودها مات المهـدي، مات الزوج المخلص الأمين شـريك الخيزران الذي لم يخالف لها رأيا ولا مشورة، وخلفه في إمارة المؤمنين ولده موسى الهادي.

ونظرت الخيزران حواليها، نظرت في زهو، وبدأت ترى يومها وغدها، لقد كانت بالأمس شريكة زوج في الرأي، لا في الإمارة والخلافة والجرأة علـى الظهور، وأنها اليوم لفي مكان أعز وأقوى من مكانها بالأمس، إنها أم أمير المؤمنين، إنها أكثر من شـريكة، وأعظم من أن تكون صاحبة رأي فقط.

وامتـد بصر الخيزران إلى ما هو أبعد وأبعـد، امتد بصرها الطموح إلى السلطة نفسها.

ورأت الخيزران نفسـها فـي مكان الصدر من الخلافـة، بل إنها في الرأس، ومادام موسـى ابنهـا البكر هو الخليفة فلتكن خلافته اسـمية ولتكن هي الخليفة وصاحبة الأمر والنهي.

كانت أم موسـى تعرف مكانتها من موسى، كانت تعرف مدى حبه لها وتوقيـره إياها واحترامه لرأيها ومشـورتها، وكيف أنهـا كانت صاحبة الحظوة والرأي عند أبيه المهدي وصاحبة المكانة والجاه، فلا أقل من أن تبقى حيث كانت دون أن تتحول عن مكانها العظيم.

إن الخيزران لتحس أنها اليوم في السـنام، وأنها كل شيء، فقد وانتها السـلطة ووجدت الابن اللين الطباع المفرّط في حقوقه، فلا أقل من أن تشبع طبيعتها البشـرية المغرمة بالمظاهر والفخفخة وتسير إلى تحقيق السيطرة التامة على الدولة والسيادة الكاملة على شئون الحكم.

وتفردت أم موسـى وعزّت، حتى لقد نبه شـأنها وانصرف الناس عن بـاب الخليفة إلى بابها هي، وتوافـدت عليها المواكب وقصدها أصحاب

الحاجـات من الطامعين العديدين فكانت تحقـق لهم مطامعهم وتنيلهم أغلـى الأمانـي وتعطيهم فـوق ما كانوا يريـدون. وفي ذلـك يقول أبو المعافي:

يا خيزران هناك ثم هناك

إن العباد يسوسهم ابناك

وأحس موسـى الهادي بعد مضي شـهور قلائل من حكمه أنه لاشيء، وأن أمه هي كل شـيء، فهي لم تشـاركه الحكم فقط، بل أصبحت هي الحاكمـة الفعليـة، وخاف مغبة الأمر، وخشـي أن يخرج الحكم من يده وتضيع مكانته بين الناس.

ورأى أميـر المؤمنين أن التمـادي في طاعـة الأم الطامعة تهاون في حقوقـه، وأنها - وإن كانت طاعتها هذه واجبة والبر بها فرض سـماوي - فإنه يجب أن تكون هذه الطاعة مشـروطة محدودة لا يتعداها كل من المطاع.. والمطيع!!

وبدأ الهادي يسحب يده الممدودة، ويجمع أشتات ظل المجد والسلطان الذي أضفته أمه على نفسـها ويسـترد حقوقه كاملة، وسـيطرته غير منقوصة، كأمير للمؤمنين مسـئول وحده عن رعيته أمام الله، وسـلطان الضمير ثم، أمام الرعية نفسـها، فـكان أن بدأ خطته المحكمة بالتباطؤ في تنفيذ رغبات أمه، وكانت رغبتها في تولية خاله الغطريف حكم اليمن أعز أمانيها.

وبعثـت الخيزران إلى ابنها تسـتنجزه وعده مرة بعـد مرة فلم يجبها إلـى ما طلبت فكتبت إليه، وذكرته بمكانة الغطريف منه، وأنه ليس خاله شـقيق أمه فحسـب، بل والد زوجته أيضاً، فرد أمير المؤمنين عليها بأن تخيـر خاله بين ولاية اليمن أو طلاق ابنته من أمير المؤمنين، وبعث إليها رسـولاً بذلك، ويبدو أن الرسـول لـم يفهم مقالة الهـادي، إذ عاد إليه مسرعاً يقول له إن خاله قد تخير ولاية اليمن!!

وأصدر الهادي أمره بتنصيب خاله الغطريف والياً من قبله على اليمن ثم، طلق زوجته.

وبالرغـم ممـا ظهر للهادي بعد ذلك من أن الرسـول قد أسـاء فهم رسـالته، إلا أن حـادث طلاق زوجته قد أثر فيه إلـى حد كبير وأحفظ

قلبـــه على الخيزران أمه، وندم لأنه فرط في حقوقه معها وجعلها تتعدى حدودها، وتقحم نفسها في كل شيء في الدولة، وأقسم بينه وبين نفسه ألا يجيبها بعد اليوم إلى شيء ترجوه مهما تكن النتيجة.

وعـــادت الخيزران تطلب وتأمر والهادي يمتنع عن التنفيذ، وعز عليها ذات مرة ألا يســـتجيب لها ويحقق لعبدالله بن مالك حاجة سعى بها إلى الخيزران ووعدته بأنها لابد ستنفذها له.

ووجدت نفســـها تذهب إلى ولدها تأمره بالاستجابة للأمر فاعتذر، فأخذت ترجوه فلم يستجب للرجاء، فتوسلت إليه ضارعة، ولكن الهادي ظـــل عند رأيه في الرفض والإصرار علـــى عدم الإذعان، فقامت ثائرة غاضبة، تهدد وتقسم أنها لن تسأله بعد اليوم حاجة أبداً، وإذا بولدها يستوقفها، فتوقفت لحظة جمعت خلالها أنفاسها اللاهثة وقد ظنت أن الهادي قد بدأ يلين وأنه عاد إلى طاعتها من جديد فإذا هو يقول لها:

– مكانـــك يا أم، واســـتوعبي جيداً ما أقوله لـــك الآن، والله الذي لا إله غيره، وإلا نفيت من قرابتي من رســـول الله صلى الله عليه وســـلم – لئن بلغني بعد اليوم أنه قد قصدك صاحب حاجة ووقف بِبابك أحد من قـــوادي أو خاصتي أو أحد رجال دولتـــي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، فمن شـــاء فيلزم ذلك، يا أم، ما هذه المواكب التي تغدو كل يوم ببابك وتروح، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟! يا أم.. إياك ثم إياك أن تفتحي بابك لمدحي أو لذمي.

وكادت الخيـــزران أن تصعـــق من هول ما ســـمعت إذ ما تصورت يوماً أن ابنها البكر وولدها الأثير عندها، موســـى الحبيب المحبوب ســـيصدم أحلامها بهذه الصورة من صور العنف الشـــديد، ويصدها عن بابه بمثل هذه القســـوة، ويخيب رجاء قصادها كما فعل، ووجدت نفسها تسكت إذ عز عليها أن تطاول ابنها أو أن تجادله، ثم انصرفت كسيرة القلب حزينة الفؤاد وقد أقسمت ألا تراه وألا تخاطبه بعد اليوم.

ولـــم يقف الهادي عند ثورته من تدخل أمه الخيزران في أدق شـــئونه عنـــد ذلك الحد الذي كان بينه وبينها فحســـب، بل أحب أن يكون الأمر عاماً وأن يعلم به الجميع، فكان أن جمع قواده وخاصته وكبار رجال دولته ووقف يقول فيهم:

- أيها الناس، أيما خير، أنا أو أنتم، فأجابوا جميعاً في دهشة:
- بل أنت يا أمير المؤمنين.
فعاد الهادي يسأل في إصرار وغضب زائدين:
- فأيما خير.. أمي أم أمهاتكم.
فقالوا جميعاً في عجب:
- بل أمك أنت يا أمير المؤمنين.
وزفر الهادي زفرة عميقة، ونظر إلى رجاله في ضيق برم وغضب وأكمل يقول:
- فأيكم يجب أن يتحدث الرجال بأمه يقولون فعلت أم فلان، وقالت أم فلان؟!
وتراجع الرجال في دهشة وأجابوه في صوت واحد أنه لا أحد منهم يحب هذا، وإذا بالهادي يقول غاضباً:
- إذا فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون: بحديثها؟!
وفهم رجال الدولة ما يقصده أمير المؤمنين وما يرمي إليه، فتملكهم الخوف ووجدوا السلامة في الطاعة والبعد عن باب الخيزران والانصراف عنه.
وعز هذا على أم موسى وكبر عليها وحزنت أشد الحزن لوحدتها وانصراف القصاد عن بابها وهي التي كانت ملجأ الجميع، فأقسمت أن تعتزل ابنها البكر طوال حياتها وألا تكلمه أو تزوره أبداً.
وحقدت أم موسى وهارون على موسى..
وبادلها موسى الحقد حتى أنساه حقده فضل الأمومة ومكانة الأم، حتى لقد فكر في التخلص منها وإنهاء حياتها بالسم وبعث إليها ذات يوم طعاماً كانت تحبه وأوصى بأن تأكله وحدها.
ورأب الخيزران الأمر، وأمرت بكلب فأحضروه سريعاً، وألقت إليه ببعض الطعام فسقط ميتاً لساعته!!
وتعجل الهادي فعل السم في أمه فأرسل إليها كيف وجدت طعامه الذي أرسله إليها؟ فقالت إنها وجدته طيباً.
فسخر منها وأجاب رسوله عن لسانه، بل إنها لم تأكله ولو أكلته لاستراح منها، لأنه لا يفلح خليفة له أم!!

وابتسمت الخيزران ضاحكة في سخرية، وراحت تنظر في أمر ولدها الذي مد يده في قسوة، فانتزع من قلبها كأم، ما كان يفيض به من حنان ورعاية وحب.

وبدأت طبيعة المرأة الشريرة المنتقمة تطغى على نفس الخيزران، وتملكها الشر حتى وطأت أقدامها كل فضيلة، ووقر في نفسها أن تحمي ذاتها وأنها إن لم تتفذ بالهادي فسوف يتعشى بها عن قريب وأن واجبها أن تحترس وأن تعجل به.

ونسيت الخيزران كل طبيعة طيبة تميزت بها الأم، وعادت تعيش بخيالها في ذكرى أيام أبي جعفر المنصور أستاذها ومعلمها الروحي الأول، الرجل الذي تعدى الحدود والسدود ونفذ إلى غرضه بكل وسيلة وبأي سلاح، وبطش بأقرب الأقربين إليه، ولم يفكر إلا في وجوده هو، ومصلحته وحده دون سائر الناس ولو قضى في ذلك على الناس أجمعين.

ولجأت أم موسى إلى الذهب والدهاء، وفي يسر وهدوء استطاعت أن تصل إلى غرضها وأن تقضي على ابنها البكر بنفس السلاح الذي أراد أن يقضي عليها به، وأغرت بعض جواريها بقتله، وبالسم، ففعلن!!

ومات الهادي مسموماً بعد عامين من حكم قضاه في نزاع مع أمه الخيزران، وإتمام بعض إنجازات الدولة.

ولما حضرته الوفاة، وأتاها الرسول ليخبرها بذلك، قالت: وما أصنع به؟!

فقالت لها خالصة - قومي إلى ولدك، فليس هذا وقت عتاب أو غضب.

فقالت الخيزران: «أعطوني ماء أتوضأ للصلاة، ثم زفرت عن ألم عميق قالت بعده: أما كنا نتحدث أن يموت في هذه الليلة خليفة ويملك فيها خليفة، ويولد خليفة، فمات موسى الهادي، وملك هارون الرشيد، وولد المأمون!!

وخلف هارون أخاه موسى، وتربع من بعده على العرش، ونودي به أميراً للمؤمنين.

كانت الخيزران تعرف في هارون الرشيد هدوءه وطول صبره وأناته

وحكمته، وحذره وعدم إيمانه بالمظاهر أو خضوعه لها في كثير أو قليل، وعلّمتها تجربتها الدامية مع الهادي أن تقف عند حدها وألا تتعداه وإلا تكررت المأساة مرة ثانية وأصبحت النكبة مضاعفة.

لقد قتلت الخيزران ابنها الهادي، هذا حق، ولكن، وبعد أن تم لها ما أرادت، وتخلصت من فلذة كبدها الغالي، هل استقرت أو استراحت أو هدأ لها ضمير؟!!

لا، لا، وأنها لتحصد ما بذرته ندماً وحسرة وتعرف أنها أخطأت منذ البداية وكان من اللازم أن تقف عند حدها كأم حانية راعية ولا تتعداه أبداً إلى أكثر من ذلك. فولدها خليفة مسئول، وأمير للمؤمنين، له بحكم مركزه جلاله وتبعات ما كان يجب عليها أن تطمع فيها. وكان من واجبها أن تسعد بمكانتها وتعتز بابنها وتشكر الله أن منّ عليها، فكانت زوج خليفة وأم خليفتين، وهذا أقصى ما ترجوه أم، ولكنه الطموح والطمع وحب المظاهر الدنيوية، وإنها اليوم لتتراجع في ذعر إلى مكان بعيد!! وتأبى أن تعيد التجربة المثيرة الأليمة.

وعاشت الخيزران خلال خلافه ولدها الرشيد حياة هادئة حتى وافاها أجلها فأكرم ابنها جثمان أمه، وشيّعها بما يليق بمكانة أم موسى وهارون وزوج المهدي، وخرج الرشيد يشيع جنازتها وعليه طيلسان أزرق شد به وسطه، وقد أمسك بالنعش وسار خلفه حافي القدمين يغوص في الطين وأوحال الطريق حتى القبر، وتم دفن أمه العظيمة، وعندها طلب غسل رجليه وإزالة ما علق بهما من الطين ولبس نعله، وجعل يبتعد عن القبر واجف القلب دامع العين، ثم جلس بعيداً ليستريح بعض الوقت، وكأنى به في تلك اللحظات الرهيبة كان يسترجع الماضي ويتصور ما فات وما كان وما سوف يكون!

وترحم هارون الرشيد على أمه، وزفر زفرة حارة خففت بعض ما يعتلج في قلبه من هموم وأشجان.

ورفع وجهه إلى السماء ثم غض بصره، واستغرق في تفكير طويل. وأنها سنة الحياة لقاء وفراق أليم!!

وحمد هارون الرشيد الله إذ لم تغير الأيام ما بينه وبين أمه، ثم نظر إلى جانبه ونادى الفضل بن الربيع، فأسرع إليه الرجل في وفاء

وإخلاص، فدفع إليه الرشـــيد خاتمه، ووكل إليه تصريف شـــئون الدولة واتخذه عوناً له في كل الأمور.

وتلقى الفضل أمر سيده بالشكر، وإذا بالرشيد يقول له في همس:

- إني كنت أهم أن أوليك، ولقد أقدمت على ذلك أكثر من مرة، فكانت تمنعنـــي أمي. وكنت أطيعها، أما اليـــوم، فلا علي، ولا عليك يا فضل بن الربيع.

وهكذا، وعلى هذه الصورة، انتهت حياة الخيزران.

حياة المســـلمة المجاهدة الخالدة الطامعة الطمـــوح إلى المجد، توفيت الخيـــزران في ليلة الجمعـــة لثلاث بقين من جمادي الآخرة ســـنة ١٧٣ هـ، وفي يقيني أنها عاشـــت حياتها كما يجـــب أن تعيش زوج خليفة وأم خليفتين. ولكن، لنقف عند ذكر محاسن موتانا، وأم موسى وهارون، كانت لها محاســـنها وأفضالها ومن الخلق الكريم أن نشيع الذاهبين بالإحسان والترحّم، والتكريم.

هاجر أمّ إسماعيل *

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم * ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾.

كانت تغمر البيت سكينة غير محببة، سكينة بغيضة ينفر منها القلب، وتضيق بها الروح، وتشيع في النفس القلق والخوف من المجهول، وتوحي بالموت، واليأس الخانق، ولهذا كرهته «سارة» بكل حواسها، ولم تعد أبداً، ترتاح إليه.

لم تعد ترتاح نفس صاحبة خليل الرحمن «إبراهيم» إلى هذا الصمت المقيت الذي أحال جنة بيتهما جحيماً لا يطاق.

وراحت سارة في قلق وخوف تنظر حواليها، وكذلك كانت تفعل كل يوم، راحت زوج إبراهيم وابنة عمه تنظر حواليها، وكأنها تبحث عن شيء، ولاشيء أبداً في ذلك البيت..!!

إلى من كانت تنظر سارة؟! ومَن كانت ترجو أن تجده هناك والبيت جديب، خاشع، لا حس فيه ولا حياة؟!

إذا.. فلينطلق الخيال إلى الخارج حيث يعيش الناس حياة أخرى غير تلك التي قدّر على سارة أن تحياها بين جدران ذلك البيت الكئيب.

وتبدى لسارة المحطمة القلب عظم الفارق بين حياتها وحياة سائر الناس.

* العربي - العدد ١٠٤ - يوليو ١٩٦٧م.

إنهم.. ماداموا بعيدين عن محيط هذا البيت الصامت، فهم يعيشون الحياة، ويستعرون جمالها وروعتها، ولا يجدون في كل شيء يحوطهم إلا بهجة وسعادة وإحساساً بالمرح والصفاء. وزفرت سارة زفرة حارة تفطر لها القلب الكسير، وقد فهمت السر الذي حارت في تقصّيه.

ليس بالمال وحده يسعد الناس، ولا بالبيت الهادئ الوادع، ولا بالصفاء الذي يرفرف على ربوع الدار، بل بشيء آخر، شيء كانت تتمناه، وترجوه ولكن أمانيها قصرت عن الوصول إليه، فبدا كالسراب الحبيب... القاتل، قريباً، بعيد المنال، وهو على الحالين حبيب محبّب، لا تملك النفس غير أن تتمناه!!

وراحت سارة تزفر ثم تنكس رأسها في خشوع الراضية التي لا تملك غير الصبر والرضا والتسليم.

ومرت «هاجر».

مرت هاجر أمام سارة، في سرعة وخفّة، وشباب!!

مرت الشابة المصرية الوضيئة الوجه، الباسمة الثغر المشبوبة الحركة، مرت أمام سارة في سرعة كأنما نقلت خطواتها المرحة سارة من عالم إلى عالم، وجعلتها تدخل في هدوء جنبات عالم فسيح وضّاء.

هذه المصرية الشابة، هي الأثر الحي الذي طالما حمل إلى خيال سارة وزوجها خليل الرحمن صورة محببة عن حياة رغدة عاشاها في مصر الحبيبة، جنة الله في أرضه، حيث لجآ إليها فراراً من جدب الصحراء وقسوة العيش، فلقيا فيها كل إعزاز وتكريم.

وشاء الله أخيراً للمهاجرين الكريمين إبراهيم وسارة أن يعودا من حيث أتيا، ويتركا مصر، فودعهما الملك الهكسوسي الغاصب، بكل ترحيب وأغدق عليهما عطاياه، ولم يبخل بغال أو نفيس، وكانت «هاجر» هذه هدية من جملة هداياه لسارة وإبراهيم.

وهكذا قدر للمصرية الشابة، أن تترك بلادها وتصحب إبراهيم وزوجه إلى حيث يشاءان راضية قريرة العين.

وخلفت هاجر الوادي الأخضر وراءها ثم سارت مع أهلها الجدد إلى حيث أمرهم الله أن يستقروا وأن يطيب لهم المقام.

ومرّ الزمن.

واستقر إبراهيم في هذه البقعة المحدودة من أرض فلسطين، وفي ظل أبيمالك حاكم البلاد، وفي بيت وادع هادئ، جعله موئلا للناس، ومستقراً لدعوته الكبرى وأداء رسالة الوحدانية التي بعثه بها الله مبشراً وداعياً، وهادياً إلى الطريق المستقيم.

وآمنت هاجر بدين إبراهيم، آمنت هاجر بالوحدانية المنزهة عن الضلالات والشرك وشهدت بأنه لا إله إلا الله وحده، خالق كل شيء، وهو الذي يحيي ويميت.

آمنت هاجر بالحنفية السمحاء، وكفرت بمعبودات أهلها، وتابعت خليل الله إبراهيم على دينه، وآمنت بالله واتخذت الإسلام ديناً لتسلم وتنال الرضا وتفوز برضوان الله.

ووجدت هاجر في دينها الجديد موئل نفعتها وراحة قلبها، فأخلصت في عبادتها، وأقبلت على تعبّدها، وقد بدأت الحجب تتكشف لها يوماً بعد يوم، وترى الآيات لحظة بعد لحظة، وأحسبت وكأنما هي قد خلقت من جديد.

لقد دعا الإسلام إلى كل فضل، وحثّ على كل فضيلة، وإن هذا ليصادف هوى عميقاً في فؤادها، حتى أنها لترى في الإسلام وأتباعه. حياة جديدة بعثت هاجر لتحياها من جديد، فاتنة، عابدة، مسلمة مخلصة.

ووقفت بسارة أفكارها عند ذلك الحد، وكأنما لم تجد بعد هذا ما تفكر فيه، بل في أي شيء كانت تفكر بعد ذلك، والفكر جامد مشلول، والأماني حائرة كليلة، وهي هي، تدور حول الأمنية المكبوتة التي راودتها وتحاول الانطلاق من أسوارها إلى فضاء طلق، فتكبو ولا تستطيع الفكاك منها.

وسكنت سارة، وتبلد بها الفكر عند هاجر وصورة هاجر، وراحت في غمرة الدهشة والذهول والحيرة تسائل نفسها لماذا شغلت نفسها بهاجر المصرية في هذه اللحظة بالذات، وإذا توقفت أمام صورتها المشبوبة طويلاً وراحت تستعرض ماضيها الذي ولّى وحاضرها الذي تعيشه اليوم في رعايتها وزوجها إبراهيم!!

لقد كانت سارة ترى هاجر كل يوم، كل لحظة، ولكنها لم تشغلها غير اليوم فقط وهي في غمرة الأسى والحسرات والشرود!!

إنها لتفكر في ذلك الصمت اللعين الذي يطوي بيت خليل الرحمن

تحت إبطه، وينشر فوقه جلابيب غموضه، فمن الذي أقحم صورة هاجر على ذلك الصمت، وأي علاقة لها بتلك السكينة البشعة!!

إن الصمت موات، رهبة، مخاوف، أحلام بشعة مؤرقة.

وهاجر!!

هاجر المسلمة الخاشعة، المؤمنة الطيبة، الفتاة الوضيئة الوفية!!

إنها شـــباب نضر متوثب، حياة مرحة، وتطلع مشبوب إلى غد مرجو، فأي علاقة لها بذلك الصمت المخيم على بيت خليل الرحمن وقلب سارة زوجته القلقة المتبرمة؟!

لقد كانـــت هاجر هي المظهر الوحيد المرح للحياة في ذلك البيت، ولكن هاجر لا تخص سارة، ولا تعنيها في شيء، وأنها لترجو أن تملك ما يقضي على ذلك الصمت، ويبدد تلك السكينة الضاربة.

إن ســـارة تحلم بســـماع صوت جديد يدوي بالمرح والصفاء في جوانب البيت، صوت يخصها هي، ويسعدها هي، ويملأ بالفرحة قلبها الكسير!!

إنها ترجو وترجو ولكن، ما أبعد الشـــقة بينها وبين أن يتحقق الرجاء، أو أن يصبح السراب الظاهر دوماً لعينها، حقيقة واقعة.

وابتسمت سارة في مرارة وأسى، ثم وجدت نفسها تترك مكانها لتتجول في أنحاء ذلك البيت، وقد أخـــذت أرانين الفكرة التي راودها تدوي في أذنيها بطنين رهيب!!

لقد عاشـــت مع خليل الرحمن إبراهيم ما عاشت من سنين طوال، أبى الله القادر خلالهـــا أن يمنحها نعمة الولد، ليملأ حياتها بالبهجة، وقلب زوجها الكريم بالسعادة والفرحة، ولئن كانت السنون التي تولت قد ألهتها عـــن التفكير في هذه الأمنيـــة الغالية، فإنها اليوم وهي تســـير وزوجها العظيم إلى الكبر، وتخطو ويخطو معها إبراهيم إلى مراحل الشـــيخوخة لتحس الحنين إلى الأمومة الحانية، وتجدها سلواها ورجاءها العزيز.

وتوقفت سارة عن أحلام يقظتها، وقد دهمتها فكرة مروعة استشعرت معها مرارة الخيبة وقســـوة الخذلان مقدما، لأن أمانيها الغالية لن يقدر لهـــا أن تتحقـــق في يوم من الأيـــام، فهي عقيم وا أســـفاه، عاقر، لا تلد ولا يمكـــن أن تلد، ولن يدوي فـــي جوانب بيتها صوت طفل وتعلو أصداء ضحكته المرحة.

وزفرت سـارة متحسّرة، ونكست رأسها مستسـلمة، فماذا كان بيدها أن تفعل غير الاستسـلام والرضا وهي زوج إبراهيم إمام الشعوب ومعلم الأمم وهادي الناس إلى الحق.

إنها تعرف أن تلك هي إرادة الله، وأن عليها أن تذعن راضية، خاضعة، ولقد خضعت فعـلاً، ورضيت بالواقع، ولكنها عـادت في غمرة الحيرة ترثي لزوجها العظيم، وهي تسـائل نفسها، وماذنبه هو، ماذنب إبراهيم أن يحرم الولد!!

وعادت هاجر تتنقل في أرجاء البيت فتملؤه شباباً وحيوية وسعادة!!

وراحت سارة ترقب المصرية الشابة في دهشة وهي تسائل نفسها عن سر اهتمامها اليوم بالذات بتتبع خطوات هاجر وإدمان النظر إليها.

وأغمضت سـارة عينيها لحظة كمن أحبّت أن تبعـد عنها فكرة قوية طارئة بدأت تشغل تفكيرها في قسوة وعنف، وما لبثت أن فتحت عينيها وراحت تنظر إلى هاجر من جديد، وبرغمها.

إنها تحس أنها مجبرة على الاستسـلام لالتماعة الفكرة، وقد أخذت تلقي أضواء على ظلمات الفكر الكليل.

إنها عاقر لا تلد، وإن هذا الصمت المخيم على البيت، يجب أن تتلاشى أخيلته الداكنة، وتنحسـر ظلاله السـوداء، وأن تغمر بيت إمام الشعوب فرحة الإحساس بالأبوّة والأمومة.

الأبوّة.. والأمومة!! تلك كانت المشـكلة الكبرى، والسـر الرهيب الذي بدأت طلاسـمه تنجاب أمـام نورانيـة الفكرة التي شـعت على القلب الكسير.

لا أمل لسـارة في الأمومـة، فلم تحرم إبراهيم نعمـة الأبوة؟! ولم لا تشـعره بحلاوتهـا؟! ولماذا لا توفر هي له هذه الأبـوة البارة وتهبه الابن المرتقب!!

وارتاحت سارة إلى الفكرة وخرجت بها إلى حيز العمل الجدي السريع واسـتقر رأيها على أن يتزوج إبراهيم «هاجر» عسى أن يتفضل الله عليه بالخيـر ويهب له منهـا نعمة البنوة التي سـتبدد الصمت الضارب على البيت ومَن فيه!!

وأسرعت سارة إلى إبراهيم تسر إليه بأمنيتها، وذعر الرجل، ذاك أمر

ما فكر فيه، وهو العالم بأن كل شـــيء إنما يجري بأمر الله، ولكن ســـارة أخذت تلح ثم راحت تتوسل وترجو.

ورضـــي إبراهيم أخيراً، وتزوج خليل الرحمن هاجر المصرية، وبنى بها وهو يسأل الله في أعماق نفسه أن يحقق في هاجر الزوجة الثانية رجاء سارة الزوجة الأولى وأن يهب له القادر الخلاق الابن المرجو.

وحملت هاجر من إبراهيم، ومرت شهور حملها ثم..

ثم ولد بكْر إبراهيم.

ولد إســـماعيل فكان ميلاده، ميلاد حياة جديدة، ومشاعر جديدة في بيت إبراهيم.

ومـــرت الحياة رتيبة هادئة وادعة في البيت الســـعيد، ومضت معها الأيام في يسر وراحة ثم...

ثـــم طرق ضيف إبراهيـــم الباب، فرحب بهم وبالغ في إكرامهم، وأســـرع، فجاء بعجـــل حنيذ **﴿فلمـا رأى أيديهم لا تصـل إليه نكرهـم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط..﴾**.

وســـمعت ســـارة الجدل وعرفت حقيقة ضيف زوجها وأنهم ليســـوا غير ملائكة الله وقد أرسلوا إلى قوم لوط العصاة للقضاء عليهم.

وكأنما أســـعد ســـارة الطيبة أن ترى ملائكة الرحمن ضيوفـــاً في بيتها، فاستبشرت بذلك وضحكت، وإذا بالملائكة يبشرونها بإسحق، ويحولون دونها والتساؤل، ويطلبون إليها ألا تعجب فذلك أمر الله، وليس لها أن تسأل أو أن تقول إنها عاقر وأن زوجها شيخ!!

وشهد البيت الصامت مرة ثانية فرحة جديدة.. وولد اسحق!!

وكبر إبراهيم وهلل وشكر الله على أنعمه العظمى ثم...

ثم جاء إلـــى إبراهيم أمر ربه، وابتلاه الله بكلمات فأتمهن عليه، وبشّـــره بإمامة الشعوب جمعاء.

وســـجد إبراهيم شـــكراً لله المنّان القـــادر، وارتقى إلى ســـدته بالنجوى والضراعة والدعاء وسأله سبحانه أن يجعل هذه الإمامة في ذريته من بعده، فاستجاب الله له، وقال إن عهده سبحانه لا يناله الظالمون.

إذا .. فقد عظم شأن الرسالة ذاتها، وامتد رواق جلالها على العالمين جميعاً، فأصبحت إمامة للناس كلهم، وستكون فيما بعد ميراثاً لبني إبراهيم.

وبدت سارة تفكر وقد صارت أما تخشى أن يكون حظ اسحق وحيدها من الإمامة قليلا، وإن الحظ الذي أعطى هاجر قبلها، وجعلها زوجة لإبراهيم، قد يسرف في عطاياه للمصرية المحظوظة، فتكون هي أم وريث إمامة إبراهيم.

وأظلمت الدنيا في عيني سارة وساءلت نفسها عمّا يمكن أن يحدث لو تفرّد إسماعيل بميراث أبيه الروحي والديني، وكانت له وحده الإمامة على الناس!! وماذا يمكن أن يحدث لابنها ولبنيه من بعده، وأي مكان يكون لهم في هذه الدنيا، هل يكونون خدماً وعبيداً ورعايا وأتباعاً لإسماعيل وبنيه؟!.

وجفّ حلق سارة من الرهبة وهي تتصوّر ذلك كله، وحزّ في قلبها أن تدور بها الدنيا فتقف حيث وضعت هي نفسها، فلو لم تتسرّع وتزوّج هاجر بإبراهيم ما دهمتها أبداً هذه التصورات!!

وعضت سارة بنان الندم ولكن بعد فوات الوقت، وبعد أن أفلتت الفرصة من يدها وكانت هي مَن أسلمت المقود إلى يدي هاجر.

وراحت سارة تتمثل هاجر، هاجر شريكتها في إبراهيم ثم.. أم وريث الشريعة والكتاب والإمامة العامة وسيد الغد، وإمام الناس أجمعين.

وكادت سارة تجن، وأفلتت عواطفها ولم تستطع أن تكبح جماح نفسها فأطلقت لأوهامها وتصوراتها العنان، فكبحت وشردت، وذهبت هنا وهناك كل مذهب، وأفسحت للغيرة الرعناء مكاناً، أصبحت فيه الغيرة مالكة القلب بلا شريك.

وارتفع صوت سارة تقول لإبراهيم إنها لن تسمح لابن هاجر أن يشارك اسحق ابنها هي ميراث أبيه، وأنها ضاقت ببقائه وأمه في بيتها، وأن على إبراهيم أن يبحث لهما عن بيت آخر ومكان آخر بعيد يعيشان فيه.

وحار إبراهيم ماذا يفعل، وزفر زفرات التبرم وهو لا يدري إلى أين يستقر به الفكر الحائر، أيُبقي على إسماعيل وأمه ويضحي بسعادته البيتية؟ أم يبحث لأم إسماعيل عن بيت جديد تكون فيه وابنها بعيدين عن سارة وغيرتها وقسوتها؟!!

ووجد خليل الرحمن أن الهدوء المنشود هو في إبعاد كل من الزوجتين عن الأخرى... وفي بيت خاص.

وعادت سارة تشترط وتلح أن يكون بيت هاجر بعيداً عن بيتها، بل، عن نطاق المحلة التي نزلت فيها حيث استقر إبراهيم من قبل.

وسكت إبراهيم على مضض ولم يدر إلى أين يذهب بزوجته هاجر الوادعة وبابنها الرضيع البريء، ووجد نفسه في النهاية يخرج بهما وهو لا يدري إلى أين يذهب.

وسار إبراهيم وهاجر معه من محلة إلى محلة، ومن مكان إلى مكان، وهو مستغرق في تفكيره جاد في سيره حتى تجاوز العمران وبدأ يتوغل في قلب الصحراء حيث لا حياة ولا زرع ولا نماء.

لقد أحس إبراهيم أنه إنما كان يسير بوحي وإرشاد وإلهام، وإن إتّباعه هذا الطريق اللاحب القفر، لابد أنه قد تم لحكمة خافية وأن صمت هاجر وعدم تبرّمها لابد أن يكون وليد إرادة ورغبة عليا.

وطال بخليل الرحمن السير والسرى وهو يتوقف ليسير ثم يسير ليتوقف ثم يتابع السير من جديد، وكأنما يقصد مكاناً معيناً بالذات.

وأخيراً.. أحس إبراهيم الإرهاق، وعجزت هاجر عن الاستمرار في السير، وصرخ الرضيع البريء وكأنما كان يعيّن بصرخته المكان المقصود فتوقف الشيخ الجليل، وطابت نفسه ونفس هاجر إلى الراحة وأحسّ ألا رغبة له بعد ذلك في المسير.

ووقر في قلب إبراهيم أن هذا المكان هو المكان المختار لتقيم فيه هاجر بعيداً مع ابنها إسماعيل، ولكن.

ولكن أي إقامة هذه التي يمكن أن تستقر في مثل ذلك القفر الجديب، في مفازة رهيبة يرفرف فوقها الصمت ويخيّم الموت، فلا حسّ ولا حياة، ولا أثر لحياة أو زرع أو ماء!!

ونقل إبراهيم عينيه في ذهول ورهبة، وتمنى لو يعاود المسير مرة أخرى أو يرتد مع هاجر وإسماعيل من حيث جاء، ولكنه لم يستطع أن يريم. وكأنما كان قدر هاجر وابنها قد ارتبط بهذا المكان.

ونظر إبراهيم إلى هاجر من بين أهدابه يرقبها في حذر دقيق، كانت هادئة صابرة، راضية، لم يفزعها المكان ولم يروعها الصمت، ولم يحزنها ذلك الجدب الضارب على الصحراء!!

وتولت الليلة بما فيها، وأشرف الصباح، وعاد إبراهيم يفكر مرة أخرى

في المسير، ولكن رغبته تضاءلت، وتبدّى له كأنما هو وأهله مأمورون بالبقاء حيث حطت بهم عصا الترحال، وجد نفسه يتجه إلى الله بضراعته، ويرقى إليه بصلاته ونجواه:

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون...﴾.

وتعالى الرجاء إلى سدة العرش، وغمرت نفس إبراهيم راحة أحس معها أن الله قد سمع له واستجاب للدعاء، وأنه لا ضير عليه بعد ذلك أن يترك هاجر وابنها حيث نزل بهما وأن يعود من حيث جاء..

ورجع إبراهيم.. وبقيت هاجر.. بقيت المصرية الشابة المكافحة الجريئة وحدها في قلب الصحراء التي لا حدود لها، بقيت لتضع بذور حياة جديدة أرادها الله في هذه البقعة المقدسة بالذات.

وبدأت هاجر حيث هي تقيم أسس الوجود. وتعمل لاستقرار حياتها الجديدة في ذلك المكان دون أن تفكر في الغد، ولا على أي صورة سوف يكون.

كانت هاجر مسلمة، أسلمت وجهها إلى الله فاطر السموات والأرض وقد فرض الإسلام على البشرية جمعاء، فالإسلام فريضة مقررة لأنه الأمر الخالد للناس بأن يشهدوا للخالق سبحانه وتعالى بالربوبية، ويقرون الوحدانية المطلقة، ويطيعون ولا يعصون.

فالإسلام فريضة كتبت على الناس جميعاً، فهو العقيدة، وهو الدين، وهو الطريقة إلى رضوان الحق وطلب برّه ورضاه.

كانت هاجر شديدة الاستمساك بأهداب دينها، عميقة الإيمان، وطيدة الصلة بالله، تعرف عن صدق أن الله لن يكلها في وحدتها هذه لغيره، ولن يحرسها سواه، فلم تفكر في شيء آخر، وابتسمت للحياة في رضا وهدوء واستسلام. ومَن أسلم نفسه وذاته لله فسوف يجزية أجره في الدنيا والآخرة.

بل في أي شيء كانت تفكر هاجر وهي تعلم أن كل هذا الوجود رهين بأمره سبحانه وتعالى، وأنه قدّر فهدى، وأعطى كل شيء حقه، وقدّر الرزق والموت والحياة على كل من خلق، وأن كل شيء عنده بمقدار.

وأقبلت هاجر على تعبّدها، وراحت تقتل الوقت الملول بالضراعة والصلوات، ووجدت في التعبد وفي رعاية الطفل ما كان يشغلها عن التفكير في أي شيء آخر.

ومرّت الأيام.

مرّت الأيام وكل شيء على حاله، وهاجر لا ترى في يومها إلا ما رأته في أمسها، والأمس الذي سبقه، فضاء ورمال وسماء ثم صمت قاتل رهيب!!

إنها صورة مألوفة، صورة الأمس، وصورة الغد، وما بعد الغد!!

ولكن..

ولكن الزاد أخذ ينفد، والماء يقل، والأيام تتوالى.

وتهتف هاجر راضية مؤمنة! إن الله لن يتخلى عنا أبدًا أنا والرضيع البريء.

كانت ابتسامة إسماعيل الوضاءة تملأ حياة هاجر بالنور والأمل والفرحة، وكانت ضحكته الناغية تنزل على قلبها برداً وسلاماً وكأنها أنداء الصباح الطاهر تتساقط على أكمام الزهور!!

وابتسمت هاجر في هدوء وهي تتصور أكمام الزهور في ذلك الجدب الرهيب!! وكأنما ارتاحت إلى فكرة الزهور ووجود الزهور.. ؟!

أليس إسماعيل الرضيع ابن خليل الرحمن إبراهيم زهرة ندية عبقة قدّر لها الله أن تعيش في الصحراء وأن تنمو وأن تثمر وتتكاثر وتكون منها زهور وزهور!!

أليست هذه هي سنة الوجود وشريعة الحياة ؟!

إذا.. فلم تعبس؟! ولماذا تبتئس ولماذا تخاف ؟!

إنها مسلمة شديدة الاستمساك بإسلامها.

وإنها لقريبة بالقلب إلى الله، وإن الله ليعمر قلبها ويملؤه بنور اليقين، فلماذا تشغل نفسها بما كتبه الله على نفسه وقدّره على خلقه.

وفتحت هاجر ذراعيها للحياة من جديد، ومرة بعد مرة ويوماً بعد يوم، أخذت مواكب الحياة تسير ولكن.

ولكن الزاد كان ينفد، والماء يقل، والمكان يزداد تأبداً وضراوة، وقد راحت تعدو عليه عوامل الطبيعة وتتابع الفصول!!

وبالرغـم من هذا صبرت هاجر، صبرت وأقبلت على الحياة في رضا وهـدوء، وراحت تقبل على الرضيع البـريء بمزيد من الرعاية والحدب والحنان.

ومـرّت الأيـام بعد ذلك، ونفد الـزاد فعلاً ولم يعد لـدى هاجر ماء، وبالرغم من هذا ظلت صابرة صامتة راضية.

وانتـوت هاجر الصوم للـه تقرّبا وزلفى، وصامت يومـاً بعد يوم بعد يوم.

صامت عـن الطعام والماء وهي تأمل في رحمـة الله، وبأنه تعالى لابـد من أن يتجلى عليها وعلى وليدها بأية عظمى من آياته الكبيرة حيث يقيمان.

وتتابع مسـير الزمن، ولا بارقة تبدو فـي الأفق، ولا قبس من أمل يتبدى وسط غياهب الظلمات.

لقد طال بهاجر الصابرة صومها، طال بها الصوم واشـتدت وطأة الجـوع والعطش. وجف ضرعها، فإذا بالصـوم يفرض إجبارياً على الصغير البريء.

وصرخ إسماعيل.

ووجف قلب هاجر، وتلفتت حواليها في ذعر ولهفة وجرؤت، فسألت نفسها ما المصير؟ وما الحكمة من وجودي هنا، وهل جاء بنا إبراهيم إلى هذا الوادي المنعزل الجديب، لأموت أنا والطفل البريء؟!

وأخـذت رهبـة الفكـرة الطائشـة تهاجمهـا في قسـوة وعنف، ولكنهـا هرعت إلى إيمانها تستمسـك به، واحتمت وراءه من سـود الأفكار.

ولكن النفس المتمرّدة كانـت لهاجر بالمرصاد، وهاهي تهاجمها في عنف، وأنها لتصبح بعد مرتعاً للشيطان، وأنه ليوحي إلى تلك النفس الهالعة أن تتطاول وأن تسـأل، وأن تصـرخ في وجه هاجر قائلة إلى متى الصبر، والاستسلام، وقد وضح السر وتهدلت عنه الحجب وبان الآن كل شيء على حقيقته..!!

وصرخ إسـماعيل من هول وطـأة الجوع، وضجت هاجـر، وتمرّدت، ووضعت الطفل جانبا وراحـت تنظر هنا وهناك، ثم تجري هنا وهناك،

وتسعى هنا وهناك، وتنظر حواليها، فلاشيء غير الفضاء والرمال الممتدة إلى أطراف الأفق البعيد، وصرخت.

صرخت هاجر من كل قلبها، صرخة متمردة على الشيطان، وقد راح يغريها بأن تقتل الطفل وتنجيه من رهبوت الموت جوعاً، ثم تقتل نفسها هي بعد ذلك لتستريح، فلا تموت مرة في كل لحظة وتجرع صاب العذاب!!

وتمثل الموت لعيني هاجر، وأثارها أن رأته بعين مخاوفها يحوم فوق إسماعيل، فصرخت وتجاوبت الصحراء صدى صرخاتها التي اختلطت بصرخات الطفل، وخطر لها أن تهرب، أن تبتعد عن إسماعيل، كي لا تراه وهو يموت!! وحتى لا يراها هو الآخر، وهي تحتضر وقد عجزت عن مد يدها إليه لتطعمه أو تسقيه!

وانطلقت تجري.. فوجدت «الصفا» أقرب مرتفع إليها، فأسرعت إليه تنظر من فوقه، علّها تجد أحداً، وأرادت أن تستمر في هروبها، ولكن حنانها أوقفها، وقد دوت في خيالها صرخة الطفل فعادت تهرول كالمجنونة.

واختلطت المرئيات أمام هاجر، وعادت تهرول بين «الصفا» وتقف عند «المروة» وهي حائرة لا تستطيع أن تتقدم خطوة، سبع مرات، قطعت فيها ذلك السعي وهي تغالب الموت وتحارب اليأس وتتعلق بالأمل وتستمسك بالرجاء.

ودوى في خيالها الثائر نغم ودعاء، وراحت وهي في غمرة الاستسلام إلى هلاك حتمي، تنصت، وكان الصدى يرجّع صوت زوجها إبراهيم:

- ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

وأنصتت هاجر إلى أرانين الدعاء طويلا، ثم استمرت في هرولتها شاردة مسلوبة اللب، تصغي إلى صراخ الطفل مرة وإلى هاتف خفي مرة أخرى، ثم إلى يقين ساورها مرة ثالثة.

إنها في جوار الحرم، فكيف يأتي عليها الجوع ويفترسها العطش؟! وإنها لضيف الله في واد رهيب، توسل إبراهيم إلى ربه أن يحيله إلى

جنـــة، وأن يـــرزق من فيه من الثمرات، فهل يضـــل الرجاء، ولا يقبل رب البيت دعوة خليله؟!

وصاحت هاجر من كل قلبها! يا رب..

وصـــرخ الطفل حيث هـــو، وبلغته الملائكية غير المفهومـــة وقطعاً كان يسأل خالقه ومولاه.

صـــرخ إســـماعيل وراح يضرب الأرض بقدميـــه الصغيرتين حيث كان ينام.

وعـــاد إســـماعيل يصرخ ويصرخ وهـــو لا يلبث في كل مـــرة ومع دوي الصرخـــة، يـــركل الأرض بقدميه وأصداء الصرخات تتعالى نحو ســـدة العرش مستنجدة بالله.

واستجاب الله لهاجر الصابرة والطفل البريء، وعند قدمي إسماعيل أخذ الماء ينفجر وينبثق عالياً، وإذا برشـــاش منه يمس وجه هاجر فتنتبه في ذهول ودهشة ورهبة ثم تنطلق عدواً إلى حيث كان الصغير، فحملته وابتعدت به ثم وســـدته على نشـــر من الأرض، وعادت إلى الماء المنفجر، فراحت تضمه براحتي يديها في عصبية، وكأنما تصورت أنها قادرة على أن تجمعه كله حيث هو، فلا ينتشر ويضيع ويتهرّب بين حبات الرمال!!

وجعلـــت هاجر تصيح وكأنما تخاطب الماء، وتأمر العين المتفجرة قائلة «زمـــى.. زمى» وإذا بالماء المتدفق يســـتجيب بإذن اللـــه لهاجر ويطيعها، فيستمر على تدفقه في هدوء من راح يضع أسس استقراره ويعين مكان بئر «زمزم» الموجود.

وبكت هاجر، بكت فرحاً وندماً، بكت فرحاً لأن القدرة قد اســـتجابت لدعاء إبراهيم، وندماً لأنها كادت تستســـلم إلى الوسواس الخنّاس وهو يوحي إليها بالتمرّد والتجديف!!

وحومت سباع الطير الضارية فوق سماء «زمزم» وكان تكاثر أرجلها في الفضاء دليل قيام حياة جديدة مستقرة في تلك البقعة النائية المهجورة.

ووجـــد بضعة نفر من قبيلة جرهم أنفســـهم يحثـــون المطايا إلى ذلك المـــكان القصي المجهول، وإذا بهم يفاجـــأون بعين زمزم المتفجرة بالحياة والاستقرار، وبهاجر ورضيعها البريء.

واســـتأذن القادمون هاجر في البقاء حول الماء فلم تجد غضاضة في

السماح لهم وأذنت لهم بما شاءوا وبأن يشاركوها وابنها العيش على أن يعترفوا لإسماعيل عندما يشب بالصدارة والزعامة وحرية التصرف في مياه العين.

ورضي الجرهميون بما طلبته هاجر، وانتقلوا بجموعهم ليعيشوا حول النبع الذي تفجّر تحت قدمي إسماعيل استجابة لدعاء أبيه إبراهيم وضراعة أمه هاجر الصابرة التي قرت عينها في النهاية، واستقرت بها الحياة وطاب لها العيش مع جيرة كرام صاهروها بعد أن بلغ إسماعيل مبالغ الشباب وزوجوه ابنة شيخهم لتكون له الزعامة فيهم من بعده، وليكون أبا لشعوب عدة، وأمم كبيرة قدّر لها الله أن تنشأ في ذلك المكان وإلى جوار البيت العتيق.

وسارت الحياة سيرتها الرضية بعد ذلك، وأقر الله عيني هاجر بابنها، بكر إبراهيم، وراحت تتخيله مع الغد، وكيف أنه سيكون أمة عظيمة، مباركة وأنه لابد أن يرث والصالحون من ذريته شريعة وإمامة أبيهم إبراهيم عليه السلام.

هذا الكتاب

إن خصوصية وطبيعة المرأة العربية ذاتها في أنها ظلت تتبنى دورا معينا ونموذجا محددا للفعل له سمات خاصة عبر مختلف مراحل التاريخ العربي وكأنما فعلت ذلك باختيار ربما يكون قد تم إما بفعل غريزتها المتيقظة أو وعيها الثاقب. فقد اختارت المرأة العربية في أغلب مراحل التاريخ العربي السالف دور المساندة والدعم، بينما تركت للرجل دور المواجهة في الخطوط الأمامية. وتثبت أغلب أحداث التاريخ العربي أن اختيار المرأة العربية لهذا الدور لم يكن عن ضعف أو قصور منها أو انصياعاً لدور أجبرت عليه، بل عن اختيار واعٍ، بدليل أن هذه المرأة العربية كانت تنتقل فوراً إلى الخطوط الأمامية وتحل محل الرجل وتمارس مهامه عندما تستدعيها الأحداث لفعل ذلك، فتنجز وتحسم وتصل وتمنع وتقطع وتقضي وتمنح بأفضل مما يفعل أقوى الرجال. وتاريخنا العربي يمتلئ بنماذج من النساء العربيات اللاتي تصدرن لمهام القيادة في الصفوف الأمامية في مراحل تاريخية حرجة، بحيث إنها لتنصف المرأة العربية إذا ما آن أوان عقد المقارنات بين السياق العربي والسياقات الحضارية الأخرى.

«من مقدمة الكتاب»

كتاب العربي ٧٥

نساء في التاريخ العربي

وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت